مجموعة رسائل في التوحيد

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء

خرَّج أحاديثه وضبطه
أبو أنس أشرف بن يوسف بن حسن

الناشر
دار العقيدة

رقم الإيداع
٢٠٠٤ / ١١٣٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

* مقدمة التحقيق *

إن الحمدَ للَّهِ نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ، ونَعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ، ومِن سيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هادىَ له .

وأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له ، وأَشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه .

﴿ يَا أَيُّها الذين آمنوا اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب : ٧٠ – ٧١]

أَمَّا بعدُ ؛ فهذه أربعُ رسائلَ فى التوحيدِ ، وهى :

- **الرسالة الأولى** : الرد على السيبانى .
- **الرسالة الثانية** : الولاء والبراء فى الإسلام .
- **الرسالة الثالثة** : حقيقة لا إله إلا الله .
- **الرسالة الرابعة** : عقيدة التوحيد .

الرسالة الأولى لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، رحِمه اللَّهُ ، وثلاثُ رسائلَ لفضيلة الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان ، حفظه اللَّهُ ، ألَّحتِ الحاجةُ إليها فى هذه الأيامِ ، وهى من الأمورِ التى يَجِبُ على كلِّ مسلمٍ أن يَتَعَلَّمَها ؛ حتى تكونَ عبادتُه للَّهِ عزَّ وجَلَّ على وَفْقِ ما يُحِبُّه ويَرْضَاه سبحانَه .

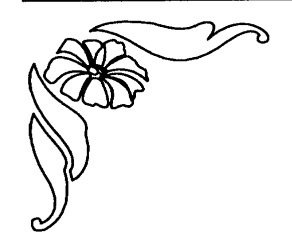
وقد قُمْتُ بضبطِ هذه الرسائلِ الأربعِ ، وتخريجِ الأحاديثِ وأقوالِ أهلِ العلمِ الواردةِ فيها .

وختامًا ، أسْأَلُ اللَّهَ تعالى أن يَنْفَعَ بمادَّةِ هذا الكتابِ ، وأن يَجْعَلَ عملى فيه خالصًا لوجهِه سبحانَه .

والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين .

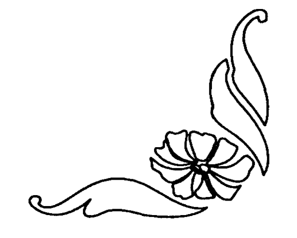
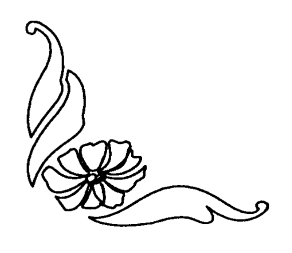
وكتبه

أبو أَنَس أشرف بن يوسف بن حسن

الرد على الشيخ السيابى

فى تعقيبه على فتوى
شيخنا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
فى حكم من نفى الرؤية
وقال بتخليد العصاة فى النار
وإن القرآن مخلوق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ مُعِزِّ مَن أطاعه واتَّقَاه ، وخَاذِلِ مَن خالَفَ أمرَه وعَصاه ، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه نبيِّنا محمدِ بنِ عبدِ اللهِ ، وعلى آلِه وأصحابِه ، ومَن سار على نَهْجِه واقْتَفَاه . . . . وبعدُ :

فقد اطَّلَعْتُ على نُبْذةٍ كتَبَها الشيخُ أحمدُ بنُ سُعودٍ السيابيُّ / تحتَ عُنْوانِ : الردُّ على فَتْوَى الشيخِ / عبدِ العزيزِ بنِ بازٍ / فى حكمِ الصلاةِ خلفَ مَن يَنْفِى رؤيةَ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ فى الجنةِ مُخالِفًا ما جاء فى الكتابِ والسنةِ من إثباتِ ذلك ، ووُجُوبِ الإيمانِ بها .

وقد وجَدْتُ السيابيَّ تَحامَلَ على شيخِنا الشيخِ ابنِ بازٍ ، وأقْذَع[1] فى ردِّه بالسِّبابِ والكَلِماتِ النابيةِ ، مما ليس هو من أسلوبِ العُلماءِ .

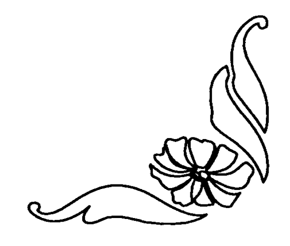
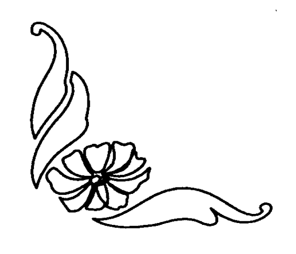
وإنما هو أسلوبُ المُفْلِسِين الذين لا يَمْلِكون دليلًا ، ولا حُجَّةً صحيحةً ، يُؤَيِّدون بها قولَهم ، فإنهم يَلْجَئُون إلى مثلِ هذا الأسلوبِ ، لعَلَّه يُعَوِّضُ ما عندَهم من عجزٍ وإفلاسٍ .

* * *

(١) يقال : أَقْذَع له : أَفْحَش فى شتمه . اللسان (ق ذ ع) .




مضمونُ فَتْوَى الشيخِ / عبدِ العزيزِ، وموقفُ السيابيّ منها، والردُّ عليه



مضمونُ فَتْوَى الشيخِ / عبدِ العزيزِ ، وموقفُ السيابيِّ منها ، والردُّ عليه

إن الشيخَ ابنَ بازٍ قد ذكَرَ فى هذه الفتوى ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ ، وما قاله الأئمةُ ؛ كالإمامِ مالكٍ والأوزاعيِّ وسفيانَ بنِ عُيَينةَ والبخاريِّ ، وعبدِ اللهِ بنِ المباركِ ، وإسحاقَ بنِ رَاهُويَه ، والإمامِ أحمدَ[١] .

وما نَقَله شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ عن جُمهورِ السلفِ من تكفيرِ مَن أنْكَر رؤيةَ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ ووُجوبِ قتلِه .

وقد بَنَى الشيخُ عبدُ العزيزِ على ذلك أنه لا يُصَلَّى خلفَه ، وهو بِناءٌ وَجيهٌ .

وقال سَماحتُه : إنه بَحَث هذه المسألةَ مع مُفْتى الإباضيةِ[٢] ، الشيخ أحمدَ الخليليِّ ، فاعْتَرَف أنه لا يُؤْمِنُ برؤيةِ اللهِ فى الآخرةِ ، وأنه يَعْتَقِدُ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ ، وذكَرَ أنه نَصَحَه ، فأصَرَّ على هذا الاعتقادِ الذى قال فيه الأئمةُ ما سبَقَ بيانُه .

وقد غضِبَ الشيخُ أحمدُ السيابيُّ مِن هذه الفَتْوَى ، ووَصَفَها بأنها صادرةٌ عن حقدٍ مَذْهَبِيٍّ ، وعَصَبيَّةٍ مُظْلِمةٍ ، وضمائرَ مُتَعَفِّنةٍ .

وهذه الألفاظُ - كما قلْنا - هى نَمُوذَجٌ من بِضاعةِ المُفْلِسِين الذين ليس عندَهم شيءٌ من الحُجَجِ الصحيحةِ والأدلةِ المُقْنِعَةِ .

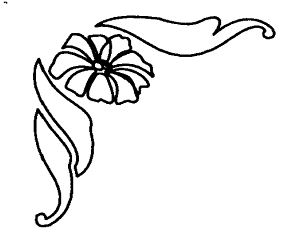
---

(١) سيأتى ذكر الآثار الواردة عن هؤلاء الأئمة رحمهم الله .

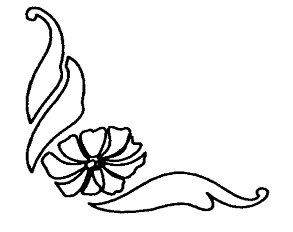
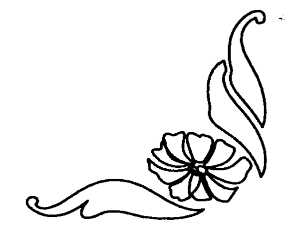
(٢) ستأتى ترجمة وافية لهذه الفرقة من الفرق الضالة إن شاء الله .

وهى فى الحقيقةِ تَنْطَبِقُ على مَن صَدَرَت منه ، حيث تعَصَّب لمذهبِه الباطلِ ، وأَبَى أن يَتَّبِعَ الكتابَ والسنةَ ، وأن يَسِيرَ فى مَوْكِبِ أهلِ العلمِ والإيمانِ من أئمةِ الدينِ ، وأظْهَر ما يُكِنُّه فى صدرِه لهم من الحقدِ الأسودِ والضَّغائنِ المُرَّةِ .

* * *




دعوتُه إلى كِتْمانِ الحقّ، وعدمِ إجابةِ مَن سأَلَ عنه



دعوتُه إلى كِتْمانِ الحقّ ، وعدمِ إجابةِ مَن سألَ عنه

قال السيابيُّ : ولعلَّ القارئَ ستأْخُذُه الدّهشةُ ، ويَذْهَبُ به الاسْتِغْرابُ كلَّ مَذْهَبٍ ، عندَما يَجِدُ أن هذه الفَتْوَى مُوَجَّهةٌ إلى أحدِ الأشخاصِ الموجودين فى الديارِ الأمريكيةِ .

ذلك البلدُ الذى يُعْتَبَرُ فيه أبناءُ الإسلامِ كالشَّعَرةِ البيضاءِ فى الثَّوْرِ الأسودِ ، فهم بحاجةٍ كبيرةٍ إلى مَن يُرْشِدُهم إلى الأُلْفةِ والمَحبَّةِ والتآخِى لتكوينِ وَحْدةٍ إسلاميةٍ قادرةٍ على الوقوفِ والصُّمودِ فى وجهِ قذائفِ الباطلِ المُوَجَّهةِ مِن جَنَباتِ مُنَظَّماتِ اللّوبىِّ الصُّهْيونىِّ .

هكذا قال ، حيث لم يَجِدْ جَوابًا عن فَتْوَى الشيخِ عبدِ العزيزِ سوى أنه لا يُناسِبُ تَوْجِيهُها إلى مَن هو فى أَمْرِيكةَ بينَ الكفارِ ؛ لأنَّ المسلمين بحاجةٍ إلى الاتحادِ للوقوفِ فى وَجْهِ العدوِّ ، كما يقولُ .

والجوابُ عن هذا مِن وُجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ الحقَّ يَجِبُ أن يقالَ ويُبَيَّنَ للناسِ ، والباطلَ يَجِبُ أن يُرَدَّ فى كلِّ مكانٍ ، كما أَمَرَ اللهُ بذلك ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وشيخُنا حفِظَه اللهُ لم يُوَجِّهْ هذه الفتوى ابتداءً حتى أتاه السؤالُ المُلِحُّ ، فهل يَلِيقُ به أن يَسْكُتَ ، ويَكْتُمَ العلمَ ، ويَتْرُكَ السائلَ فى جهلِه ، لا سيَّما فى هذه المسألةِ الخطيرةِ التى تَتَعَلَّقُ بأعظمِ أركانِ الإسلامِ

بعدَ الشهادتَيْنِ ، وهى الصلاةُ .

إننا لو أخَذْنا بقولِ هذا المُعْتَرِضِ ، وسَكَت العلماءُ عن بيانِ الحقِّ للناسِ لَضَاعَ الحقُّ ، واسْتَطال الباطلُ ، وقُضِى على الدينِ ، وهذا ما يَفْرَحُ به الكفارُ فى أَمْرِيكةَ وغيرِها .

الوجهُ الثانى : أن نَقولَ : إنَّ اجتماعَ المسلمين واتِّحادَهم ووقوفَهم فى وجهِ عدُوِّهم أمرٌ مطلوبٌ ، وهدفٌ نَبيلٌ .

ولكنَّ هذا لا يَتَحَقَّقُ إلا إذا اعْتَصَموا بكتابِ ربِّهم وسنةِ نبيِّهم ، وترَكُوا المذاهبَ الباطلةَ والأقوالَ الخاطئةَ ، ولا سيَّما فى العقيدةِ التى هى أساسُ الدينِ ، ومدلولُ الشهادتَيْن .

قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ وحبلُ اللهِ هو القرآنُ العزيزُ .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ . فأَوْجَبَ سبحانَه الرجوعَ إلى الكتابِ والسنةِ لحَسْمِ النِّزاعِ ، وقَطْعِ دابرِ الخلافِ .

ولم يَقُلْ : لِيَبْقَ كلُّ واحدٍ على رأيِهِ المُخالِفِ للكتابِ لأجلِ الوَحْدةِ ؛ لأنَّ الوَحْدةَ لا تُمْكِنُ إلا باتخاذِ الأسبابِ المؤديةِ إليها .

ومن أعظمِ تلك الأسبابِ تركُ المذاهبِ الباطلةِ والانحرافاتِ المُضِلَّةِ ، وما لم تُتْرَكِ المذاهبُ الباطلةُ فالوَحْدةُ مُتَعَذِّرةٌ .

قال تعالى : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ . وهذا ذمٌّ لهم على بقائِهم على تفرُّقِهم فى الدينِ ، ومقالاتِهم

الخاطئةِ والضالةِ ، وعدمِ الرجوعِ إلى الكتابِ والسنةِ ؛ لمعرفةِ الحقِّ ، والتمسُّكِ به .

الوجهُ الثالثُ : أن التفرُّقَ فى العقيدةِ لا يُمْكِنُ معه الاجتماعُ ، وفضيلةُ الشيخِ السيابيِّ يَدْعُونا للبقاءِ على تفرُّقِنا فى العقيدةِ .

ثم يُطالِبُنا بالاتحادِ أمامَ عدوِّنا ، وهذا تناقضٌ ظاهرٌ تَأْخُذُ القارئَ منه الدهشةُ ، ويَذْهَبُ به الاستغرابُ كلَّ مَذْهَبٍ ؛ لأنه يَدْعو إلى البقاءِ على أسبابِ الفُرْقةِ بينَنا .

وأما فَتْوَى الشيخِ عبدِ العزيزِ فإنها تَدْعو إلى القضاءِ على الأسبابِ التى تَمْنَعُ تحقُّقَ الوحدةِ بينَ المسلمين .

ومن أهمِّها المذاهبُ المنحرفةُ والنِّحَلُ الضالةُ ، فما وجهُ الغَرابةِ والدّهشةِ التى ادَّعاها السيابيُّ فيها .

إنه قبلَ ظهورِ هذه المذاهبِ والنِّحَلِ ، ويومَ أن كان المسلمون على عَقيدةٍ واحدةٍ واعتمادٍ على الكتابِ والسنةِ ، وهم أُمَّةٌ واحدةٌ .

وقد وقَفُوا صفًّا واحدًا أمامَ عدوِّهم ، وفتَحُوا البلادَ ، وسادوا العبادَ بالعلمِ والدينِ ؛ مِصْداقًا لقولِه ﷺ : « إنى تاركٌ فيكم ما إن تَمَسَّكْتُم به لن تَضِلُّوا ، كتابُ اللهِ وسُنَّتي »[1] .

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ ، وبنحوه رواه الربيع بن حبيب فى مسنده ١/٣٣ (٣٠) ، وذكره ابن حزم فى الإحكام ٨/ ٥١٣، وابن عبد البر فى التمهيد ٢٤/ ٣٣١ بلفظ : « أمران لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه » .

ثم قال – أى ابن عبد البر – : وهذا أيضًا محفوظ معروف مشهور عن النبى ﷺ ، ثم =

وقولِه ﷺ : « فإنه مَن يَعِشْ منكم فسَيَرَى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتى وسنةِ الخلفاءِ الراشدِين المَهْدِيِّين مِن بعدى ، تَمَسَّكوا بها ، وعَضُّوا عليها بالنواجذِ ، وإياكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ ، وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ »(١) .

وقد نقَلَ الشيخُ السيابىُّ فى ردِّه أبياتًا ، هى حُجَّةٌ عليه ؛ لأن الشاعرَ يَدْعُو فيها إلى تركِ المذاهبِ الضالةِ والرجوعِ إلى ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ ، حيث يقولُ فيها :

وما الدينُ إلا واحدٌ والذى نَرَى ضَلالاتِ اتباعِ الهَوَى تَتَقارَعُ
وما تَرَك المُخْتارُ ألفَ دِيانةٍ ولا جاء فى القرآنِ هذا التَّنازُعُ
فيا ليتَ أهلَ الدينِ لم يَتَفَرَّقُوا وليتَ نظامَ الدينِ للكلِّ جامِعُ

فمضمونُ هذه الأبياتِ إنكارُ المذاهبِ الباطلةِ والدعوةُ إلى تركِها .

ومن أعظمِ المذاهبِ الباطلةِ التى يَجِبُ تركُها : إنكارُ رؤيةِ اللهِ فى

= أهل العلم ، شهرةً يكاد يُسْتَغْنَى بها عن الإسناد ، ورُوِى فى ذلك من أخبار الآحاد أحاديث من أحاديث أبى هريرة وعمرو بن عوف . اهـ

ثم ذكر شيئًا من ذلك رحمه الله .

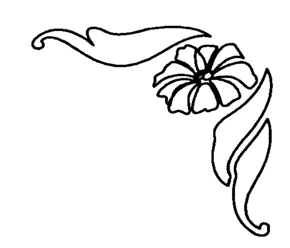
(١) رواه أحمد ٤/ ١٢٦، ١٢٧ (١٧٠٧٩، ١٧٠٨٠) ، وأبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذى (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) ، وابن أبى عاصم فى « السنة » (١٢٧) ، والطحاوى فى « شرح مشكل الآثار » ٢/ ٦٩، والبغوى فى شرح السنة (١٠٢)، والآجُرِّى فى « الشريعة » (ص٤٦) ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٦/ ٥٤١، واللالكائى فى « شرح أصول الاعتقاد » (٨١) ، والمَرْوَزى فى « السنة » (٦٩، ٧٢) ، وأبو نُعَيْم فى الحِلْية ٥/ ٢٢٠، ١٠/ ١١٥، والحاكم ١/٩٥- ٩٧، وصححه ابن حبان (٥) ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

الآخرةِ ، وإنكارُ صفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ التى من أعظمِها كلامُه ، وأنَّ هذا ليس مما جاء به المختارُ ﷺ .

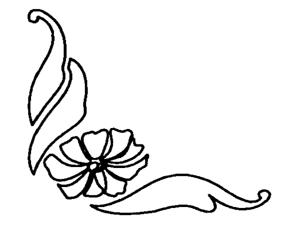
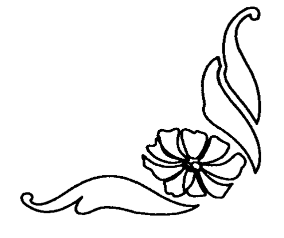
وما قال هذا الشاعرُ هو ما يدعو إليه سَماحةُ الشيخِ عبدِ العزيزِ فى فَتْواه ، ويَدْعو إليه كلُّ عالمٍ مُحَقِّقٍ ، وداعٍ إلى اللهِ على بَصِيرةٍ .

أَمَّا الذى يَدْعُو إلى عدمِ إنكارِ المذاهبِ الباطلةِ والعقائدِ الفاسدةِ فهذا يَدْعُو إلى التفرُّقِ والتفكُّكِ .

* * *

زَعْمُ السيابيّ أنَّ الشيخَ ابنَ بازٍ لم يُورِدْ أدلةً على فَتْواه، والردُّ عليه



زَعْمُ السيابىّ أنَّ الشيخَ ابنَ بازٍ لم يُورِدْ أدلةً على فَتْواه ، والردُّ عليه

قال الشيخُ السيابىُّ : مِن الغرائبِ الواردةِ فى سِياقِ الفَتْوَى - والفَتْوَى كلُّها غَرائبُ - أنَّ صاحبَها سَرَدَ فيها أقوالَ علماءَ دونَ الاستنادِ إلى نصٍّ من الكتابِ أو السنةِ الصحيحةِ .

مع أن قولَ العالِم حَسَبَ ما قُرِّر فى أصولِ المذاهبِ الأربعةِ يُحْتَجُّ له ، ومن قولِهم : إنَّ قولَ النبىِّ ﷺ يُحْتَجُّ به ، وقولَ العالِمِ يُحْتَجُّ له .

ولكنَّ فضيلتَه رَأَى أن النصوصَ لا تُساعِدُه على مُرادِه ، ولا تُسْعِفُه بمطلوبِه ، فلَجَأَ إلى أقوالِ العلماءِ ، مُسْتَعْرِضًا لهم من مالكِ بنِ أنسٍ إلى ابنِ تيميةَ .

والجوابُ عن ذلك من وجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ الكاتبَ عَمِيَت عَيْناه ، أو زاغ بصرُه عن الآيةِ الكريمةِ التى اسْتَدَلَّ بها العلماءُ الذين ساق الشيخُ ابنُ بازٍ أقوالَهم فى حُكْمِ مُنْكِرِ الرؤيةِ ، وهى قولُه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ . وقد كُتِبَتْ بالخطِّ العريضِ فى الفتوى مرتين .

كما عَمِيَت عيناه - إن كان له عينان - أو زاغ بصرُه - إن كان يُبْصِرُ - عن الآياتِ الثلاثِ التى كُتِبَت فى الفتوى ، وهى قولُه تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

قال ابنُ المباركِ : ما حَجَبَ اللهُ عنه أحدًا إلا عَذَّبه . ثم قرَأَ هذه الآياتِ[١] .

وقال الإمامُ الشافعيُّ رحِمه اللهُ : فى هذه الآيةِ دليلٌ على أن المؤمنين يَرَوْنَه[٢] .

قال ابنُ كثيرٍ : وهذا الذى قاله الإمامُ الشافعيُّ رحِمه اللهُ فى غايةِ الحُسْنِ ، وهو استدلالٌ بمفهومِ الآيةِ[٣] . اهـ

كما أنَّ الشيخَ السيابيَّ لم يَنْظُرْ إلى ما ذُكِر فى الفتوى من تفسيرِ قولِه تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ وأنَّ الزيادةَ فسَّرها النبيُّ ﷺ بالنظرِ إلى وجهِ اللهِ ، كما رواه مسلمٌ وجماعةٌ من الأئمةِ[٤] .

ذكَر ذلك الحافظُ ابنُ كثيرٍ ، وقال : وقد رُوِى تفسيرُ الزيادةِ بالنظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ ، عن أبى بكرٍ الصديقِ ، وحُذَيْفةَ بنِ اليَمانِ ، وعبدِ اللهِ بنِ عباسٍ ، وسعيدِ بنِ المسيِّبِ ، وعبدِ الرحمنِ بنِ أبى ليلى ، وعبدِ الرحمنِ بنِ سابطٍ ، ومجاهدٍ ، وعكرمةَ ، وعامرِ بنِ سعدٍ ، وعطاءٍ ، والضحاكِ ، والحسنِ ، وقتادةَ ، والسُّدِّيِّ ، ومحمدِ بنِ إسحاقَ ، وغيرِهم من السلفِ والخَلَفِ ، وقد وَرَدَت فيه أحاديثُ كثيرةٌ عن النبيِّ ﷺ . ثم

---

(١) أخرجه اللالكائى فى شرح أصول الاعتقاد ٣/٥١٠ (٨٩٤) ، وانظر بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٤١٦.

(٢) أخرجه اللالكائى فى شرح أصول الاعتقاد ٣/٥٠٦ (٨٨٣) .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٧.

(٤) رواه مسلم ١/١٦٣ (١٨١) الحديث رقم (٢٩٨) من كتاب الإيمان ، والترمذى (٢٥٥٢) ، وابن ماجه (١٨٧) .

ساق بعضًا منها[١] .

وقد حكَمَ الأئمةُ الذين ذكَرَهم الشيخُ عبدُ العزيزِ فى فتواه بكفرِ مَن أنْكَر الرؤيةَ ، ووُجوبِ قتلِه ، فإذا كان الشيخُ السيابىُّ لا يَقْنَعُ بتلك الأدلةِ ، ولا بأقوالِ هؤلاء الأئمةِ ، وإنما يَقْتَنِعُ بقولِ جَهْمٍ وجماعتِه ، فلْيَخْتَرْ لنفسِه ما شاءَ ، لكن لا يَغْضَبُ إذا خالَفَه طالبُ الحقِّ .

الوجهُ الثانى : أن الشيخَ عبدَ العزيزِ لم يُسْأَلْ عن ثبوتِ الرؤيةِ حتى يُورِدَ الأدلةَ على ثبوتِها ؛ لأنَّ السائلَ - والحمدُ للهِ - يُؤْمِنُ بها ، وإنما سُئِل عن حكمِ الصلاةِ خلفَ مَن أنْكَرَها ، فذكَرَ أقوالَ الأئمةِ فى تكفيرِ مَن أنْكَر الرؤيةَ ، وبَنَى عليها الحكمَ بعدمِ صحةِ الصلاةِ خلفَه .

وهذا هو الجوابُ المُطابِقُ للسؤالِ ، وهذا هو الإنصافُ والتحقيقُ حيث لم يَتَسَرَّعِ الشيخُ - وفَّقَه اللهُ - بإصدارِ الفتوى حتى راجَعَ كلامَ أهلِ العلمِ والتحقيقِ المَبْنِيِّ على صريحِ الكتابِ والسنةِ ، حتى لا يُقالَ : هذا رأيُك الخاصُّ ، أو هذا تَحامُلٌ منك ، أو ما أشْبَهَ ذلك .

الوجهُ الثالثُ : فى الجوابِ عن قولِ الشيخِ السيابىِّ : إنَّ قولَ العالِمِ يُحْتَجُّ له ، ولا يُحْتَجُّ به ، ولكنَّ فضيلتَه - يعنى : الشيخَ عبدَ العزيزِ بنَ بازٍ - رأَى أنَّ النصوصَ لا تُساعِدُه على مُرادِه ، ولا تُسْعِفُه بمطلوبِه ، فلجَأَ إلى أقوالِ العلماءِ . . . إلخ .

نقـــولُ :

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٥.

أولًا : ما قلتَه من أنَّ أقوالَ العلماءِ يُحْتَجُّ لها ، ولا يُحْتَجُّ بها . قولٌ صحيحٌ ، وقاعدةٌ ثابتةٌ ، ولكنَّك لم تُطَبِّقْ ذلك على نفسِك ، ولم تَلْتَزِمْ به .

فإنك قبِلْتَ قولَ علماءَ أخطأوا وضَلُّوا فى نفيِ الرؤيةِ ، ورفَضْتَ الأدلةَ الدالةَ على ثبوتِها من الكتابِ والسنةِ .

ثانيًا : قولُك : إن النصوصَ لا تُساعِدُ الشيخَ عبدَ العزيزِ على مُرادِه ، ولا تُسْعِفُه بمطلوبِه بذلك ، وإثباتُ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ هو قولٌ باطلٌ ومُكابَرةٌ للحقائقِ ؛ لأنَّ النصوصَ المُتَواتِرةَ مِن الكتابِ والسنةِ دَلَّت على ثبوتِ رؤيةِ المؤمنين لربِّهم عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ .

فمن أدلةِ القرآنِ الآياتُ التى سبَقَ ذِكْرُها .

ومن السنةِ الصحيحةِ : قولُه ﷺ : « إنكم ستَرَوْنَ ربَّكم عزَّ وجلَّ ، كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ ، لا تَضَامُّون[1] فى رؤيتِهِ » . الحديثَ ، متفقٌ عليه بينَ البخاريِّ ومسلمٍ[2] .

وقد تَواتَرَتِ الأحاديثُ بذلك عن رسولِ اللهِ ﷺ ، وهى أحاديثُ فى الصِّحاحِ والسننِ والمسانيدِ ، وتلَقَّتْها الأمةُ بالقَبولِ والتسليمِ ، ولم

(١) قال النووى رحمه اللّه تعالى فى شرح مسلم ٢/٢٨: « تضامون » : بتشديد الميم وتخفيفها ، فمَن شدَّدها فتح التاء ، ومَن خفَّفها ضَم التاء ، ومعنى المُشَدَّد : هل تَتَضَامُّون وتتلطفون فى التوصُّل إلى رؤيته .

ومعنى المُخَفَّف : هل يلحقكم ضَيْمٌ ، وهو المشقة والتعب . اهـ

(٢) البخارى (٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦) ، ومسلم ١/٤٣٩ (٦٣٣) .

يُنْكِرُها إلا المُبتَدِعةُ الضالُّون[١] .

* * *

(١) نصَّ على هذا التواتر غير واحد من أهل العلم ، منهم ابن القيم رحمه اللَّه فى حادى الأرواح ص٣٧٣، وابن أبى العز فى شرح الطحاوية ص ١٩٣، والحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٢٠٣/١ .

قال ابن القيم رحمه اللَّه فى كتاب حادى الأرواح ص ٣٧٣ :

وأما الأحاديث عن النبى ﷺ وأصحابه الدَّالة على الرؤية فمتواترة ، رواها عنه أبو بكر الصديق ، وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى ، وجَرِيرُ بن عبد اللَّه البَجَلى ، وصهيب بن سِنان الرومى ، وعبد اللَّه بن مسعود الهُذَلى ، وعلى بن أبى طالب ، وأبو موسى الأشعرى ، وعدى بن حاتم الطائى ، وأنس بن مالك الأنصارى ، وبُرَيْدة بن الحُصَيْب الأسلمى ، وأبو رَزِين العُقَيْلى ، وجابر بن عبد اللَّه الأنصارى ، وأبو أمامة الباهلى ، وزيد بن ثابت ، وعمَّار ابن ياسر ، وعائشة أم المؤمنين ، وعبد اللَّه بن عمر ، وعُمَارة بن رُوَيْبة ، وسلمان الفارسى ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد اللَّه بن عباس ، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص – وحديثه موقوف – وأبى بن كعب ، وكعب بن عُجْرة ، وفَضالة بن عُبيد – وحديثه موقوف – ورجل من أصحاب النبى ﷺ غير مُسَمًّى . اهـ

ثم ساق رحمه اللَّه هذه الأحاديث ص ٣٧٣ – ٤٠٩.

وراجع ما صُنِّفَ فى هذه المسألة ، مثل : « التصديق بالنظر إلى اللَّه تعالى فى الآخرة » للآجرى ، « وضوء السارى إلى معرفة رؤية البارى » لأبى شامة المقدسى ، وكلاهما مطبوع .

ما تَثْبُتُ به العقيدةُ فى نظرِ
الشيخِ السيابىّ، والردُّ عليه

قال الشيخُ السيابىُّ : ولا يَخْفَى على أُولِى العلمِ والنظرِ ، أنَّ العقيدةَ هو - كذا قال ، والصوابُ : هى - الاعتقادُ الجازمُ الذى هو ثَمَرةُ اليقينِ ، واليقينُ لا يَثْبُتُ إلا بالدليلِ القَطْعىِّ ، ولا يُفِيدُ القطعَ إلا القرآنُ العظيمُ والسنةُ المُتواتِرةُ .

والجوابُ على ذلك :

أن نقولَ : إنَّ رؤيةَ المؤمنين لربِّهم عزَّ وجلَّ قد ثَبَتَت بالقرآنِ فى عِدَّةِ آياتٍ سبَقَ ذِكْرُ بعضِها ، وثبَتَت بالسنةِ المُتَواتِرةِ ، ولكنَّك خالَفْتَ هذه القاعدةَ ، وأنْكَرْتَ الرؤيةَ ، فتناقَضْتَ مع نفسِك ، وهدَمْتَ ما بنَيْتَ اتِّباعًا للهَوَى ، وتقليدًا للرجالِ مِن غيرِ دليلٍ .

* * *

من عواملِ صحةِ الحديثِ فى نظرِه ، والردُّ عليه :

قال : ومِن أهمِّ عواملِ صحةِ الحديثِ موافقتُه لكتابِ اللهِ تعالى ؛ لقولِ الرسولِ ﷺ : « ما جاءكم عنى فاعْرِضوه على كتابِ اللهِ ، فما وافَقَه فعنِّى ، وما خالَفَه فليس عني » . رواه الإمامُ الربيعُ ، من طريقِ ابنِ عباسٍ رضِى اللهُ عنهما[1] .

وهو يُرْشِدُ إليه قولُه عزَّ مِن قائلٍ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

والجوابُ عن ذلك مِن وجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أن نقولَ له : إنَّ رؤيةَ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ لم تَثْبُتْ بالسُّنةِ وحدَها ، بل تَثْبُتُ بالقرآنِ أيضًا ، فى آياتٍ كثيرةٍ ، ذكَرْنا بعضَها فيما سبَقَ .

وثبَتَت بالسنةِ المُتواتِرةِ ، فيكونُ ما ثبَتَ بالسنةِ المتواترةِ عن رسولِ اللهِ ﷺ من رؤيةِ المؤمنين لربِّهم مُوافِقًا لما ثبَتَ فى القرآنِ .

فتكونُ الرؤيةُ قد تَظافَرَتْ بثُبوتِها أدلةُ الكتابِ والسنةِ المتواترةِ ،

---

(١) مسند الربيع ١/ ٣٦، ٣٦٥ (٤٠، ٩٤٥) عن جابر بن زيد .
قال العجلونى فى كشف الخفاء ١/ ٨٩: وقد سُئل شيخنا – يعنى : الحافظ ابن حجر – عن هذا الحديث فقال : إنه جاء من طرق لا تخلو من مقال .
وقال أيضًا رحمه الله ٢/ ٥٦٩ : باب إذا سمعتم عنى حديثًا فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه وإلا فردوه . لم يثبت فيه شيء ، وهذا الحديث من أوضع الموضوعات ، بل صح خلافه « ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » . اهـ
وانظر الأم للشافعى ٧/ ١٥.

فيَنْطَبِقُ عليها الحديثُ الذى ذكَرْتَ على فرضِ صحتِه ، ومع هذا خالَفْتَه ، فتناقَضْتَ مع نفسِك .

الوجهُ الثانى : قولُه : إنَّ العقيدةَ لا تَثْبُتُ إلا بالسنةِ المتواترةِ . قولٌ غيرُ مُسَلَّم ، بل تَثْبُتُ العقيدةُ بما صَحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ ، كان مُتواتِرًا ، أو آحادًا ، لا فرقَ ؛ لأنَّ هذا التفريقَ مُبْتَدَعٌ .

فما زال العلماءُ يَعْمَلُون بأخبارِ الآحادِ الصحيحةِ فى العقائدِ وغيرِها ؛ لأنهم يُؤْمِنون بالكتابِ كلِّه ، وليسوا ممَّن يُؤْمِنُ ببعضِ الكتابِ ، ويَكْفُرُ ببعضِه .

قال العَلامةُ ابنُ القيم : ولم يَكُنْ أَحدٌ من الصحابةِ ، ولا أهلِ الإسلامِ بعدَهم يَشُكُّون فيما يُخْبِرُ به أبو بكرٍ الصديقُ عن رسولِ اللهِ ﷺ ، ولا عمرُ ، ولا عثمانُ ، ولا عليٌّ ، ولا عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ، وأُبَيُّ بنُ كعبٍ ، ومعاذُ بنُ جبلٍ ، وأبو ذَرٍّ ، وعُبادةُ بنُ الصامتِ ، وعبدُ اللهِ بنُ عمرَ ، وأمثالُهم من الصحابةِ .

بل كانوا لا يَشُكُّون فى خبرِ أبى هريرةَ مع تفرُّدِه بكثيرٍ من الحديثِ ، ولم يَقُلْ له أحدٌ منهم يومًا واحدًا من الدهرِ : خبرُك خبرُ واحدٍ ، لا يُفِيدُ العلمَ[1] . اهـ

الوجهُ الثالثُ : أنه لا يُتَصَوَّرُ أن يَرِدَ عن الرسولِ ﷺ حديثٌ صحيحٌ يكونُ مُخالِفًا للقرآنِ ، بمعنى أن يكونَ مُناقِضًا له بحيثُ يُثْبِتُ ما نفاه

---

(١) وللشيخ سليم الهلالى حفظه الله رسالة بعنوان : « الأدلة والشواهد على وجوب الأخذ بخبر الواحد فى الأحكام والعقائد » .

القرآنُ ، أو يَنْفِى ما أَثْبَتَه .

قال الإمامُ ابنُ القيمِ فى كتابِ الطُّرُقِ الحُكْمِيةِ ، صفحةِ (٧٣) : والذى يَجِبُ على كلِّ مسلمٍ اعتقادُه أنه ليس فى سننِ رسولِ اللهِ ﷺ الصحيحةِ سنةٌ واحدةٌ تُخالِفُ كتابَ اللهِ ، بل السننُ مع كتابِ اللهِ على ثلاثِ مَنازِلَ :

المنزلةُ الأولى : سنةٌ مُوافِقةٌ ، شاهدةٌ بنفسِ ما شَهِدَت به الكتبُ المُنَزَّلةُ .

المنزلةُ الثانيةُ : سنةٌ تُفَسِّرُ الكتابَ ، وتُبَيِّنُ مرادَ اللهِ منه ، وتُقَيِّدُ مُطْلَقَه .

المنزلةُ الثالثةُ : سنةٌ مُتَضَمِّنةٌ لحكمٍ سَكَت عنه الكتابُ ، فتُبَيِّنُه بيانًا مُبْتَدَأً ، ولا يَجوزُ رَدُّ واحدةٍ من هذه الأقسامِ الثلاثةِ ، وليس للسنةِ مع كتابِ اللهِ منزلةٌ رابعةٌ . انتهى[1] .

وقال فى إعلامِ المُوَقِّعين (٢/٢٨٨، ٢٨٩) بعدَ أن ذَكَرَ هذه المنازِلَ ، وسمَّاها أَوْجُهًا :

الثالثُ : أن تكونَ مُوجِبةً لحكمٍ سَكَت القرآنُ عن إيجابِه ، أو مُحَرِّمةً لما سَكَت عن تحريمِه .

ولا تَخْرُجُ عن هذه الأقسامِ ، فلا تَعارُضَ بوجهٍ ما ، فما كان منها زائدًا على القرآنِ فهو تَشْريعٌ مُبْتَدَأٌ من النبىِّ ﷺ تَجِبُ طاعتُه فيه ، ولا تَحِلُّ مَعْصِيتُه ، وليس هذا تقديمًا لها على كتابِ اللهِ ، بل امتثالٌ لما أَمَرَ اللهُ

(١) الطرق الحكمية ص ٦٧ . ط دار الحديث .

به من طاعةِ رسولِه .

ولو كان رسولُ اللهِ ﷺ لا يُطاعُ فى هذا القسمِ ، لم يَكُنْ لطاعتِه معنًى ، وسَقَطَت طاعتُه المُخْتَصَّةُ به ، وأنه إذا لم تَجِبْ طاعتُه إلا فيما وافَقَ القرآنُ ، لا فيما زاد عليه لم يَكُنْ له طاعةٌ خاصةٌ تَخْتَصُّ به ، وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ انتهى .

الوجهُ الرابعُ : أنَّ الحديثَ الذى ذكَرَه لا يَصْلُحُ للاحتجاجِ ، قال السُّيوطىُّ فى كتابِ : « مِفْتاحُ الجنةِ فى الاحتجاجِ بالسنةِ » : قال الشافعىُّ : احْتَجَّ علىَّ بعضُ مَن ردَّ الأخبارَ بما رُوِى أنَّ النبىَّ ﷺ قال : « ما جاءكم عنى فاعْرِضوه على كتابِ اللهِ » الحديثَ .

فقلتُ له : ما رَوَى هذا أحدٌ ثبَتَ حديثُه فى شيءٍ صغيرٍ ، ولا كبيرٍ ، وإنما هى روايةٌ مُنْقَطِعةٌ ، عن رجلٍ مجهولٍ ، ونحن لا نَقْبَلُ مثلَ هذه الروايةِ فى شيءٍ[1] . انتهى .

وقال فى مُقَدِّمةِ هذا الكتابِ : وإنَّ مما فاح رِيحُه فى هذا الزمانِ ، وكان دارِسًا بحمدِ اللهِ منذُ أزمانٍ ، وهو أن قائلًا رافضيًّا زِنْدِيقًا أكْثَر فى كلامِه أن السنةَ النبويةَ والأحاديثَ المرويةَ - زادها اللهُ عُلُوًّا وشَرَفًا - لا يُحْتَجُّ بها ، وأنَّ الحُجَّةَ فى القرآنِ خاصةً .

وأوْرَد على ذلك حديثَ : « ما جاءَكم من حديثٍ فاعْرِضوه على القرآنِ ، فإن وَجَدْتُم له أصلًا ، فخُذُوا به ، وإلا فرُدُّوه » .

هكذا سمِعْتُ هذا الكلامَ بجملتِه منه ، وسمِعَه منه خلائقُ غيرى ،

(١) مفتاح الجنة ١/ ٢١.

فمنهم مَن لا يُلْقِي لذلك بالًا ، ومنهم مَن لا يَعْرِفُ أصلَ هذا الكلامِ ، ولا مِن أين جاء ، فأرَدْتُ أن أُوَضِّحَ للناسِ أصلَ ذلك ، وأُبَيِّنَ بطلانَه ، وأنه من أعظمِ المَهالِكِ[1]. اهـ

* * *

(١) مفتاح الجنة ١/ ٥.

تَعَجُّبُ الشيخِ السيابىِّ مِن كونِ أهلِ السنةِ لا يَعْمَلون بقولِ الخوارجِ فى الخروجِ على الوُلاةِ

قال الشيخُ السيابىُّ : والبعضُ من أولئك العلماءِ الذين حكَى عنهم فضيلتُه الأقوالَ الحماسيةَ المُلْتَهِبةَ بقتلِ منكرِ الرؤيةِ لم يَثْبُتْ عنهم أنهم قاموا بذلك ، أو أمَرُوا به فى مواجهةِ الجَوَرةِ الظلمةِ الذين اسْتَعْبَدوا عبادَ اللهِ ، واتَّخَذُوهم خَوَلًا ، ومالَ اللهِ دُوَلًا ... إلخ ما قال .

نقولُ : هذا القولُ يَتَمَشَّى مع مَنْطِقِ الخوارجِ[1] الذين يَرَوْنَ الخروجَ على الأئمةِ الظلمةِ ، وأهلُ السنةِ لا يَرَوْنَ ذلك ؛ امتثالًا لأوامرِ الرسولِ ﷺ بالسمعِ والطاعةِ لوُلاةِ الأمورِ ، وإن جاروا ، وإن ظَلَمُوا ، ما لم يَصْدُرْ منهم كفرٌ بَوَاحٌ[2] .

---

(١) سُمُّوا بهذا الاسم لخروجهم على الإمام على رضى اللّٰه عنه ، وهم قد نزلوا بأرض يقال لها : حَرُوراء . فسموا بالحَرُورِيَّة ، وهم الذين يُكَفِّرون أصحاب الكبائر ، ويقولون بأنهم مُخَلَّدون فى النار ، كما يقولون بالخروج على أئمة الجَوْر ، وأن الإمامة جائزة فى غير قريش ، وهم يُكَفِّرون عثمان وعليًّا رضى اللّٰه عنهما وطلحة والزبير وعائشة رضى اللّٰه عنهم ، ويُعَظِّمون أبا بكر وعمر رضى اللّٰه عنهما .
الفصل فى الملل والأهواء والنحل ١١٣/٢ ، والملل والنحل للشهرستانى ١٥٤/١ ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٥٠ ، والبرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص٩ .

(٢) روى البخارى (٧٠٥٥، ٧٠٥٦) ، ومسلم ١٤٧٠/٣ (١٧٠٩) ، الحديث رقم « ٤٢ » من كتاب الإمارة ، عن جُنَادَةَ بن أمية قال : دخلنا على عبادة بن الصامت ، وهو مريض ، فقلنا : حَدِّثْنا - أَصْلَحَكَ اللّٰهُ - بحديث ينفع اللّٰه به ، سمِعْتَه من رسول اللّٰه ﷺ . فقال : دعانا رسول اللّٰه ﷺ ، فبايَعْناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بَايَعَنا على السمع =

وأيضًا هو سَوَّى بينَ جَوْرِ الوُلاةِ ، وبينَ القولِ بنفيِ الرؤيةِ ، وهذا يَدُلُّ على جهلِه ، أو على تلبيسِه ؛ فإنَّ جَوْرَ الوُلاةِ لا يَقْتَضِي الكفرَ ، ونفْيَ الرُّؤْيةِ يَقْتَضِي الكفرَ ؛ لأنه تَكْذيبٌ للهِ ولرسولِه ، ولما عليه أئمةُ المسلمين من سلفِ الأمةِ وخَلَفِها .

* * *

= والطاعة فى مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا ، وعُسْرنا ويُسْرنا ، وأَثَرَة علينا ، وأن لا نُنازِع الأمرَ أهلَه . قال : « إلَّا أن تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عندكم من اللّه فيه بُرْهان » .

قال ابن حجر رحمه الله فى الفتح ١٣/ ٨: قوله : « إلا أن تروا كفرًا بواحًا » بموحدة ومهملة ، قال الخطابى : معنى قوله : « بواحًا » يريد ظاهرًا باديًا من قولهم : باحَ بالشيء يَبُوح به بَوْحًا وبَوَاحًا ، إذا أذاعه وأظهره . اهـ

إنكارُ الشيخِ السيابىّ
لعلاقةِ الإباضِيَّةِ بالجهميـةِ ، والردُّ عليه

قال الشيخُ السيابىُّ : يُرَكِّزُ صاحبُ الفتوى – يعنى : الشيخَ عبدُ العزيزِ – على أنَّ كلَّ مَن يُنْكِرُ رؤيةَ اللهِ تعالى فهو جَهْميٌّ ، فما عَلاقةُ الإباضيةِ[1] بالجَهْميةِ[2] ، ....

(١) الإباضية : أصحاب عبد اللّه بن إباض ، قالوا : مخالفونا كفار غير مشركين ، يجوز مناكحتهم وغنيمة أموالهم من سلاحهم وكراعهم عند الحرب دون غيره ، ودارهم دار الإسلام إلّا معكسر سلطانهم ، وتقبل شهادة مخالفيهم عليهم ، ومرتكب الكبيرة موحّد غير مؤمن ، واستطاعة قبل الفعل ، وفِعْل العبد مخلوق لله تعالى ، ويَفْنَى العالَم كله بفناء أصل التكليف ، ومرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا شرك ، وتوقفوا فى تكفير أولاد الكفار وفى النفاق أهو شرك ؟ وجواز بِعثة رسول بلا دليل ، وتكليف أتباعه ، وكفروا عليًا وأكثر أصحابه ، وقد افترقوا فرقًا أربعًا هى :

١ – الحفصية : أصحاب أبى حفص بن أبى المقدام ، زادوا أن بين الإيمان والشرك معرفة الله تعالى ، فمن عرف الله وكفر بما سواه ، أو بارتكاب الكبيرة فكافر لا مشرك .

٢ – اليزيدية : أصحاب يزيد بن أنيسة ، قالوا : سيبعث نبى من العجم بكتاب يكتب فى السماء ، ويترك شريعة محمد إلى ملة الصابئة ، وأصحاب الحدود مشركون ، وكل ذنب شرك .

٣– الحارثية : أصحاب أبى الحارث الإباضى ، خالفوا الإباضية فى القدر فى الاستطاعة قبل الفعل .

٤ – المطيعية : هم القائلون بطاعة اللّه ، لا يراد بها اللّه .

وانظر عنهم : الأنساب ١/ ٨٧، الفرق بين الفرق (٥٤، ٥٥) ، الفصل ٤٣/ ١٨٨، التبصير فى الدين (٣٤) ، الحور العين (١٧٥) .

(٢) الجَهْمِيَّةُ نُسِبوا إلى إمامهم ، فقد سُمُّوا بذلك نسبةً إلى جَهْم بن صَفْوان ، وقد قتله سَلْم بن أَحْوَز سنة ١٢٧هـ ، وهم من القائلين بنفي الأسماء والصفات عن اللّه تعالى ، وأن الجنة =

..... إنَّ جَهْمَ بنَ صَفْوانَ[1] ، وأصحابَه لم تَظْهَرْ آراؤُهم إلا فى الرُّبْعِ الأولِ من القرنِ الثانى الهجرىِّ ، وأئمةُ الإباضيةِ وعلماؤُهم كانوا فى القرنِ الأولِ الهجريِّ .

إلى أن قال : وهل موافقةُ الجهميةِ للإباضيةِ فى إنكارِ الرؤيةِ – ولعلَّها المسألةَ الوحيدةَ التى وَفَّق اللهُ الجهميةَ إلى قولِ الحقِّ فيها – تَجْعَلُ الجهميةَ من الإباضيةِ ، أو الإباضيةَ من الجهميةِ ؟

والجوابُ عن ذلك :

أولًا : إنَّ الذى قال : مَن لم يُؤْمِنْ بالرؤيةِ فهو جَهْمىٌّ ، ليس هو صاحبَ الفتوى ، وإنما هو سفيانُ بنُ عَيَيْنَةَ والإمامُ أحمدُ ، والشيخُ عبدُ العزيزِ إنما نقَلَ ذلك عنهما ، ولم يَبْتَكِرْه مِن عندِه .

= والنار تَبِيدان وتَفْنَيان ، وأن الإيمان هو المعرفة فقط ، والكفر هو الجهل باللّٰه فقط ، وأن الفاعل هو اللّٰه وحده ، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم مجازًا .

ومن أصولهم : تقديم العقل على النقل ، كما قالوا بخَلْق القرآن .

وقيل : إن الجهمية لا تعتبر فرقة قائمة بذاتها كالمعتزلة ، ولذا لم تذكر كفرقة عند كثير ممن كتب فى الملل والنحل ، وإنما تذكر ضمن فرق المعتزلة والمرجئة .

انظر فى مذهبهم : مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٨، وتاريخ التراث العربى ١/٤/ ٢١، ٢٢، والبرهان فى عقائد أهل الأديان ص ١٧، ١٨، والفصل فى الملل والنحل ٤/ ٢٠٤ .

(١) هو جهم بن صفوان السمرقندى ، أبو مُحْرز ، من موالى بنى راسب ، رأس الجهمية ، وإليه ينتسبون ؛ لأنه أول من نشر المذهب . قال الذهبى : الضالُّ المبتدع ، رأس الجهمية ، هلك فى زمان أصغر التابعين ، وما علمتُه رَوَى شيئًا ، ولكنه زرع شرًّا عظيمًا ، قتله سَلْم بن أحوز سنة ١٢٨ .

ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٦، والسير ٦/ ٢٦، وتاريخ التراث العربى ، المجلد الأول ٤/ ٢٢، والأعلام ٢/١٤١ .

ثانيًا : أنَّ الجهميةَ هم الذين شهَرُوا ونشَرُوا القولَ بنفيِ الأسماءِ والصفاتِ من الرؤيةِ وغيرِها ، فنُسِبَ القولُ إليهم بهذا الاعتبارِ ، وإن كان الإباضيةُ - كما قال الشيخُ السيابيُّ - لهم السَّبْقُ فى نفيِ الرؤيةِ ، قبلَ وجودِ الجَهْميةِ .

وأنَّ اللهَ وفَّق الجهميةَ لاتِّباعِهم فى هذا الضَّلالِ ، فهو شرٌّ لا يُحْسَدُون عليه كلُّهم ، و بِئْسَ التابعُ ، و بِئْسَ المَتْبوعُ فى مخالفةِ كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ، وما عليه أئمةُ المسلمين ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ .

وقد ذكَرَ اللهُ عن الأحزابِ الضالةِ أنها تَفْرَحُ بما عندَها من الضلالِ ، فقال : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

* * *

نظرةُ الشيخِ السيابىّ إلى أدلةِ أهلِ السنةِ على إثباتِ الرؤيـةِ ، والردُّ عليه

قال الشيخُ السيابىُّ : إن الحُجَّةَ التى يَسْتَنِدُ إليها كثيرٌ من أولئك العلماءِ الذين ذكَرَهم الشيخُ ابنُ بازٍ نَقْلًا عن ابنِ القيمِ هى قولُه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

والشيخُ ابنُ بازٍ يَسْتَأْنِسُ بهذا الاحتجاجِ ، أيَّما استئناسٍ ، والسؤالُ هو : أىُّ دليلٍ له فى هذه الآيةِ بثبوتِ رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومذهبُه قائمٌ على إنكارِ المجازِ فى القرآنِ ؟

والمُتأَمِّلُ يرى أن الآيةَ الكريمةَ قد أَسْنَدَت النظرَ إلى الوجوهِ ، فهل تكونُ الرؤيةُ بالوجهِ ، إنَّ هذا لم يَثْبُتْ فى كلامِ العربِ على الإطلاقِ ، وإنما تكونُ الرؤيةُ بالعينِ . . . إلخ ما قال .

والجوابُ عن ذلك أن نقولَ :

أولًا : ليست الحجةُ التى يَسْتَنِدُ إليها العلماءُ فى إثباتِ الرؤيةِ مَقْصورةً على الآيةِ المذكورةِ - وإن كانت كافيةً - بل هناك آياتٌ وآياتٌ وأحاديثُ مُتَواتِرةٌ فى إثباتِ الرؤيةِ ، كما بيَّنا بعضَها .

ثانيًا : قولُه : إنَّ الآيةَ الكريمةَ قد أسْنَدَت النظرَ إلى الوجوهِ ، فهل تكونُ الرؤيةُ بالوجهِ ؟!

هذا من المُغالَطَةِ المُضْحِكةِ ؛ لأنَّ أحدًا مَهْما بَلَغ من الغَباوةِ لا يَفْهَمُ هذا الفهمَ ، الذى ذكَرَه .

وإنما يَفْهَمُ كلُّ أحدٍ أن الوجوهَ تَنْظُرُ بأعينِها ، كما إذا قلتَ : رأيْتُ زيدًا ، ونظَرْتُ إليه ، فهل يَفْهَمُ أحدٌ أنك رأَيْتَه بجسمِك ، أو لا يَفْهَمُ إلا أنك رأيْتَه بعينَيْك ؟!

لكنَّها المُغالَطةُ الفَارغةُ .

وذِكْرُه سبحانَه للوجوهِ ؛ لأنها أشرفُ شيءٍ فى الإنسانِ مِن الأعضاءِ الظاهرةِ ، وهى التى تَحْصُلُ بها المواجهةُ .

* * *

اعتراضٌ باردٌ، وردُّه

قال الشيخُ السيابيُّ مُتَسائِلًا : ما هى المناسبةُ بينَ هذه الآيةِ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وبينَ الآيةِ التى بعدَها ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

إذا فُسِّر قولُه تعالى : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ بالرؤيةِ ، وإنَّ خيرَ ما يُفَسِّرُ القرآنَ هو القرآنُ ، فاللهُ تعالى يقولُ فى آخرِ سورةِ « عبس » : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ مُفَسِّرًا لقولِه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

والجوابُ عن ذلك من وجهَيْـنِ :

الوجهُ الأولُ : أن المناسبةَ بينَ قولِه تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وبينَ الآيةِ التى بعدَها ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ أنه سبحانَه لمَّا ذكَر ما يُكْرِمُ به أولياءَه من نَضْرةِ الوجوهِ ، وحُسْنِها ، وما تَنْعَمُ به زيادةً على ذلك من النظرِ إلى وجهِه الكريمِ ، ذكَر حالةَ أعدائِه وما يَلْقَوْنَه من العذابِ الأليمِ الذى يَظْهَرُ أثرُه على وجوهِهم .

وأعظمُ ذلك حِرْمانُهم من رؤيةِ ربِّهم عزَّ وجلَّ ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ .

وكثيرًا ما يُقارِنُ اللهُ سبحانَه فى كتابِه بينَ حالِ أهلِ السعادةِ ، وحالِ أهلِ الشَّقاوةِ فى الآخِرةِ ؛ ليُذَكِّرَ عبادَه حتى يَأْخُذوا بأسبابِ السعادةِ ، ويَتْرُكوا أسبابَ الشَّقاوةِ .

الوجهُ الثانى : أن آيةَ « عبس » : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴾ ليست مُفَسِّرةً لقولِه تعالى : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ كما يقولُ .

لأنَّ النظرَ غيرُ الإسفارِ ؛ فالنظرُ يكونُ بالعينِ ، والإسفارُ لونٌ يَظْهَرُ على الوجهِ ، ورُبَّما يكونُ نتيجةً للنظرِ إلى الشيءِ السارِّ المُفْرِحِ ، أو للخبرِ السارِّ ، أو غيرِ ذلك .

فالمؤمنون يَجْمَعُ اللهُ لهم بينَ نَضْرةِ الوُجوهِ ، وإسفارِها ، ونظرِ العُيُونِ إلى وجْهِه الكريمِ .

ثم إنَّ هذا التفسيرَ الذى ذَكَره لم يَقُلْ به أحدٌ يُعْتَمَدُ على قولِه من المُفَسِّرين فيما نَعْلَمُ .

* * *

تعلُّقُ الشيخِ السيابىّ بنفيِ عائشةَ رضِى اللهُ عنها رؤيةَ النبى ﷺ لربّه ليلةَ المِعْراجِ؛ ليَحْتَجَّ به على نفيِ الرؤيـةِ في الآخرةِ

ثم يَمْضِى الشيخُ السيابىُّ فى مُغالَطاتِه، فيقولُ: كما أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنين رضِى اللهُ عنها اسْتَدَلَّت بقولِه تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ على نفيِ رؤيةِ النبىِّ ﷺ ربَّه فى جوابِها لمَسْروقٍ فى الحديثِ الذى رواه الربيعُ[1]، والبخارىُّ، ومسلمٌ[2]. هكذا قال.

ثم إنه أراد دفعَ الإجابةِ الصحيحةِ عن هذه المغالَطةِ، فقال: فإن قيل: إنَّ ذلك الاستدلالَ كان على نفيِها فى الدنيا، لا فى الآخرةِ؟

فالجوابُ عن ذلك من وَجْهين:

الوجهُ الأولُ: أنَّ صفاتِ اللهِ تعالى لا تَتَغَيَّرُ، ولا تَتَبَدَّلُ فهى فى الأَزَلِ، وفيما لا يَزالُ؛ إذ إنَّ التغيُّرَ مِن سماتِ الحدوثِ، وهو شأنُ المَخْلُوقين.

الثانى: أن منزلَةَ الرسولِ ﷺ فى قابِ قوسين، أو أدْنَى، يُمْكِنُ أن تُقاسَ على منزلتِه فى الآخِرةِ؛ لأنَّ رحلةَ الإسراءِ والمِعْراجِ كانَتْ نَقْلةً من جَوٍّ إلى جَوٍّ آخرَ، ومِن مقامٍ إلى مقامٍ آخرَ.

---

(١) مسند الربيع ١/ ٣٠٩.

(٢) البخارى (٤٨٥٥)، ومسلم ١/١٥٩ (١٧٧).

فلو كانت رؤيته تعالى مُمْكِنةً وجائزةً لَرَأَى الرسولُ ﷺ ربَّه ليلةَ الإسراءِ والمِعْراجِ .

والجوابُ عن ذلك من وُجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ عائشةَ رضِى اللهُ عنها قطعًا تُرِيدُ من هذا النفيِ نفىَ رؤيتِهِ فى الدنيا ، ولا تُرِيدُ نفىَ ما ثبتَ بالأدلةِ القاطعةِ من رؤيتِهِ فى الآخِرةِ .

وصانها اللهُ عما نسَبْتَه إليها من مخالفةِ كتابِ اللهِ ، وسنةِ نبيِّه ، وقد ظنَنْتَ بها سُوءًا ، وقوَّلْتَها ما لم تَقُلْ .

ولو كانت أرادَتْ ما ذكَرْتَ - وحاشاها من ذلك - لَرَدَّ عليها الصحابةُ بالآياتِ والأحاديثِ المُثْبِتةِ للرؤيةِ فى الآخِرةِ .

فهم أجَلُّ مِن أن يَسْكُتوا على ما يُخالِفُ الكتابَ والسنةَ ، وأن يُجامِلُوا أحدًا فى ذلك .

ولكنَّها رضِى اللهُ عنها كانت تُثْبِتُ الرؤيةَ فى الآخرةِ ، قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحِمه اللهُ : ولهذا كانت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضِى اللهُ عنها تُثْبِتُ الرؤيةَ فى الدارِ الآخرةِ ، وتَنْفِيها فى الدنيا ، وتَحْتَجُّ بهذه الآيةِ[1] .

الوجهُ الثانى : أن نَفْىَ رؤيةِ اللهِ فى الدنيا ، وإثباتَها فى الآخرةِ ، ليس تغَيُّرًا ، أو تَبَدُّلًا فى صفاتِ اللهِ ، كما توَهَّم السيابىُّ .

وإنما هو تغيُّرٌ لصفاتِ المخلوقِ ، مِن كونِه لا يَقْوَى على رؤيةِ اللهِ فى الدنيا ؛ لضَعْفِ قُوَاه وحَواسِّه ، ثم يَقْوَى على ذلك فى الآخِرةِ ؛ لِمَا يَمْنَحُه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٣.

اللهُ من الاستعدادِ لذلك ، وأحوالُ الآخِرةِ غيرُ أحوالِ الدنيا ، فقياسُك لحالةِ الدنيا على حالةِ الآخِرةِ قياسٌ مع الفارقِ ، والقياسُ إذا كان مع الفارقِ فهو قياسٌ باطلٌ بالإجماعِ .

الوجهُ الثالثُ : أن قولَه تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ ليس نفيًا للرؤيةِ ، وإنما هو نفيٌ للإدراكِ ، وهو الإحاطةُ ، فالأبصارُ تراه فى الآخرةِ ، ولا تُحِيطُ به سبحانَه .

ولهذا اسْتَدَلَّ أهلُ السنةِ بهذه الآيةِ على إثباتِ الرؤيةِ ؛ لأنَّ نفىَ الإدراكِ يَلْزَمُ منه وجودُ الرؤيةِ ، والإدراكُ أخصُّ من الرؤيةِ ، ولا يَلْزَمُ من نفيِ الأخصِّ انتفاءُ الأعمِّ .

قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ : ونَفْىُ الإدراكِ الخاصِّ لا يَنْفِى الرؤيةَ يومَ القيامةِ ، يَتَجَلَّى لعبادِه المؤمنين ، كما يَشَاءُ .

فأمَّا جلالُه وعظمتُه على ما هو عليه تعالى ، وتَقَدَّس ، وتَنَزَّهَ فلا تُدْرِكُه الأبصارُ .

ولهذا كانت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضِى اللهُ عنها تُثْبِتُ الرؤيةَ فى الدارِ الآخِرةِ ، وتَنْفِيها فى الدنيا ، وتَحْتَجُّ بهذه الآيةِ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ .

فالذى نفَتْه الإدراكُ الذى هو بمعنى رؤيةِ العظمةِ والجلالِ على ما هو عليه ؛ فإنَّ ذلك غيرُ مُمْكِنٍ للبشرِ ، ولا للملائكةِ ، ولا لشىءٍ[1] . انتهى .

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٣.

والمؤمنون وإن رَأَوْا ربَّهم فى الآخرةِ ، فإنهم لا يُدْرِكون جلالَه وعظمتَه إدراكَ إحاطةٍ ، كما أنَّ مَن رأَى القمرَ فإنه لا يُدْرِكُ حقيقتَه وكُنْهَهُ وماهيَّتَه .

فالعظيمُ أَوْلَى بذلك ، وله المَثَلُ الأعلى .

قيل لعكرمةَ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ . قال : أَلَسْتَ تَرَى السَّماءَ ؟ قال : بلى ، قال : فكلَّها تَرَى[1] ؟!

الوجهُ الرابعُ : وأما قولُه : فلو كانت رؤيتُه تعالى مُمْكِنةً وجائزةً لَرَأَى الرسولُ ﷺ ربَّه ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ .

نقولُ : لا تَلازُمَ بينَ هذا وهذا ، فلا يَلْزَمُ من عدمِ رؤيتِهِ ليلةَ المِعْراجِ عدمُ رؤيتهِ فى الآخرةِ ؛ لأن المِعْراجَ وقَعَ فى الدنيا قبلَ الموتِ ، ورؤيةَ المؤمنين له تَقَعُ فى الآخرةِ بعدَ الموتِ ، وحالةُ الدنيا غيرُ حالةِ الآخرةِ ، كما سبَقَ .

* * *

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره ٢٧/ ٥٢، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ٣/٣٣٥ إلى ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مَرْدُويَه .

ادّعاءُ الشيخِ السيابىّ أنَّ الأدلةَ دلَّتْ على نفيِ الرؤيةِ فى الدنيا والآخِرةِ، والردُّ عليه

قال الشيخُ السيابىُّ : وهناك الكثيرُ من الأدلةِ النقليةِ والعقليةِ على نفيِ رؤيةِ اللهِ تعالى دنيًا وآخرةً .

أقولُ : أمَّا نفىُ رؤيتِه فى الدنيا فهو صحيحٌ ، قد دلَّت عليه الأدلةُ .

وأمَّا نفىُ رؤيتِه فى الآخِرةِ فالأدلةُ تَدُلُّ عليه فى حقِّ الكفارِ ، أما المؤمنون فالأدلةُ تَدُلُّ على ثبوتِها لهم ، والواجبُ نفىُ ما نفاه اللهُ وإثباتُ ما أثْبَتَه ، هذا هو سبيلُ المؤمنين .

* * *

زَعْمُه
أنَّ سؤالَ رؤيةِ اللهِ فكرةٌ يهوديةٌ ، والردُّ عليه

ثم اسْتَمَرَّ الشيخُ السيابيُّ فى مُغالَطتِهِ وتَضْليلِه ، فقال ما مُلَخَّصُه : إنَّ سؤالَ الرؤيةِ قد صَدَر عن اليهودِ ، حيث قالوا لموسى عليه السلامُ : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ .

وعن المشركين حيث قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

وقد حذَّر اللهُ عبادَه المؤمنين ، ونهاهم عن سوالِ الرؤيةِ ، فقال : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

قال : فعلَّق سبحانَه وتعالى على سؤالِ الرؤيةِ والطمعِ فيها استبدالَ الكفرِ بالإيمانِ الذى يَتَحَتَّمُ عليه الضَّلالُ عن الطريقِ السَّوِيِّ ، ألا وهو دينُ اللهِ ، وكَفَى بذلك تَنْفِيرًا للمؤمنين .

فإن قيل : امتناعُ وقوعِها إنما هو فى الدنيا ؟

فالجوابُ قد تقَدَّم بأنَّ صفاتِ اللهِ لا تَتَغَيَّرُ ، فهى هى فى الأَزَلِ ، وفيما لا يَزَالُ .

فإن قيل : إنَّ امتناعَها عن اليهودِ والمشركين إنما هو لكفرِهم ؟

فالجوابُ أيضًا أنَّ اللهَ لم يَعِدْهم بها لو اهْتَدَوْا واستقاموا ، وإنما وَجَّه

إليهم الزَّجْرَ والتَّوْبيخَ ، وأرْسَل على اليهودِ الصاعقةَ .

والجوابُ عن ذلك أن نقولَ : ما أَعْظَمَ تَلْبِيسَ هذا الرجلِ ، حيث جَعَل سؤالَ المؤمنين ربَّهم أن يَمُنَّ عليهم برؤيةِ وجهِه الكريمِ يومَ القيامةِ ؛ إيمانًا به وشوقًا إليه مثلَ سؤالِ اليهودِ والمشركين لأنبيائِهم أن يُرُوهم اللهَ جَهْرةً فى الدنيا مِن بابِ التكبُّرِ والعِنادِ .

هل هذا إلا عينُ المُكابَرةِ ؟! سبحانَك هذا بُهْتانٌ عظيمٌ .

إن كلامَه هذا باطلٌ من عِدَّةِ وُجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ المرادَ بالآيةِ – كما قال المُفَسِّرونَ – النهىُ عن أسئلةِ التعنُّتِ التى كان يُوَجِّهُ مثلَها اليهودُ إلى موسى .

ومنها السؤالُ عن الأشياءِ قبلَ وُقوعِها ، ولم يَكُنِ المؤمنون يَسْأَلُون النبىَّ ﷺ أن يُرِيَهم اللهَ فى الدنيا حتى يَصِحَّ له حَمْلُ الآيةِ عليه ، وإنما يَسْأَلُون رؤيةَ اللهِ فى الآخِرةِ ؛ اقتداءً بنبيِّهم .

الوجهُ الثانى : أن طلبَ اليهودِ والمشركين رؤيةَ اللهِ فى الدنيا هو من بابِ التَّحَدِّى للرسلِ ، وعدمِ الإيمانِ برسالتِهم ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ .

والمطلوبُ منهم الإيمانُ بالغيبِ ، وتَصْديقُ الرسلِ ؛ لأنهم إذا رأَوُا اللهَ تعالى فى الدنيا لم يَكُنْ إيمانُهم به إيمانًا بالغيبِ ، ولا تصديقًا للرسلِ .

وسؤالُ المؤمنين رؤيةَ اللهِ يومَ القيامةِ إنما هو بدافعِ الإيمانِ به ، وتصديقِ رسلِه ، وفرقٌ بينَ السؤالين : سؤالٌ دافِعُه الكفرُ ، وسؤالٌ دَافِعُه الإيمانُ .

الوجهُ الثالثُ : أن سؤالَ رؤيةِ اللهِ تعالى فى الآخِرةِ والنظرِ إلى وجهِه الكريمِ ليس من جنسِ سؤالِ اليهودِ والمشركين رؤيتَه فى الدنيا .

فالأولُ مشروعٌ ، وهذا ممنوعٌ ، وقد سأَل النبيُّ ﷺ فى دعائِه ربَّه النظرَ إلى وجهِه الكريمِ ، كما رَوَى الإمامُ أحمدُ وابنُ حِبَّانَ والحاكمُ فى صحيحَيْهِما أنه كان يقولُ : « اللهمَّ بعلمِك الغيبَ وقدرتِك على الخَلْقِ، أَحْيِنى ما علِمْتَ الحياةَ خيرًا لى ، وتَوَفَّنِى إذا علِمْتَ الوفاةَ خيرًا لى ، وأَسْأَلُك خَشْيَتَك فى الغيبِ والشهادةِ ، وكلمةَ الحقِّ فى الغضبِ والرضا ، والقصدَ فى الفقرِ والغِنَى ، ولذةَ النظرِ إلى وجهِك ، والشوقَ إلى لقائِك ، من غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ ، اللهمَّ زَيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ ، واجْعَلْنا هُداةً مُهْتَدِين »[1] .

فيكونُ الرسولُ على مُقْتَضَى قولِ الشيخِ السيابيِّ قد طلَبَ من اللهِ ما لا يَجوزُ له طَلَبُه ، واعْتَدَى فى دعائِه ، كاعتداءِ اليهودِ والمشركين لمَّا طلَبوا أن يَرَوُا اللهَ جَهْرةً ، ما أعظمَ هذه الفِرْيةَ ! نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ .

الوجهُ الرابعُ : أمَّا قولُه : فإن قيل : إنَّ امتناعَها عن اليهودِ والمشركين إنما هو لكفرِهم ؟ فالجوابُ أيضًا أنَّ اللهَ لم يَعِدْهم بها لو اهْتَدَوْا واستقاموا .

فعنه جوابان :

الأولُ : أنَّ امتناعَها عنهم ليس لكفرِهم فقط ، بل ولأنها غيرُ مُمْكِنةٍ،

---

(١) رواه أحمد ٤/٢٦٤ (١٨٢٤١) ، وابن حبان ٥/ ٣٠٥، والحاكم فى المستدرك ١/ ٧٠٥، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .
وقال الشيخ رحمه الله فى صحيح الجامع (١٣٠١) : صحيح .

لا لهم ، ولا لغيرِهم فى الدنيا .

الثانى : قولُه : إنَّ اللهَ لم يَعِدْهم لو اهتَدَوْا واسْتَقاموا . قولٌ باطلٌ وكَذِبٌ على اللهِ ، فقد وَعَد اللهُ كلَّ مَن آمَنَ به ، واهْتَدَى أن يُكْرِمَه بالنظرِ إلى وجهِه الكريمِ ، ورؤيتِه يومَ القيامةِ من اليهودِ وغيرِهم .

كما دلَّ على ذلك القرآنُ والسنةُ الـمُتَواتِرةُ وإجماعُ أهلِ الحقِّ ، ونَفْىُ ذلك تكذيبٌ لهذه النصوصِ ، وإهدارٌ لتلك الأدلةِ ، وتعطيلٌ لها .

* * *

زعمُ الشيخِ السيابىِ أن القولَ بعدمِ تخليدِ العُصاةِ فى النارِ فكرةٌ يهوديةٌ ، والردُّ عليه

ثم انْتَقَل الشيخُ السيابىُّ إلى مسألةِ تَخْلِيدِ أهلِ الكبائرِ من المؤمنين فى النارِ ، فقال : إنَّ الإباضيةَ يقولون بخلودِ مُرْتَكِبِ الكبيرةِ فى نارِ جَهَنَّمَ إذا مات ، ولم يَتُبْ .

ولنظرِهم الفاحصِ ولرؤيتِهم العَميقةِ بأنَّ عقيدةَ خُروجِ العُصاةِ من النارِ ، أو وَعْدَهم بمغفرةِ ذنوبِهم مِن غيرِ توبةٍ وإقلاعٍ عن ارتكابِ المعاصى تَتَرَتَّبُ عليها مَفاسِدُ اجتماعيةٌ خطيرةٌ ، وعدمُ التزامٍ بمَنْهَجِ الإسلامِ وتعليمِه .

وأىُّ فائدةٍ من إسلامِ المسلمِ ، وهو لا يَمْتَثِلُ أوامرَ الإسلامِ ، ولا يَنْتَهِى عن نواهِيه ؟!

والإباضيةُ يقولون بأنَّ عذابَ النارِ دَرَكاتٌ ، كما أنَّ نعيمَ الجنةِ دَرَجاتٌ ، والمنشأُ التاريخىُّ لهذه الفتنةِ تُبَيِّنُه لنا الآياتُ الكريمةُ التاليةُ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ

تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

قال : لقد بَيَّنَت الآياتُ الكريمةُ السالفةُ الذكرِ أن أَمانيَّ اليهودِ – أَخْزَاهم اللهُ تعالى – هى كانت المَنْشَأَ والمبدأَ لفكرةِ التعلُّقِ بوعدِ اللهِ للحصولِ على ثوابِه ، وهم يَرْتَكِبون المَعاصِيَ .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

وجاء قولُ الرسولِ ﷺ مُؤَكِّدًا لهذا المعنى : « الكَيِّسُ مَن دان نفسَه ، وعَمِل لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ – كذا يقولُ ، والصوابُ : العاجزُ – مَن أَتْبَع نفسَه هَواها ، وتَمَنَّى على اللهِ الأمانيَّ »[1] .

قال : فهل يَلِيقُ بالمسلمِ أن يَعْتَقِدَ عقيدةَ اليهودِ الباطلةَ ، التى أنْكَرَها اللهُ عليهم إنكارًا شديدًا .

وشَنَّع عليهم فيها حيث اعْتَبَرَها ناشئةً عن افترائِهم وغرورِهم . انتهى كلامُه .

---

(١) رواه الترمذى (٢٤٥٩) ، والطبرانى فى المعجم الصغير ١٠٧/٢ (٨٦٣) ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٣/ ٣٦٩، وقد أورده الحافظ فى الفتح ٣٤٢/٩ بلفظ : « والأحمق » ، ولم يَعْزُه . قال الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٣٠٥) : ضعيف .

وقد نقَلْتُه بطولِه ليَعْلَمَ الناظرُ فيه ما عندَ الرجلِ مِن الجهلِ والتَّخْليطِ والتَّغْليطِ ، ولَبْسِ الحقِّ بالباطلِ ، فيكونُ فى ذلك عِبْرةٌ لأُولِى الأبصارِ .

والجوابُ عنه من وُجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنه جعَلَ مَنْشَأَ القولِ بعدمِ تخليدِ العُصاةِ المؤمنين بالنارِ ناشئًا عن مَقالةِ اليهودِ ، وهذا جَحْدٌ لِما فى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه من الأدلةِ على هذه المسألةِ ، كما سنُبَيِّنُه إن شاء اللهُ .

الوجهُ الثانى : أنه برَّر القولَ بتخليدِ مُرْتَكِبِ الكبيرةِ من المؤمنين فى النارِ بأنَّ هذا فيه دَفْعُ مَفاسِدَ اجتماعيةٍ ، وحَثٌّ على التزامِ مَنْهَجِ الإسلامِ وتَعاليمِه .

وهذا التبريرُ باطلٌ ؛ لأنه مُخالِفٌ للنصوصِ الصحيحةِ الصريحةِ الدالةِ على خروجِ مُرْتَكِبِ الكبيرةِ من النارِ ، إذا كان فى قلبِه مِثْقالُ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إيمانٍ .

وقد يَعْفُو اللهُ عنه ، فلا يَدْخُلُها أصلًا .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الآيةَ .

فأَخْبَرَ أنَّ كلَّ هذه الأصنافِ الثلاثةِ تَدْخُلُ الجنةَ ، ومنهم الظالمُ لنفسِه ، وهو العاصى مَعْصِيةً دونَ الشركِ ، وإن كان دخولُ هذه الأصنافِ فى الجنةِ يَتَفاوَتُ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

يَشَاءُ ﴾ . فوعَدَ بمغفرةِ ما دونَ الشركِ من المعاصى لمن يَشاءُ ، وهذا يَدْخُلُ فيه أصحابُ الكبائرِ .

وقد أخْبَر النبىُّ ﷺ فى الحديثِ المُتَّفَقِ على صحتِه أنه يَخْرُجُ من النارِ مَن كان فى قلبِه مِثْقالُ ذَرَّةٍ من إيمانٍ[1] .

قال أبو ذرٍّ رضِى اللهُ عنه : وإن زَنَى ، وإن سَرَقَ . وكرَّرها .

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « وإن زَنَى ، وإن سَرَق ، وإن رَغِمَ أنفُ أبى ذرٍّ »[2] .

وأما التنفيرُ من المعاصى ، والتحذيرُ منها فهو مطلوبٌ ، لكنه لا يَكونُ بجُحودِ ما أنْزَل اللهُ ، وبيَّنَه رسولُه من سَعةِ مغفرةِ اللهِ وعَفْوِه عن العُصاةِ ، وإخراجِ أصحابِ الكبائرِ من النارِ .

وإنما يكونُ بالوعظِ والتذكيرِ وتنفيذِ الحدودِ الشرعيةِ برَجْمِ الزانى أو جَلْدِه ، وجلدِ الشاربِ والقاذفِ ، وقطعِ يدِ السارقِ ، وقتلِ القاتلِ قِصاصًا ، وتَفْسيقِ أصحابِ الكبائرِ ، وإسقاطِ عَدالتِهم حتى يتوبوا ، وتَعْزيرِ أصحابِ المعاصى التى لا حَدَّ فيها ، والأمرِ بالمعروفِ ، والنهيِ عن المنكرِ ، وتعليمِ الجاهلِ ، وغيرِ ذلك .

ودخولُ النارِ - والعِياذُ باللهِ - ليس بالهَيِّنِ ، ولو أُخْرِج منها بعدَ ذلك ، فإنه شديدٌ وخَطِيرٌ يَحْمِلُ المسلمَ على الابتعادِ عن المعاصي .

---

(١) البخارى (٧٤٣٩) ، ومسلم ١/ ١٧٠ (١٨٣) .

(٢) البخارى (٧٤٨٧) ، ومسلم ١/ ٩٤، ٩٥ (٩٤) ، الحديث رقم ١٥٤ من كتاب الإيمان .

الوجهُ الثالثُ : مساواتُه بينَ قولِ أهلِ السنةِ بخُروجِ عُصاةِ المُوَحِّدين من النارِ ، وعدمِ الخلودِ فيها - كما تَقْتَضِيه نصوصُ الكتابِ والسنةِ - وبينَ قولِ اليهودِ : ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ و﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ .

وهذا باطلٌ ؛ لأن حكمَ الفريقَيْنِ مُخْتَلِفٌ ، فاليهودُ كفارٌ ، والكافرُ مُخَلَّدٌ فى النارِ .

وأمَّا عُصاةُ الموحِّدِين فهم مُؤْمِنون ناقِصُو الإيمانِ ومُوَحِّدون ، ولا مُساوَاةَ بينَ مُشْرِكٍ ومُوَحِّدٍ ومُؤْمِنٍ وكافرٍ .

قال تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ .

والكافرُ مُخَلَّدٌ فى النارِ ، وأمَّا المؤمنُ فإنه - وإن دخَلَ النارَ بذنوبِه - فإنه لا يُخَلَّدُ فيها .

الوجهُ الرابعُ : أن اليهودَ لَعَنَهم اللهُ ليس لهم حُجَّةٌ فيما قالوه ، ولهذا قال سبحانَه مُكَذِّبًا لهم فى دَعْواهم : ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وأما قولُ أهلِ السنةِ فى عُصاةِ المُوَحِّدين فقد وَرَدَت به الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ ، وقامَتِ الحُجَّةُ على عدمِ تخليدِهم فى النارِ ، فأين هذا من ذاك ؟!

والذى يُسَوِّى بينَ مؤمنٍ وكافرٍ قد سَوَّى بينَ ما فرَّق اللهُ بينَه ، وحادَّ اللهَ فى أمرِه .

الوجهُ الخامسُ : أنه لا حُجَّةَ له فى قولِه تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

لأنَّ المرادَ بالخطيئةِ المُحيطةِ خطيئةُ الكفرِ ، لا مُطْلَقُ الخطيئةِ ؛ لأنَّ اللهَ قيَّدها بقولِه : ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ .

فدلَّ على أنَّ الخطيئةَ غيرُ المحيطةِ ، وهى ما دونَ الكفرِ ، لا يُخَلَّدُ صاحبُها فى النارِ ، ففى الآيةِ رَدٌّ عليه .

وهكذا لا يَسْتَدِلُّ مُبْطِلٌ بدليلٍ مِن الشرعِ إلا وفيه رَدٌّ عليه ، فسبحانَ العليمِ الحكيمِ الذى جعَلَ كلامَه ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾[1] .

الوجهُ السادسُ : أنه لا حُجَّةَ له فى قولِ الرسولِ ﷺ : « الكَيِّسُ مَن دان نفسَه ، وعَمِل لما بعدَ الموتِ ، والعاجزُ مَن أَتْبَعَ نفسَه هَواها ، وتمَنَّى

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى مجموع الفتاوى ٦/ ٢٨٨: فَصْلٌ فيه قاعدة شريفة ، وهى أنَّ جميع ما يَحْتَجُّ به المُبْطِل ، من الأدلة الشرعية والعقلية ، إنما تَدُلُّ على الحق ، لا تدل على قول المُبْطِل .

وهذا ظاهرٌ يعرفه كل أحد ؛ فإن الدليل الصحيح لا يدل إلا على حق ، لا على باطل . يَبْقَى الكلام فى أعيان الأدلة ، وبيان انتفاء دَلالتها على الباطل ، ودلالتها على الحق ، هو تفصيل هذا الإجمال .

والمقصود هنا شىء آخر ، وهو أن نفس الدليل الذى يَحْتَجُّ به المُبْطِلُ هو بعينه إذا أُعْطِى حقَّه ، وتَمَيَّزَ ما فيه من حق وباطل ، وبُيِّن ما يدل عليه تبيَّن أنه يدل على فساد قول المبطِل المُحْتَجِّ به ، فى نفس ما احْتَجَّ به عليه ، وهذا عجيب ، قد تأمَّلْتُه فيما شاء الله من الأدلة السمعية فوجَدْتُه كذلك . اهـ

ثم أخذ رحِمه اللهُ يَسْرُدُ أمثلة على ما قال .

على اللهِ الأمانيَّ »[1] .

لأنَّ معناه الحَثُّ على العملِ الصالحِ ، والتحذيرُ من الكسلِ ، وليس فيه أن العاصىَ يُخَلَّدُ فى النارِ ، إذا كانت معصيتُه دونَ الشركِ .

* * *

(١) تقدم تخريجه ص ٥٣.

تحذيرُ الشيخِ السيابىّ
مِن عقيدةِ أهلِ السنةِ ،
ووَصْفُهم بالتجسيمِ والإرجاءِ

ثم وقَفَ الشيخُ السيابىُّ موقفَ الناصحِ ، والمُحَذِّرِ للمسلمين من عقيدةِ أهلِ السنةِ ، فقال : إن المسلمين فى حربٍ دائمةٍ ومُسْتَمِرَّةٍ مع أعداءِ اللهِ اليهودِ ، وعليهم أن يَتَخَلَّصوا أولًا من عقائِدِهم الفاسدةِ ؛ فإنَّ تصحيحَ العقيدةِ عاملٌ مُهِمٌّ من عواملِ النصرِ .

ثم بيَّنَ العقيدةَ التى يُحَذِّرُ منها حيث قال : ويَحْذَروا عقيدةَ التجسيمِ والإرجاءِ ، وهو يَقْصِدُ بذلك عقيدةَ أهلِ السنةِ الذين يُثْبِتُون رؤيةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويُسَمِّى هذا تجسيمًا .

ويقولون بعدمِ تخليدِ المؤمنِ العاصى فى النارِ ، ويُسَمِّى هذا إرجاءً .

وهذا من جهلِه بمعنى الإرجاءِ ، وبمَن قال به ؛ فإنَّ الإرجاءَ معناه تأخيرُ الأعمالِ عن مُسَمَّى الإيمانِ ، وليس هو عقيدةَ أهلِ السنةِ ، وإنما هو عقيدةُ الجَهْميةِ[1] ، وهو القولُ بأنَّ الإيمانَ مُجَرَّدُ المعرفةِ بالقلبِ ، ولو لم يَحْصُلْ عملٌ .

أو : أنَّ الإيمانَ هو التصديقُ بالقلبِ فقط ، كما يقولُه الأشاعرةُ[2] .

---

(١) تقدمت ترجمة الجهمية ص٣٦، ٣٧ .

(٢) الأشاعرة ينسبون إلى أبى الحسن الأشعرى ، ويقولون بإثبات سبع صفات فقط ؛ لأن العقل دل على إثباتها ، وهى : السمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والإرادة والحياة . وقالوا بأن كلام اللّه هو المعنى القائم ، وهو قائم بالذات يستحيل أن يفارقه ، والعبارات والحروف =

أو : هو التصديقُ بالقلبِ مع النطقِ باللسانِ .

وهذا الأخيرُ قد يقولُ به بعضُ أهلِ السنةِ ، وجُمْهورُهم على خلافِه ، يقولون : إنَّ الإيمانَ قولٌ باللسانِ ، واعتقادٌ بالقلبِ ، وعملٌ بالجوارحِ ، يَزيدُ بالطاعةِ ، ويَنْقُصُ بالمعصيةِ .

وأما قولُ أهلِ السنةِ : إنَّ مُرْتَكِبَ الكبيرةِ من المؤمنين ، لا يُخَلَّدُ فى النارِ . فليس إرجاءً ، وإن سمَّاه هو إرجاءً .

وكذلك رؤيةُ المؤمنين لربِّهم يومَ القيامةِ ، كما أثْبَتَها اللهُ فى كتابِه ، وأثْبَتَها رسولُه ﷺ فى سنتِه ليست تجسيمًا ، وإن سمَّاها هو تجسيمًا ، فذلك لا يُغَيِّرُ من الحقِّ شيئًا .

فأهلُ السنةِ لا يَهُمُّهم مثلُ هذه التَّشْنيعاتِ ما داموا على الحقِّ ، مُتَمَسِّكِين بالكتابِ والسنةِ .

فما زال أهلُ الحقِّ فى كلِّ زمانٍ يُلَقَّبون بأشنَعِ الألقابِ ، وهذا مما يَرْفَعُ دَرَجاتِهم عندَ اللهِ ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ .

* * *

= دلالات على الكلام الأزلى ، وعندهم : أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والعمل والإقرار من فروع الإيمان ، لا من أصله ، وقد رجع أبو الحسن الأشعرى عن قوله فى الأسماء والصفات .

الملل والنحل ١/ ١١٩، ورسالة فى الرد على الرافضة ص ١٦٦ .

زَعْمُه أن الحنابِلَةَ
هم الذين اهْتَمُّوا بإنكارِ القولِ
بخَلْقِ القرآنِ ؛ تَعَصُّبًا لإمامِهم

ثم قال الشيخُ السيابىُّ تحتَ عُنْوانِ « خَلْقِ القرآنِ » : إنَّ الحنابلةَ يَهْتَمُّون بهذه المسألةِ اهتمامًا بالغًا . وأَرْجَعَ هذا الاهتمامَ عندَهم إلى أنه مسألةُ عاطِفةٍ ؛ لكونِ الإمامِ أحمدَ عُذِّب عليها .

قال : ومِن الخطأ أن تكونَ العاطفةُ مِقْياسَ الخطأ والصوابِ ، ورُبَّما عاب الحنابلةُ على بعضِ المذاهبِ عاطفتَهم وتقديسَهم للأشخاصِ ، ولكنهم وَقَعوا فى أنفسِهم ، فيما عابوا به الآخَرين .

وجوابُنا على ذلك أن نقولَ :

إن الذين أنْكَروا القولَ بخَلْقِ القرآنِ ليسوا هم الحنابلةَ فقط ، بل جميعُ أهلِ السنةِ مِن المُحَدِّثين وفُقَهاءِ المذاهبِ الأربعةِ وغيرِهم أنكَروا ذلك غَيْرةً لكتابِ ربِّهم عزَّ وجلَّ ، ومُؤَلَّفاتُهم فى ذلك كثيرةٌ ومشهورةٌ .

قال الإمامُ الطَّحاوىُّ الحَنَفىُّ رحِمه اللهُ فى عقيدتِه ما نَصُّه : وأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ ، منه بَدَا بلا كَيْفيةٍ قولًا ، وأنْزَلَه على رسولِه وَحْيًا ، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقًّا ، ، وأيْقَنوا أنه كلامُ اللهِ تعالى بالحقيقةِ ، ليس بمخلوقٍ ، ككلامِ البَرِيَّةِ .

فمَن سمِعه فزعَمَ أنَّه كلامُ البشرِ فقد كَفَر ، وقد ذَمَّه اللهُ وعابه ، وأوْعَده بسَقَرَ ، حيث قال تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ .

فلمَّا أوْعَدَ اللهُ بسَقَرَ لمن قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ علِمْنا وأيْقَنَّا أنه قولُ خالقِ البشرِ ، ولا يُشْبِهُ قولَ البشرِ[١] . انتهى .

وعقيدةُ الطَّحاوىِّ هذه مُتَلَّقاةٌ بالقَبولِ عندَ جميعِ أهلِ السنةِ ، قال السُّبكىُّ الشافعىُّ : جمهورُ المذاهبِ الأربعةِ على الحقِّ يُقِرُّون عقيدةَ الطحاوىِّ التى تَلَقَّاها العلماءُ بالقَبولِ .

وقال شارحُها ابنُ أبى العِزِّ الحَنَفىُّ على هذه الجملةِ التى نقَلْناها : هذه قاعدةٌ شريفةٌ ، وأصلٌ كبيرٌ من أصولِ الدينِ ، ضَلَّ فيه طوائفُ كثيرةٌ من الناسِ .

وهذا الذى حكاه الطَّحاوىُّ رحِمه اللهُ هو الحقُّ الذى دلَّت عليه الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ لمن تدَبَّرها ، وشهِدَت به الفِطْرةُ السليمةُ التى لم تَتَغَيَّرْ بالشُّبُهاتِ والشكوكِ والآراءِ الباطلةِ[٢] . انتهى

وقال الإمامُ محمدُ بنُ جَرِيرٍ الطَّبَرَىُّ إمامُ المُفَسِّرين رحِمه اللهُ فى عقيدتِه المشهورةِ : أولُ ما نَبْدَأُ القولَ فيه من ذلك عندَنا أن القرآنَ كلامُ اللهِ وتنزيلُه ؛ إذ كان من معانى توحيدِه .

فالصوابُ مِن القولِ فى دارِه عندَنا أنه كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ ، كيف كُتِب ، وحيث تُلِى ، وفى أىِّ موضعٍ قُرِئَ .

فى السماءِ وُجِد ، وفى الأرضِ حُفِظ فى اللوحِ المحفوظِ ، أو فى القلبِ حُفِظ ، وباللسانِ لُفِظ .

---

(١) انظر العقيدة الطحاوية مع الشرح لابن أبى العز رحمه اللَّه ص ١٦٨.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز رحمه اللَّه ص ١٦٨.

فمَن قال غيرَ ذلك ، أو ادَّعى أن قرآنًا فى الأرضِ ، أو فى السماءِ سِوَى القرآنِ الذى نَتْلُوه بألسنتِنا ، ونَكْتُبُه فى مصاحفِنا ، أو اعْتَقَد ذلك بقلبِه ، أو أَضْمَرَه فى نفسِه ، أو قاله بلسانِه دايِنًا فهو باللهِ كافرٌ ، حلالُ الدمِ والمالِ ، بَرِيءٌ من اللهِ ، واللهُ منه بَرِيءٌ[1] - انتهى .

وقال إمامُ الأئمةِ أبو بكرٍ محمدُ بنُ خُزَيْمةَ رحِمه اللهُ فى كتابِ التوحيدِ : بابُ ذكرِ البيانِ مِن كتابِ ربِّنا المُنَزَّلِ على نبيِّه المُصْطَفَى ﷺ ، ومن سنةِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ ، على الفرقِ بينَ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذى به يكونُ خَلْقُه ، وبينَ خَلْقِه الذى يُكَوِّنُه بكلامِه وقولِه .

والدليلُ على نَبْذِ قولِ الجهميةِ الذين يَزْعُمون أن كلامَ اللهِ مَخْلوقٌ ، جلَّ ربُّنا وَعزَّ عن ذلك ، ثم ساق الأدلةَ .

وقال أيضًا : بابٌ من الأدلةِ التى تَدُلُّ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ الخالقِ ، وقولُه غيرُ مخلوقٍ ، لا كما زعَمَت الكَفَرةُ من الجهميةِ المُعَطِّلةِ. انتهى

وقال أبو الحسنِ الأشْعَرِىُّ فى كتابِ الإبانةِ : ومَن قال : إنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ ، وإنَّ مَن قال بخلقِه كافرٌ من العلماءِ وحَمَلةِ الآثارِ ، ونَقَلةِ الأخبارِ ، لا يُحْصَوْنَ كثرةً ، منهم الحَمَّادان ، والثورىُّ ، وعبدُ العزيزِ بنُ أبى سَلَمةَ ، ومالكُ بنُ أنسٍ ، والشافعىُّ وأصحابُه ، والليثُ بنُ سَعْدٍ ، وسفيانُ بنُ عُيَيْنةَ ، وهشامٌ ، وعيسى بنُ يونُسَ ، وحَفْصُ بنُ غِياثٍ ، وسعدُ بنُ عامرٍ ، وعبدُ الرحمنِ بنُ مَهْدىٍّ ، وأبو بكرِ بنُ عَيَّاشٍ ، ووَكِيعٌ ،

(١) اعتقاد أهل السنة ١/ ١٨٤، ٢/ ٣٦٠.

وأبو عاصمٍ النَّبيلُ ، ويَعْلَى بنُ عُبيدٍ ، ومحمدُ بنُ يوسُفَ ، و بِشْرُ بنُ المُفَضَّلِ ، وعبدُ اللهِ بنُ داودَ ، وأبو عبيدٍ القاسمُ بنُ سَلامٍ ، ويَزيدُ بنُ هارونَ ، وغيرُهم .

ولو تَتَبَّعْنا ذِكْرَ مَن يقولُ بذلك لَطال الكلامُ بذكرِهم ، وفيما ذَكَرْنا من ذلك مَقْنَعٌ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين .

ولو احْتَجَجْنا لِصحةِ قولِنا : إن القرآنَ غيرُ مخلوقٍ . من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وما تضَمَّنه من القرآنِ ، وأوْضَحه من البيانِ ، لم نَجِدْ أحدًا ممَّن تُحْمَلُ عنه الآثارُ ، وتُنْقَلُ عنه الأخبارُ ، ويَأْتَمُّ به المُؤْتَمُّونَ من أهلِ العلمِ يقولُ بخلقِ القرآنِ .

وإنما قال ذلك رَعَاعُ الناسِ ، وجُهَّالٌ مِن جُهَّالِهم ، لا مَوْقِعَ لقولِهم[1] . انتهى .

فهل هؤلاء حنابلةٌ ، حَمَلَتْهم العاطفةُ – كما يقولُ السيابيُّ – لإمامِهم ، أو أنهم قالوا ذلك غَيْرةً على كتابِ ربِّهم من أقوالِ الزنادقةِ والمُبْتَدِعةِ .

وقولُه : فالقضيةُ هى قضيةٌ عاطفيةٌ نَفْسِيةٌ ، ليست إلا . يقولُ هذا اتِّهامًا لعلماءِ المسلمين بأنهم يَغارُون للأشخاصِ ، ولا يَغارُون لكتابِ اللهِ ، وهل شَقَّ السيابيُّ عن قلوبِهم ، لكنه الحقدُ والهَوَى ، نعوذُ باللهِ من الخِذْلانِ .

---

(١) الإبانة ١/ ٩٦.

ذِكْرُ مُقابَلتِهم للشيخِ ابنِ بازٍ ، وما جَرَى فيها ، والردُّ عليه

ثم خَتَم الشيخُ السيابىُّ حديثَه المُمِلَّ بذكرِ مُقابلةِ شيخِه الخَليلىِّ مُفْتِى عُمَانٍ بالشيخِ عبدِ العزيزِ بنِ بازٍ ، وما جَرَى بينَهما من المناقشةِ حولَ هذه المسائلِ ، وقال : إن الشيخَ ابنَ بازٍ جَعَل يَسُبُّ ويَشْتُمُ ، فضلَّل وكفَّر ، وعَبَسَ وبَسَرَ ، ولما دَعاه الخَليلىُّ إلى المُباهَلةِ اخْرَنْجَمَ[1] وتَلَوَّى .

والجوابُ عن ذلك : أن نَقولَ : مهما وصَفْتَ الشيخَ عبدَ العزيزِ بنَ بازٍ بصفاتِ السُّوءِ فإنَّ الناسَ يَعْرِفونه ويَعْرِفون أخلاقَه الكريمةَ ، وعلمَه الغَزيرَ .

وأنه لن يَعْجِزَ بحولِ اللهِ أن يُفْحِمَ شيخَك وغيرَه بكلمةِ الحقِّ ، لا سيَّما فى هذه المسائلِ التى يَعْرِفُ الحكمَ فيها طُلابُ المدارسِ عندَنا .

وقد بيَّن الشيخُ عبدُ العزيزِ السببَ الذى منَعَه من المناظرةِ ، وهو أنه كَرِه المناظرةَ المُعْلَنَةَ التى تَضُرُّ بعضَ الناسِ ، وتُدْخِلُ عليهم بعضَ الشكوكِ ؛ لأنه - والحمدُ للهِ - فى مجتمعٍ سالمٍ من هذه الأفكارِ المُنْحَرِفةِ ، فلا يُريدُ أن يَفْتَحَ على الناسِ بابَ شرٍّ ، هم فى سلامةٍ وعافيةٍ منه ، وهذا غايةُ الحكمةِ[2] .

---

(١) يقال : اخْرَنْجَمَ الرجلُ : أراد الأمرَ ، ثم كذَّب عنه . اللسان (ح ر ج م) .

(٢) وما مشى عليه الشيخ ابن باز رحمه الله فى هذه المسألة هو هدى السلف ؛ فقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله على الحارث المحاسبى أنه كان ينقل فى كتبه نصوص علماء الكلام

وإذا كان باستطاعةِ الشيخِ السيابىِّ وشيخِه الخليلىِّ أن يُجيبا عما كتَبَه علماءُ أهلِ السنةِ فى هذه المسائلِ :

مسألةِ الرؤيةِ ، ومسألةِ تخليدِ عُصاةِ المؤمنين فى النارِ ، ومسألةِ بُطْلانِ القولِ بخلقِ القرآنِ ، وغيرِها من المسائلِ التى خالَفَ فيها الإباضيةُ أهلَ السنةِ والجماعةِ .

إذا كان باستطاعةِ المذكورَيْنِ أن يُجِيبا عما كُتِب فى ذلك مِن مُؤَلَّفاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ ، وهى بالمئاتِ ، والحمدُ للهِ .

وأن يُجِيبا عما فى كُتُبِ عقائدِ أهلِ السنةِ التى تُدَرَّسُ فى المساجدِ والجامعاتِ ، وغيرِها ، فالمجالُ أمامَهما مَفْتوحٌ .

ولكن أنَّى لهما ذلك ، ودونَه خَرْطُ القَتَادِ[1] ، والعلماءُ لهما بالمِرْصادِ .

وخيرٌ لهما الرجوعُ إلى الصوابِ بدلَ اللَّجَاجِ والمُنازَعةِ اللتَيْنِ لا طائلَ تحتَهما .

واللهُ المُوَفِّقُ والهادى إلى سبيلِ الرَّشَادِ .

* * *

= ويَرُدُّ عليها ، وقال : إنك حكيت شبهتهم أولًا ، ثم أجبت عنها ، فبِمَ تأمن أن يَطَّلِعَ الشبهةَ من تَعْلَق بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ، ولا يفهم كُنْهَه ؟

(١) ذكره الميَدانى فى مجمع الأمثال (١٣٩٥) ، ولفظه : دونَ ذلك خَرْطُ القَتَادِ .

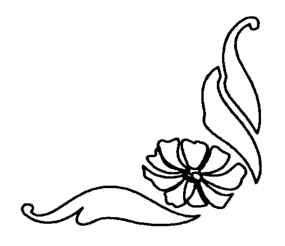
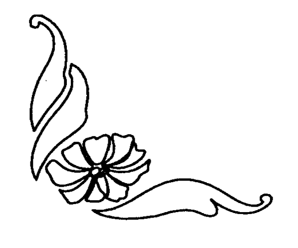
وقال : الخَرْطِ قَشْرُك الورق عن الشجرة ، اجتذابًا بكفك ، والقَتَاد : شجر له شَوْك ، أمثال الإبر ، والمَثَلُ يُضْرَبُ للأمر دونَه مانع .

الفهرس

الموضوع — الصفحة




الوَلاءُ والبَراءُ في الإسلام

المـقَدّمـةُ

الحمدُ للهِ والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمدٍ وآلِه وصَحْبِه ، ومَن اهْتَدَى بهُداه ، وبعدُ :

فإنه بعدَ مَحبَّةِ اللهِ ورسولِه تَجِبُ مَحَبَّةُ أولياءِ اللهِ ، ومعاداةُ أعدائِه .

فمِن أصولِ العقيدةِ الإسلاميةِ أنه يَجِبُ على كلِّ مسلمٍ يَدِينُ بهذه العقيدةِ أن يُوالِيَ أهلَها ، ويُعادِيَ أعداءَها ، فيُحِبَّ أهلَ التوحيدِ والإخلاصِ ، ويُوالِيَهم ، ويَبْغَضَ أهلَ الإشراكِ ، ويُعادِيَهم .

وذلك مِن ملةِ إبراهيمَ والذين معه ، الذين أُمِرْنا بالاقتداءِ بهم ، حيث يقولُ سبحانَه وتعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وهو من دينِ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

وهذه في تحريمِ مُوالاةِ أهلِ الكتابِ خصوصًا .

وقال في تحريمِ مُوالاةِ الكفارِ عمومًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة : ١] .

بل لقد حرَّم على المؤمنِ مُوالاةَ الكفارِ ، ولو كانوا من أقربِ الناسِ إليه نسبًا ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [التوبة : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقد جهل كثيرٌ من الناسِ هذا الأصلَ العظيمَ ، حتى لقد سمِعْتُ بعضَ المُنْتَسِبِينَ إلى العلمِ والدعوةِ فى إذاعةٍ عربيةٍ يقولُ عن النصارى : إنهم إخوانُنا ، ويا لها من كلمةٍ خطيرةٍ .

وكما أنَّ اللهَ سبحانَه حرَّم مُوالاةَ الكفارِ ، أعداءِ العقيدةِ الإسلاميةِ فقد أوْجَبَ سبحانَه موالاةَ المؤمنين ومحبَّتَهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

فالمؤمنون إخوةٌ فى الدينِ والعقيدةِ ، وإن تباعدَتْ أنسابُهم وأوطانُهم وأزمانُهم ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

فالمؤمنون من أولِ الخَليقةِ إلى آخرِها مهما تباعَدَت أوطانُهم ، وامْتَدَّت أزمانُهم ، إخوةٌ مُتَحابُّون ، يَقْتَدِى آخرُهم بأوَّلِهم ، ويَدْعُون بعضُهم لبعضٍ ، ويَسْتَغْفِرُ بعضُهم لبعضٍ .

وللولاءِ والبراءِ مظاهرُ تَدُلُّ عليهما :

أولًا :

من مظاهرِ مُوالاةِ الكفارِ

١- التَّشَبُّهُ بهم فى المَلْبَسِ والكَلامِ وغيرِهما :

لأن التَّشبُّهَ بهم فى المَلْبَسِ والكلامِ وغيرِهما يَدُلُّ على محبةِ المُتَشَبَّهِ به ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ : « مَن تشَبَّه بقومٍ فهو منهم »(١) .

فيَحْرُمُ التَّشَبُّهُ بالكفارِ فيما هو من خصائِصِهم ؛ من عاداتِهم ، وعباداتِهم ، وسَمْتِهم ، وأخلاقِهم ؛ كحَلْقِ اللِّحى ، وإطالةِ الشَّواربِ ، والرَّطانةِ بلغتِهم إلا عندَ الحاجةِ(٢) ، وفى هيئةِ اللباسِ ، والأكلِ والشربِ ، وغيرِ ذلك .

٢- الإقامةُ فى بلادِهم ، وعدمُ الانتقالِ منها إلى بلدِ المسلمين ؛ لأجلِ الفِرارِ بالدين :

لأنَّ الهجرةَ بهذا المعنى ، ولهذا الغرضِ ، واجبةٌ على المسلمِ ؛ لأن إقامتَه فى بلادِ الكفرِ تَدُلُّ على مُوالاةِ الكافرين .

ومن هنا حرَّم اللهُ إقامةَ المسلمِ بينَ الكفارِ إذا كان يَقْدِرُ على الهجرةِ ،

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٥٠ (٥١١٤) ، وأبو داود (٤٠٣١) .
وقال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده صحيح .
وقال الشيخ الألبانى فى تعليقه على سنن أبى داود : حسن صحيح .

(٢) روى عبد الرزاق فى مصنفه ١/ ٤١١ (١٦٠٨) ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٢٣٤، عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إياكم ورَطانةَ الأعاجم ، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم فى كنائسهم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٧- ٩٨] .

فلم يَعْذُرِ اللهُ فى الإقامةِ فى بلادِ الكفارِ إلا المُستَضْعَفِينَ الذين لا يَسْتَطِيعون الهجرةَ ، وكذلك مَن كان فى إقامتِهِ مصلحةٌ دينيةٌ ؛ كالدعوةِ إلى اللهِ ، ونشرِ الإسلامِ فى بلادِهم .

٣- السفرُ إلى بلادِهم لغرضِ النُّزْهةِ ومُتْعةِ النفسِ :

والسفرُ إلى بلادِ الكفارِ مُحرَّمٌ إلا عندَ الضرورةِ ؛ كالعلاجِ والتجارةِ والتعليمِ للتخصُّصاتِ النافعةِ ، التى لا يُمْكِنُ الحصولُ عليها إلا بالسفرِ إليهم .

فيَجوزُ بقَدْرِ الحاجةِ ، وإذا انْتَهَت الحاجةُ وَجَبَ الرجوعُ إلى بلادِ المسلمين .

ويُشْتَرَطُ كذلك لجوازِ هذا السفرِ أن يكونَ مُظْهِرًا لدينِه ، مُعْتَزًّا بإسلامِه ، مُبْتَعِدًا عن مواطنِ الشرِّ ، حَذِرًا من دسائسِ الأعداءِ ومَكائدِهم .

وكذلك يجوزُ السفرُ ، أو يَجِبُ إلى بلادِهم إذا كان لأجلِ الدعوةِ إلى اللهِ ونَشْرِ الإسلامِ .

٤- إعانتُهم ومناصرتُهم على المسلمين ، ومَدْحُهم ، والذَّبُّ عنهم :

وهذا من نواقضِ الإسلامِ وأسبابِ الرِّدَّةِ ، نعوذُ باللهِ من ذلك .

٥- الاستعانةُ بهم ، والثِّقَةُ بهم ، وتَوْلِيَتُهم المناصبَ التى فيها أسرارُ المسلمين ، واتخاذُهم بِطانةً ومُسْتَشارِينَ :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران : ١١٨- ١٢٠] .

فهذه الآياتُ الكريمةُ تَشْرَحُ دَخائلَ الكفارِ ، وما يُكِنُّونَه نحوَ المسلمينَ مِن بغضٍ ، وما يُدَبِّرونه ضدَّهم من مكرٍ وخِيانةٍ ، وما يُحِبُّونه مِن مَضَرَّةِ المسلمين ، وإيصالِ الأذَى إليهم بكلِّ وسيلةٍ ، وأنهم يَسْتَغِلُّون ثقةَ المسلمين بهم ، فيُخَطِّطُون للإضرارِ بهم ، والنَّيْلِ منهم .

رَوَى الإمامُ أحمدُ ، عن أبى موسى الأشعرىِّ رضِى اللهُ عنه قال : قلتُ لعمرَ رضِى اللهُ عنه : لى كاتبٌ نَصْرانىٌّ .

قال : مالَك - قاتَلَك اللهُ - أمَا سمِعْتَ قولَ اللهِ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة : ٥١] . ألَا اتَّخَذْتَ حنيفًا .

قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، لى كتابتُه ، وله دِينُه .

قال : لا أُكْرِمُهم إذ أهَانَهم اللهُ ، ولا أُعِزُّهم إذ أَذَلَّهم اللهُ ، ولا

أُدْنِيهم ، وقد أقْصاهم اللهُ[(١)].

وَرَوَى الإمامُ أحمدُ ومسلمٌ ، أن النبىَّ ﷺ خرَجَ إلى بدرٍ ، فتَبِعَه رجلٌ من المشركين ، فلحِقَه عندَ الحَرَّةِ ، فقال : إنى أرَدْتُ أن أتَّبِعَك ، وأُصِيبَ معَك ، قال : « تُؤْمِنُ باللهِ ورسولِه ؟ » قال : لا . قال : « ارْجِعْ ، فلن أَسْتَعِينَ بمُشْرِكٍ »[(٢)].

ومن هذه النصوصِ يَتَبَيَّنُ لنا تحريمُ تَوْلِيةِ الكفارِ أعمالَ المسلمين التى يَتَمَكَّنُون بواسطتِها من الاطِّلاعِ على أحوالِ المسلمين وأسرارِهم ، ويَكِيدُون لهم بإلحاقِ الضررِ بهم .

ومن هذا ما وَقَعَ فى هذا الزمانِ مِن استقدامِ الكفارِ إلى بلادِ المسلمين - بلادِ الحرَمَيْنِ الشريفَيْنِ - وجَعْلِهم عُمَّالًا وسائقين ومُسْتَخْدَمِين ، ومُرَبِّين فى البيوتِ ، وخَلْطِهم مع العَوائلِ ، أو خلطِهم مع المسلمين فى بلادِهم .

٦- التأريخُ بتاريخِهم ، خُصوصًا التاريخَ الذى يُعَبِّرُ عن طُقُوسِهم وأعيادِهم ؛ كالتاريخِ الميلادىِّ .

والذى هو عبارةٌ عن ذِكْرَى مولدِ المسيحِ عليه السلامُ ، والذى

---

(١)أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى ٩/ ٢٠٤، وفى شعب الإيمان ٧/ ٤٣، وذكر المُناوى فى فيض القدير ٦/ ٣٥٠ أن ابن حجر حسَّنه .

(٢)رواه أحمد ٦/ ١٤٩ (٢٥٠٣٦) ، ومسلم ٣/ ١٤٤٩ (١٨١٧) ، وأبو داود (٢٧٣٢) ، والترمذى (١٥٥٨) ، وابن ماجه (٢٨٣٢) .

والحَرَّةُ هى حَرَّةُ الوَبَرة ، كما فى رواية مسلم ، قاال النووى رحمه الله فى شرح مسلم ٦/ ٤٣٨ : هو موضع على نحو أربعة أميال من المدينة . اهـ

ابْتَدَعوه من أنفسِهم ، وليس هو من دينِ المسيحِ عليه السلامُ ، فاستعمالُ هذا التاريخِ فيه مشاركةٌ في إحياءِ شعارِهم وعيدِهم .

ولِتَجَنُّبِ هذا لمَّا أراد الصحابةُ رضِى اللهُ عنهم وَضْعَ تاريخٍ للمسلمين في عهدِ الخليفةِ عمرَ رضِى اللهُ عنه عَدَلوا عن تواريخِ الكفارِ ، وأرَّخُوا بهجرةِ الرسولِ ﷺ [1] ، مما يَدُلُّ على وجوبِ مخالفةِ الكفارِ في هذا ، وفي غيرِه ، مما هو من خصائصِهم ، واللهُ المُسْتَعانُ .

---

(١) روى البخارى رحِمه اللَّهُ (٣٩٣٤) ، عن سهل بن سعد قال : ما عَدُّوا من مبعث النبى ﷺ ، ولا من وفاته ، ما عَدُّوا إلا من مقدمه المدينة .
ورَوَى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن قُرَّة بن خالد السَّدُوسى ، عن محمد بن سيرين ، قال : قام رجل إلى عمر ، فقال : أَرِّخُوا .
فقال : ما أَرِّخُوا ؟
فقال : شيء تفعله الأعاجم ، يكتبون فى شهر كذا ، من سنة كذا .
فقال عمر : حَسَنٌ . فأرِّخُوا .
فقالوا : من أى السنين نبدأ ؟
فقالوا : من مبعثه ، وقالوا : من وفاته ، ثم أجمعوا على الهجرة . ثم قالوا : وأى الشهور نبدأ ؟
قالوا : رمضان ، ثم قالوا : المُحَرَّم ، فهو مَصْرِف الناس من حجهم ، وهو شهر حرام . فاجتمعوا على المحرم .
وقد نقل ابن كثير رحِمه اللَّهُ فى كتابه البداية والنهاية اتفاق الصحابة على جعل ابتداء التاريخ الإسلامى من سنة الهجرة ، فقال رحِمه اللَّهُ فى كتابه البداية والنهاية ٣/ ٢٠٦: اتفق الصحابة رضى اللَّه عنهم فى سنة ست عشرة ، وقيل : سنة سبع عشرة ، أو ثمانى عشرة ، فى الدولة العمرية على جعل ابتداء التاريخ الإسلامى من سنة الهجرة . اهـ
وانظر مسائل الإمام أحمد ١/ ١٣، ١٤، وتاريخ خليفة بن خَيَّاط ١/ ٥٠، ٥١، وتاريخ الطبرى ٢/ ٣، ٤.

٧- مشاركتُهم فى أعيادِهم ، أو مُساعَدَتُهم فى إقامتِها ، أو تَهْنِئَتُهم بمناسبتِها ، أو حضورُ إقامتِها :

وقد فُسِّر قولُه سبحانَه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [الفرقان : ٧٢] .

أى : ومن صفاتِ عبادِ الرحمنِ أنهم لا يَحْضُرُون أعيادَ الكفارِ[1] .

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٠٦:
الثالث : ما تقدم من رواية أبى الشيخ الأصبهانى ، عن عطاء بن يسار - هكذا رأيته ، ولعله ابن دينار - قال : قال عمر : « إياكم ورَطانة الأعاجم ، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم فى كنائسهم » .
وروى البيهقى بإسناد صحيح ، فى باب كراهة الدخول على أهل الذمة فى كنائسهم ، والتشبه بهم يوم نَيْرُوزهم ومِهْرَجانهم : عن سفيان الثورى ، عن ثور بن يزيد ، عن عطاء بن دينار ، قال : قال عمر : لا تعلَّموا رطانة الأعاجم ، ولا تدخلوا على المشركين فى كنائسهم يوم عيدهم ، فإن السَّخْطة تنزل عليهم .
وبالإسناد عن الثورى ، عن عوف ، عن الوليد - أو أبى الوليد - ، عن عبد الله بن عمرو قال : « من بنى ببلاد الأعاجم ، فصنع نَيْرُوزهم ومِهْرَجانهم ، وتشبَّه بهم حتى يموت ، وهو كذلك ، حُشِر معهم يوم القيامة » .
وروى بإسناده عن البخارى صاحب الصحيح قال : قال لى ابن أبى مريم : أنبأنا نافع بن يزيد ، سمع سلمان بن أبى زينب ، وعمر بن الحارث ، سمع سعيد بن سلمة ، سمع أبان ، سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اجتنبوا أعداء الله فى عيدهم .
وروى بإسناد صحيح عن أبى أسامة ، حدثنا عوف ، عن أبى المغيرة ، عن عبد الله بن عمرو قال : « من بنى ببلاد الأعاجم ، فصنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبَّه بهم ، حتى يموت ، وهو كذلك ، حُشِر معهم يوم القيامة » . وقال : هكذا رواه يحيى بن سعيد ، وابن أبى عَدِى ، وغُنْدَر ، وعبد الوهاب ، عن عوف ، عن أبى المغيرة ، عن عبد الله بن عمرو من قوله .
وبالإسناد إلى أبى أسامة ، عن حماد بن زيد ، عن هشام ، عن محمد بن سيرين قال : =

....

= أُتِيَ على رضى اللّٰه عنه بهدية النيروز ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، هذا النيروز . قال : فاصنعوا كل يوم نيروزًا ، قال أبو أسامة : كره رضى اللّٰه عنه أن يقول : نيروزًا .

قال البيهقى : وفى هذا الكراهة لتخصيص يوم بذلك لم يجعله الشرع مخصوصًا به .

وهذا عمر نهى عن تعلُّم لسانهم ، وعن مجرد دخول الكنيسة عليهم يوم عيدهم ، فكيف بفعل بعض أفعالهم ؟ أو فعل ما هو من مقتضيات دينهم ؟ أليست موافقتهم فى العمل أعظم من الموافقة فى اللغة ؟ أو ليس عمل بعض أعمال عيدهم أعظم من الموافقة فى اللغة ، أوَ ليس عمل بعض أعمال عيدهم أعظم من مجرد الدخول عليهم فى عيدهم ؟

وإذا كان السُّخْط ينزل عليهم يوم عيدهم بسبب عملهم ؛ فمن يشركهم فى العمل أو بعضه : أليس قد تعرض لعقوبة ذلك ؟

ثم قوله : « واجتنبوا أعداء الله فى عيدهم » . أليس نهيًا عن لقائهم والاجتماع بهم فيه ؟ فكيف بمن عمل عيدهم ؟

أما عبد اللّٰه بن عمرو : فصرح أنه : « من بنى ببلادهم ، وصنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم حتى يموت ، حشر معهم » . وهذا يقتضى أنه جعله كافرًا بمشاركتهم فى مجموع هذه الأمور ، أو جعل ذلك من الكبائر الموجِبة للنارِ ، وإن كان الأول ظاهر لفظه ، فتكون المشاركة فى بعض ذلك معصية ؛ لأنه لو لم يكن مؤثِّرًا فى استحقاق العقوبة لم يجز جعله جزءًا من الـمُقْتَضِى ؛ إذ المباح لا يعاقب عليه ، وليس الذم على بعض ذلك مشروطًا ببعض ؛ لأن أبعاض ما ذكره يقتضى الذم منفردًا .

وإنما ذكر – واللّٰه أعلم – من بنى ببلادهم ؛ لأنهم على عهد عبد اللّٰه بن عمرو وغيره من الصحابة كانوا ممنوعين من إظهار أعيادهم بدار الإسلام ، وما كان أحد من المسلمين يتشبه بهم فى عيدهم ، وإنما كان يتمكن من ذلك بكونه فى أرضهم .

وأما على رضى اللّٰه عنه ، فكره موافقتهم فى اسم يوم العيد الذى ينفردون به ، فكيف بموافقتهم فى العمل ؟

وقد نص أحمد على معنى ما جاء عن عمر وعلى رضى اللّٰه عنهما فى ذلك ، وذكر أصحابه مسألة العيد .

وقد تقدم قول القاضى أبى يعلى : مسألة فى المنع من حضور أعيادهم . =

٨- مدحُهم ، والإشادةُ بما هم عليه من الـمَدَنِيَّةِ والحضارةِ ، والإعجابُ بأخلاقِهم ومَهاراتِهم دونَ نَظَرٍ إلى عقائدِهم الباطلةِ ، ودينِهم الفاسدِ :

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٣١] .

وليس معنى ذلك أن المسلمين لا يَتَّخِذُون أسبابَ القوةِ من تعلُّمِ الصناعاتِ ، ومُقَوِّماتِ الاقتصادِ المباحِ ، والأساليبِ العسكريةِ ، بل ذلك مطلوبٌ ، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وهذه المنافعُ والأسرارُ الكونيةُ هى فى الأصلِ للمسلمين ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] .

فالواجبُ أن يكونَ المسلمون سَبَّاقِين إلى استغلالِ هذه المنافعِ ، وهذه الطاقاتِ ، ولا يَسْتَجْدُون الكفارَ فى الحصولِ عليها ، بل أن يكونَ لهم مصانعُ وتَقْنِياتٌ .

وقال الإمام أبو الحسن الآمدى - المعروف بابن البغدادى - فى كتابه : « عمدة الحاضر وكفاية المسافر » : « فصل : لا يجوز شهود أعياد النصارى واليهود ، نص عليه أحمد فى رواية مُهَنَّا ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ » . اهـ

٩- التَّسَمِّي بأسمائِهم :

بحيث يُسَمِّي بعضُ المسلمين أبناءَهم وبناتِهم بأسماءٍ أجنبيةٍ ، ويَتْرُكون أسماءَ آبائِهم ، وأُمَّهاتِهم ، وأجْدادِهم ، وجَدَّاتِهم ، والأسماءَ المعروفةَ في مُجْتَمَعِهم .

وقد قال النبيُّ ﷺ : « خيرُ الأسماءِ عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ »[1] . وقد تسَبَّب تغييرُ الأسماءِ في وجودِ جِيلٍ يَحمِلُ أسماءً غريبةً ، مما يُسَبِّبُ الانفصالَ بينَ هذا الجيلِ والأجيالِ السابقةِ ، ويَقْطَعُ التَّعارُفَ بينَ الأُسَرِ التي كانت تُعْرَفُ بأسمائِها الخاصةِ .

١٠- الاستغفارُ لهم ، والتَّرَحُّمُ عليهم :

وقد حرَّم اللهُ ذلك بقولِه تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

---

(١) رواه أحمد ١٧٨/٤ (١٧٥٣٧، ١٧٥٣٨، ١٧٥٣٩) ، والبخاري في الكنى ١/ ٤٠ (٣٤٧) ، وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني ٤/ ٤٢٤ (٢٤٧٧) ، والطبراني في المعجم الكبير ١١٨/٧ (٦٥٥٩) .
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٤٩ : رواه أحمد بأسانيد ، رجالها رجال الصحيح ، ولكن ظاهر الروايتين الأُولَيَيْن الإرسال .
وقال الشيخ الألباني رحمه اللَّهُ في السلسلة الصحيحة ٣٣/٣ (١٠٤٠) : صحيح .
وقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم ٦٨٢/٣ (٢١٣٢) ، والترمذي (٢٨٣٣، ٢٨٣٤) ، وابن ماجه (٣٧٢٨) بلفظ : «إن أحبَّ أسمائِكم إلى الله عبد اللَّه ، وعبد الرحمن » .
وأما ما اشتهر على ألسنة العامة من قولهم : خير الأسماء ما حُمِّد وعُبِّد ، ونسبتهم ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ ، فليس ذلك بصحيح .
قال العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٦٨ : لا يعرف .
وقال السيوطي في الدرر المنتثرة رقم (٢١٧) : لم أقف عليه .

يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] . لأنَّ هذا يَتَضَمَّنُ حبَّهم ، وتصحيحَ ما هم عليه .

* * *

ثانيًا :

من مظاهرِ مُوالاةِ المُؤْمنين

١- الهجرةُ إلى بلادِ المسلمين ، وهَجْرُ بلادِ الكافرين :

والهجرةُ هى الانتقالُ من بلادِ الكفارِ إلى بلادِ المسلمين ؛ لأجلِ الفِرارِ بالدينِ .

والهجرةُ بهذا المعنى ، ولأجلِ هذا الغرضِ واجبةٌ ، وباقيةٌ إلى طلوعِ الشمسِ من مغرِبِها ، عندَ قيامِ الساعةِ .

وقد تَبَرَّأَ النبىُّ ﷺ من كلِّ مسلمٍ يُقِيمُ بينَ أظهُرِ المشركين[١] ، فتَحْرُمُ على المسلمِ الإقامةُ فى بلادِ الكفارِ إلا إذا كان لا يَسْتَطِيعُ الهجرةَ منها .

أو كان فى إقامتِه مصلحةٌ دينيةٌ ؛ كالدعوةِ إلى اللهِ ، ونَشْرِ الإسلامِ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩] .

٢- مناصرةُ المسلمين ومعاونتُهم بالنفسِ والمالِ واللسانِ ، فيما

---

(١) يشير الشيخ – حفظه الله – إلى ما رواه أبو داود (٢٦٤٥) ، والترمذى (١٦٠٤) ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ١٤٢ ، عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، وفيه أن النبى ﷺ قال : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » .
قال الشيخ الألبانى فى تعليقه على سنن أبى داود : صحيح .

يَحتاجُون إليه فى دينِهم ودُنْياهم :

قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

٣- التألُّمُ لألـمِهم والسُّرورُ بسرورِهم :

قال النبيُّ ﷺ : « مَثَلُ المسلمين فى تَوادِّهم وتَعاطُفِهم وتَراحُمِهم كالجَسَدِ الواحدِ ، إذا اشْتَكَى منه عُضْوٌ تَداعَى له سائرُ الجسدِ بالحُمَّى والسَّهَر » [(١)] .

وقال أيضًا عليه الصلاةُ والسلامُ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا » . وشبَّك بينَ أصابعِه ﷺ [(٢)] .

٤- النصحُ لهم ، ومَحَبَّةُ الخيرِ لهم ، وعدمُ غَشِّهم ، وخَديعتِهم :

قال ﷺ : « لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسِه » [(٣)] .

وقال : « المسلمُ أخو المسلمِ ، لا يَحْقِرُه ، ولا يَخْذُلُه ، ولا يُسْلِمُه ، بحَسْبِ امْرِئٍ من الشرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلمَ ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرامٌ ؛ دمُه ومالُه وعِرْضُه » [(٤)] .

---

(١) رواه البخارى (٦٠١١) ، ومسلم ٤/ ١٩٩٩، ٢٠٠٠ (٢٥٨٦) .

(٢) رواه البخارى (٢٤٤٦، ٦٠٢٦) ، ومسلم ٤/١٩٩٩ (٢٥٨٥) .

(٣) رواه البخارى (١٣) ، ومسلم ١/٦٧ (٤٥) .

(٤) رواه أحمد ٢/ ٢٧٧، ٣٦٠ (٧٧١٣، ٨٧٠٧) ، ومسلم ٤/١٩٨٦ (٢٥٦٤) ، =

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «لا تَباغَضُوا، ولا تَدَابَروا، ولا تَناجَشُوا، ولا يَبِعْ بعضُكم على بيعِ بعضٍ، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا»[1].

٥- احترامُهم وتوقيرُهم وعدمُ تَنَقُّصِهم وعيبِهم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١- ١٢].

٦- أن يكونَ معَهم فى حالِ العُسْرِ واليُسْرِ والشدةِ والرخاءِ:

بخلافِ أهلِ النفاقِ الذين يكونون مع المؤمنين فى حالةِ اليُسْرِ والرخاءِ، ويَتَخَلَّوْنَ عنهم فى حالِ[2] الشدةِ.

= وابن ماجه (٣٩٣٣، ٤٢١٣)، والبيهقى ٦/ ٩٢، ٨/ ٢٥٠، والقضاعى فى مسند الشهاب (٩٣٩).

(١) رواه البخارى (٦٠٦٦)، ومسلم ٤/١٩٨٦ (٢٥٦٤)، واللفظ لمسلم.

(٢) قال الشيخ محمد محيى الدين رحمه الله فى تعليقه على أوضح المسالك ٢/ ٢٥٧، حاشية ٣:

اعلم أن لفظ الحال يُذَكَّر فيقال: (حال)، ويؤنث فيقال: (حالة) بالتاء، وأن معناه قد يُذَكَّر، فيعود الضمير عليه مذكرًا، ويسند إليه الفعل الماضى بغير تاء، ويشار إليه باسم =

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] .

٧- زيارتُهم ومحبةُ الالتقاءِ بهم والاجتماعِ معَهم :

وفى الحديثِ القُدْسيِّ : « وجَبَت مَحَبَّتى للمُتَزاوِرِينَ فيَّ »(١) .

= الإشارة الموضوع للمذكر ، ويوصف بما يوصف به المذكر ، وغير ذلك مما لا يَعْسُر عليك استقصاؤه .

وقد يؤنث معناه ، ليعود الضمير عليه مؤنثًا ، ويسند إليه الفعل الماضى مقترنًا بتاء التأنيث ، ويشار إليه باسم الإشارة الموضوع للمؤنث ، ويوصف بما يوصف به المؤنث .

ومن شواهد تذكير لفظ الحال : قول الشاعر :

إِذَا أَعْجَبَتْكَ الدَّهْرَ حَالٌ مِنَ امْرِئٍ ... فَدَعْهُ وَوَاكِلْ أَمْرَهُ وَاللَّيَالِيَا

ومن شواهد تأنيث لفظها : قول الفرزدق :

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِى الْقَوْمِ حَاتِمًا ... عَلَى جُودِهِ ضَنَّتْ بِهِ نَفْسُ حَاتِمِ

فإذا كان لفظ الحال مذكرًا فأنت فى سَعَة من أن تُذَكِّر معناه أو تؤنثه ، تقول : هذا حال ، وهذه حال ، وحال حسن ، وحال حسنة ، والحال الذى أنا فيه طيب ، والحال التى أنا فيها طيبة ، وكان حالنا يوم كذا جميلًا ، وكانت حالنا يوم كذا جميلة .

وتأمل فى قول الشاعر : (أعجبتك الدهرحال) ، فقد أسند الفعل الماضى إلى لفظ الحال المذكر مقترنًا بتاء التأنيث ، وقال أبو الطيب المتنبى :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ

فذكَّرها لفظًا ومعنًى فى قوله (يسعد الحال) .

وأما إذا كان لفظ الحال مؤنثًا فليس لك مَعْدًى عن تأنيث الفعل الذى تسنده إليها ، وتأنيث الإشارة إليها ، وتأنيث وصفها ، وتأنيث ما تخبر به عنها ، وهلم جرًّا . اهـ

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩ (٢١٩٢٩، ٢١٩٧٩) ، ومالك فى الموطأ ٢/ ٧٢٦، وابن حبان (٦٢١، ٢٥١٠) ، وصححه الحاكم ٤/ ١٦٨، ١٦٩، ١٨٧، =

وفى حديثٍ آخرَ : « أن رجلًا زار أخًا له فى اللهِ ، فأَرْصَدَ اللهُ على مَدْرَجَتِه مَلَكًا ، فسأَلَه أين تُرِيدُ ؟

قال : أَزُورُ أخًا لى فى اللهِ .

قال : هل لك عليه من نعمةٍ تَرُبُّها عليه ؟

قال : لا ، غيرَ أنى أَحْبَبْتُه فى اللهِ .

قال : فإنى رسولُ اللهِ إليك بأنَّ اللهَ قد أحبَّك كما أحْبَبْتَه فيه »[1] .

٨- احترامُ حقوقِهم :

فلا يَبِيعُ على بيعِهم ، ولا يَسُومُ على سَوْمِهم ، ولا يَخْطُبُ على خِطْبتِهم ، ولا يَتَعَرَّضُ لما سبَقُوا إليه من المباحاتِ .

قال ﷺ : « ألا لا يَبِعِ الرجلُ على بَيْعِ أخيه ، ولا يَخْطُبْ على

= ووافقه الذهبى على شرطهما ، وعَبْد بنُ حُمَيْد ١/ ١٢٥ ، والبزار ٧/ ١٤٣ ، والطبرانى فى الأوسط ٦/ ٦١ ، والكبير ٢٠/ ٨١ ، والضياء المقدسى فى الأحاديث المختارة ٨/ ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، وقال : إسناده صحيح .

وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٣٢١) : صحيح .

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٩٢ ، ٤٠٨ ، ٤٦٢ ، ٤٨٢ ، ٥٠٨ (٧٩٠٦ ، ٩٢٦٢ ، ٩٩٢٠ ، ١٠١٩٨ ، ١٠٥٤٩) ، ومسلم ٤/١٩٨٨ (٢٥٦٧) .

قال النووى رحمه اللّه فى شرح مسلم ٨/ ٣٦٧ : قوله ﷺ : فأَرْصَدَ اللّه على مَدْرَجَته ملكًا . معنى : « أرصده » : أقعده يَرْقُبه ، والمَدْرَجة - بفتح الميم والراء - هى الطريق ، سُمّيت بذلك ؛ لأنَّ الناسَ يَدْرُجون عليها ؛ أى : يمضون ويمشون .

وقوله ﷺ : « هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها » . أى : تقوم بإصلاحها ، وتنهض إليه بسبب ذلك . اهـ

خِطْبتِه »(١) . وفى روايةٍ : « ولا يَسُمْ على سَوْمِه »(٢) .

٩- الرِّفْقُ بضُعَفائِهم :

كما قال النبيُّ ﷺ : « ليس منا مَن لم يُوَقِّرْ كبيرَنا ، ويَرْحَمْ صغيرَنا »(٣) . وقال عليه الصلاةُ والسلامُ : « هل تُنْصَرُون وتُرْزَقُون إلا بضُعفائِكم »(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

١٠- الدعاءُ لهم ، والاستغفارُ لهم :

قال تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] .

وقال سبحانَه : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر : ١٠] .

---

(١) البخارى (٢٧٢٣، ٥١٤٢) ، ومسلم ٢/١٠٣٢ (١٤١٢) ، الحديث رقم (٥٠) من كتاب النكاح .

(٢) مسلم ٢/١٠٣٣ (١٤١٣) الحديث رقم (٥١) من كتاب النكاح .

(٣) رواه أحمد ١/٢٥٧ ، ٢/ ١٨٥ ، ٢٠٧ (٢٣٢٩ ، ٦٧٣٣ ، ٦٩٣٥) ، والترمذى (١٩١٩ ، ١٩٢١) .
قال الشيخ أحمد شاكر رحمه اللَّهُ فى شرح المسند : إسناده صحيح .

(٤) رواه أحمد ١/١٧٣ (١٤٩٣) ، والبخارى (٢٨٩٦) .

تنبيهٌ :

وأما قولُه تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

فمعناه أنَّ مَن كَفَّ أذاه من الكفارِ ، فلم يُقاتِلِ المسلمين ، ولم يُخْرِجْهم مِن ديارِهم ، فإنَّ المسلمين يُقابِلون ذلك بمكافأتِه بالإحسانِ والعدلِ معَه فى التعامُلِ الدُّنيوِىِّ ، ولا يُحِبُّونه بقلوبِهم ؛ لأنَّ اللهَ قال : ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ .

ولم يَقُلْ : تُوالُونَهم وتُحِبُّونَهم .

ونظيرُ هذا قولُه تعالى فى الوالدَيْنِ الكافرَيْنِ : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان : ١٥] .

وقد جاءت أمُّ أسماءَ إليها تَطْلُبُ صِلَتَها ، وهى كافرةٌ ، فاسْتَأْذَنَتْ أسماءُ رسولَ اللهِ ﷺ فى ذلك ، فقال لها : « صِلِى أمَّك »[1] .

وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فالصلةُ والمكافأةُ الدنيويةُ شيءٌ ، والمَوَدَّةُ شيءٌ آخرُ .

ولأنَّ فى الصلةِ وحُسْنِ المعاملةِ ترغيبًا للكافرِ فى الإسلامِ ، فهما مِن

(١) البخارى (٣١٨٣) ، ومسلم ٢/٦٩٦ (١٠٠٣) ، الحديث رقم (٥٠) من كتاب الزكاة .

وسائلِ الدعوةِ ، بخلافِ المودةِ والموالاةِ ، فهما يَدُلَّان على إقرارِ الكافرِ على ما هو عليه ، والرِّضا عنه ، وذلك يُسَبِّبُ عدمَ دعوتِه إلى الإسلامِ .

وكذلك تحريمُ مُوالاةِ الكفارِ لا تَعْنِى تحريمَ التعاملِ معَهم بالتجارةِ المباحةِ واستيرادِ البضائعِ والمصنوعاتِ النافعةِ والاستفادةِ من خِبْرَاتِهم ومُخْتَرعاتِهم .

فالنبىُّ ﷺ اسْتَأْجَر ابنَ أُرَيْقِطٍ اللَّيْثىَّ ليَدُلَّه على الطريقِ[١] ، وهو كافرٌ ، واسْتَدان مِن بعضِ اليهودِ[٢] .

وما زال المسلمون يَسْتَوْرِدون البضائعَ والمصنوعاتِ من الكفارِ ، وهذا من بابِ الشّراءِ منهم بالثمنِ ، وليس لهم علينا فيه فضلٌ ومِنَّةٌ .

وليس هو من أسبابِ مَحَبَّتِهم ومُوالاتِهم ؛ فإنَّ اللهَ أوْجَب محبةَ

---

(١) رواه البخارى (٣٩٠٥) ، ولكن لم يُذْكَر فى رواية البخارى اسم هذا الرجل .
قال ابن حجر فى الفتح ٧/ ٢٣٧، ٢٣٨: ووقع فى سيرة ابن إسحاق ، تهذيب ابن هشام اسمه عبد اللّه بن أرقد ، وفى رواية الأُمَوى عن ابن إسحاق : ابن أريقد ، كذا رواه الأموى فى المغازى بإسناد مرسل فى غير هذه القصة ، قال : وهو دليل رسول اللّه ﷺ إلى المدينة فى الهجرة .
وعند موسى بن عقبة : أريقط بالتصغير أيضًا ، لكن بالطاء ، وهو أشهر .
وعند ابن سعد : عبد الله بن أريقط ، وعن مالك اسمه : رقيط . حكاه ابن التين ، وهو فى « العتبية » . اهـ

(٢) روى البخارى (٢٠٦٨، ٢٠٩٦، ٢٢٠٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٣٨٦، ٢٥٠٩، ٢٥١٣، ٢٩١٦، ٤٤٦٧) ، ومسلم ٣/١٢٢٦ (١٦٠٣) ، والنسائى (٤٦٢٣) ، عن عائشة رضى اللّه عنها قالت : اشترى رسول اللّه ﷺ من يهودى طعامًا إلى أَجَلٍ ، ورَهَنه دِرْعَه .

المؤمنين ومُوالاتهم ، وبُغْضَ الكافرين ومُعاداتَهم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

إلى قولِه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ : ومعنى قولِه : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ ؛ أى : إن لم تُجانِبوا المشركين ، وتُوالُوا المؤمنين ، وإلا وَقَعَت فتنةٌ فى الناسِ ، وهو التباسُ الأمرِ ، واختلاطُ المؤمنين بالكافرين ، فيَقَعُ بينَ الناسِ فَسادٌ مُنْتَشِرٌ عَريضٌ طويلٌ[1] . انتهى .

قلتُ : وهذا ما حصَلَ فى هذا الزمانِ ، واللهُ المستعانُ .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣١.

أقسامُ الناسِ فيما يَجِبُ فى حقِّهم من الولاءِ والبراءِ

الناسُ فى الولاءِ والبراءِ على ثلاثةِ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : مَن يُحَبُّ مَحَبَّةً خالصةً ، لا مُعادَاةَ معَها :

وهم المؤمنون الخُلَّصُ من الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحين .

وفى مُقَدِّمتِهم رسولُ اللهِ ﷺ ؛ فإنه تَجِبُ مَحَبَّتُه أعظمَ مِن محبةِ النفسِ والولدِ والوالدِ والناسِ أجمعين .

ثم زوجاتُه أمهاتُ المؤمنين وأهلُ بيتِه الطَّيِّبُونَ وصَحابَتُه الكِرامُ ، خصوصًا الخلفاءَ الراشدين وبقيةَ العشرةِ ، والمهاجرين ، والأنصارَ ، وأهلَ بدرٍ ، وأهلَ بيعةِ الرِّضْوانِ ، ثم بقيةَ الصحابةِ رضِى اللهُ عنهم أجمعين .

ثم التابعون والقرونُ المُفَضَّلةُ وسَلَفُ هذه الأمةِ وأئمتُها ، كالأئمةِ الأربعةِ .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

ولا يَبْغَضُ الصحابةَ وسلفَ هذه الأمةِ مَن فى قلبِه إيمانٌ .

وإنما يَبْغَضُهم أهلُ الزَّيْغِ والنفاقِ وأعداءُ الإسلامِ ؛ كالرافضةِ[١]

(١) الرافضة : سُمُّوا بذلك لرفضهم زيدَ بنَ عَلِى حينما توجه لقتال هشام بن عبد الملك ، فقال أصحابه : تَبَرَّأْ من الشيخين حتى نكون معك . فقال : لا ، بل أَتَوَلَّاهما ، وأَتَبَرَّأُ ممن تبرأ =

والخوارجِ[١] ، نسْأَلُ اللهَ العافيةَ .

القسمُ الثانى : مَن يُبْغَضُ ويُعادَى بُغضًا ومُعاداةً خالصَيْنِ ، لا مَحَبَّةَ ، ولا مُوالاةَ معَهما :

وهم الكفارُ الخُلَّصُ من الكفارِ والمشركين والمنافقين والمُرْتَدِّين والمُلْحِدِين على اختلافِ أجناسِهم .

كما قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى عائبًا على بنى إسرائيلَ : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٧٩- ٨٠] .

القسمُ الثالثُ : مَن يُحَبُّ من وجهٍ ، ويُبْغَضُ من وجهٍ :

فتجْتَمِعُ فيه المحبةُ والعَداوةُ ، وهم عُصاةُ المؤمنين ، يُحَبُّون لما فيهم من

= منهما : فقالوا : إذًا نَرْفُضُك . فسُمِّيَت الرافضة .

وهم يثبتون الإمامة عقلًا ، وأن إمامة عَلِيٍّ وتقديمه ثابت نصًّا ، وأن الأئمة معصومون . وقالوا بتفضيل « عَلِيٍّ » على سائر الصحابة ، وتَبَرَّءُوا من أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة ، ويقولون برَجْعَة الأموات ، وأن الأُمَّة ارْتَدَّت بتركها إمامة عَلِيٍّ رضى اللّه عنه .

انظر تفاصيل مذهبهم فى : البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص ٣٦، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٧، ٧٨، ورسالة فى الرد على الرافضة ص ٦٥، ٦٧ .

(١) تقدمت ترجمة الخوارج ص٣٤ .

الإيمانِ ، ويُبْغَضُون لما فيهم من المعصيةِ ، التى هى دونَ الكفرِ والشركِ .

ومحبتُهم تَقْتَضِى مُناصَحتَهم والإنكارَ عليهم ، فلا يَجوزُ السكوتُ على مَعاصِيهم ، بل يُنْكَرُ عليهم ، ويُؤْمَرُون بالمعروفِ ، ويُنْهَوْنَ عن المنكرِ ، وتُقامُ عليهم الحدودُ والتَّعْزيراتُ ، حتى يَكُفُّوا عن مَعاصِيهم ، ويَتُوبُوا من سيئاتِهم .

ولكن لا يُبْغَضُون بُغْضًا خالصًا ، ويُتَبَرَّأُ منهم ، كما تقولُه الخوارجُ فى مُرْتَكِبِ الكبيرةِ ، التى هى دونَ الشركِ .

ولا يُحَبُّون ويُوالَوْن حبًّا ومُوالاةً خالصَيْنِ ، كما تقولُه المرجئةُ[1] ، بل يُعْتَدَلُ فى شأنِهم ، على ما ذكَرْنا ، كما هو مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ .

والحبُّ فى اللهِ ، والبُغْضُ فى اللهِ أَوْثَقُ عُرَى الإيمانِ[2] ، والمرءُ مع مَن

---

(١) المرجئة سُمُّوا بذلك لقولهم بالإرجاء ، وأصل الإرجاء التأخير ؛ وذلك لأنهم أخَّروا الأعمال عن مُسَمَّى الإيمان .

وقيل : من إعطاء الرجاء ، حيث قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقيل : الإرجاء تأخير حكم الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل النار ، أو من أهل الجنة ، فعلى هذا المرجئة والوعيدية فرقتان متقابلتان .

وقيل : الإرجاء تأخير عَلِيٍّ من الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة ، فعلى هذا المرجئة والشِّيعة طائفتان متقابلتان .

والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة. انظر تفاصيل مذهبهم فى : الملل والنحل ١/ ١٨٦، والفِصَل فى الملل والنِّحَلِ ٢/ ١١٣، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) هذا لفظ حديث رواه الطيالسى فى مسنده ١/١٠١ (٧٤٧) ، وأحمد ٤/٢٨٦=

أحَبَّ يومَ القيامةِ ، كما فى الحديثِ[١] .

وقد تغَيَّرَ الوَضْعُ ، وصار غالبُ مُوالاةِ الناسِ ومُعاداتِهم لأجلِ الدنيا ، فمَن كان عندَه طَمَعٌ من مطامعِ الدنيا والَوْه ، وإن كان عدوًّا للهِ ولرسولِه ولدينِ المسلمين .

ومَن لم يَكُنْ عندَه طَمَعٌ من مطامعِ الدنيا عادَوْه ، ولو كان وليًّا للهِ ولرسولِه عندَ أدْنَى سببٍ ، وضايَقُوه واحْتَقَروه .

وقد قال عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضِى اللهُ عنهما : مَن أحَبَّ فى اللهِ ، وأبْغَضَ فى اللهِ ، ووالَى فى اللهِ ، وعَادَى فى اللهِ ، فإنما تُنالُ وِلايةُ اللهِ بذلك ، وقد صارت عامةُ مُؤاخاةِ الناسِ على أمرِ الدنيا ، وذلك لا يُجْدِى على أهلِه شيئًا . رواه ابنُ جريرٍ[٢] .

= (١٨٤٣٣) ، وابن أبى شيبة فى مصنفه ٧/ ٨٠ (٣٤٣٣٨) ، وأبو بكر الرُّويانى فى مسنده ١/ ٢٧١ (٣٩٩) ، والبخارى فى الكُنَى (٨٠٢) ، والطبرانى فى المعجم الكبير ١٠/ ٢٢٠ (١٠٥٣١) ، وفى الصغير ١/ ٣٧٣.

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١/ ٨٩: رواه أحمد ، وفيه الليث بن أبى سُلَيم ، وضعفه الأكثر .

وقال أيضًا فى المجمع ١/ ٩٠: رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه عقيل بن الجعد ، قال عنه البخارى : منكر الحديث . والحديث حسنه الشيخ الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٣٠) .

(١) رواه البخارى (٦١٦٨، ٦١٦٩، ٦١٧٠) ، ومسلم ٤/ ٢٠٣٤ (٢٦٤٠) .

(٢) رواه محمد بن نصر المَرْوَزى فى « تعظيم قدر الصلاة » (٣٦٩) ، ومحمد بن يحيى العَدَنى فى كتاب الإيمان ١/ ١٢٨ (٥٦) ، وقد عزاه ابن رجب ، كذلك فى جامع العلوم والحكم إلى الطبرى ، ولم نجده ، وانظر جامع العلوم والحكم . ط . الشيخ شعيب ١/ ١٢٥.

وعن أبى هريرةَ رضِى اللهُ عنه قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إن اللهَ تعالى قال : مَن عادَى لى وليًّا فقد آذَنْتُه بالحربِ » . الحديثَ ، رواه البخاريُّ [١] .

وأشدُّ الناسِ مُحارَبةً للهِ مَن عادَى أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وسَبَّهم ، وتنَقَّصَهم .

وقد قال ﷺ : « اللهَ اللهَ فى أصْحابى ، لا تَتَّخِذُوهم غَرَضًا ، فمَن آذاهم فقد آذانى ، ومَن آذانى فقد آذَى اللهَ ، ومَن آذَى اللهَ يُوشِكُ أن يَأْخُذَه » . أخرجه الترمذىُّ وغيرُه [٢] .

وقد صارَت مُعاداةُ الصحابةِ وسبُّهم دينًا وعقيدةً عندَ بعضِ الطوائفِ الضَّالَّةِ .

نعوذُ باللهِ من غضبِه وأَليمِ عقابِه ، ونَسْأَلُه العفوَ والعافيةَ ، وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك على نبيِّنا محمدٍ وآلِه وصَحْبِه .

* * *

---

(١) رواه البخارى (٦٥٠٢) ، وأبو نعيم فى الحلية ١/ ٤، والبيهقى فى الزهد (٦٩٠) ، وفى السنن الكبرى ٣/ ٣٤٦، ١٠/ ٢١٩، والبغوى فى شرح السنة (١٢٤٨) .

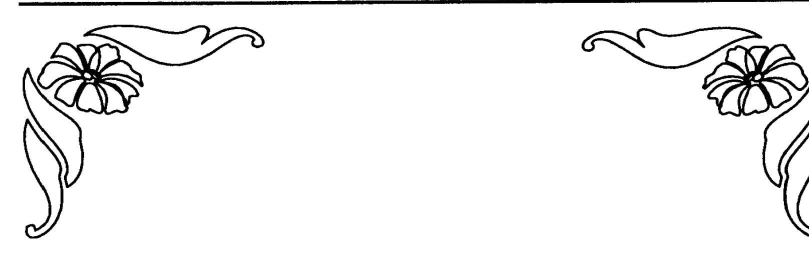
(٢) رواه أحمد ٤/ ٨٧، ٥/ ٥٥، ٥٧ (١٦٧٤٧، ٢٠٤٢٨، ٢٠٤٥٦) ، والترمذى (٣٨٦٢) ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى تعليقه على سنن الترمذى : ضعيف .

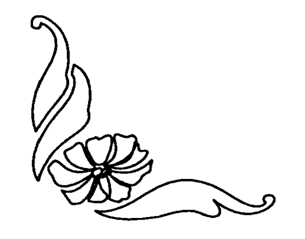
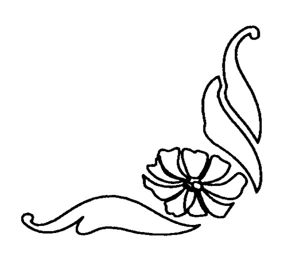
الفهرس

الموضوع	الصفحة

* * *



حقيقة لا إله إلا اللّه



بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

الحمدُ للهِ نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه ، ونَتوبُ إليه ، ونَعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا ، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له .

وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ، صلَّى اللهُ عليه ، وعلى آلِه وأصحابِه ، وكلِّ مَن اتَّبَعَه وتمَسَّك بسنتِه إلى يومِ الدينِ .

أما بعدُ :

فإنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى أمَرَنا بذِكْرِه ، وأثْنَى على الذاكرين ، ووعَدَهم أجرًا عظيمًا ، فأمَرَ بذكرِه مطلقًا ، وبعدَ الفراغِ من العباداتِ .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣] .

وقال : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] .

وأمَرَ بذكرِه أثناءَ أداءِ مَناسِكِ الحجِّ خاصةً ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٩٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [الحج: ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٣] .

وقال النبيُّ ﷺ : « أيامُ التشريقِ أيامُ أكلٍ وشُرْبٍ وذِكْرِ اللهِ » (١).

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١، ٤٢] .

ولمَّا كان أفضلُ الذكرِ : لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، كما وَرَد عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « خيرُ الدعاءِ دعاءُ عرفةَ ، وخيرُ ما قلتُ أنا والنَّبيون مِن قبلى لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ » (٢).

ولمَّا كانت هذه الكلمةُ العظيمةُ (لا إلهَ إلا اللهُ) لها هذه المنزلةُ العاليةُ مِن بينِ أنواعِ الذكرِ ، ويَتَعَلَّقُ بها أحكامٌ ، ولها شروطٌ ، ولها معنًى ومُقْتَضًى ، فليست كلمةً تُقالُ باللسانِ فقط .

لمَّا كان الأمرُ كذلك آثَرْتُ أن تكونَ موضوعَ حديثى فى هذه الكلمةِ المختصرةِ ، راجيًا مِن اللهِ تعالى أن يَجْعَلَنا وإياكم من أهلِها المُسْتَمْسِكِينَ

---

(١) رواه أحمد ٥/٧٥ (٢٠٦٠٠) ، ومسلم ٢/٨٠٠ (١١٤١) ، ورواه أيضًا أحمد ٣/ ٤٦٠ ، ٤/٣٣٥ (١٥٧٣٣ ، ١٨٨٥٨) ، وأبو داود (٢٤١٩) ، والترمذى (٧٧٣) ، والنسائى (٣٠٠٤) ، وابن ماجه (١٧١٩) ، ولكن بدون لفظة : « وذكر الله » .

(٢) رواه الترمذى (٣٥٨٥) ، والبيهقى فى سننه الكبرى ٤/ ٢٨٤ ، ٥/ ١١٧ ، وقال : هذا مرسل ، وقد رُوِى عن مالك بإسنادٍ آخر موصولًا ، ووَصْلُه ضعيف .
ورواه البيهقى أيضًا فى شعب الإيمان ٣/٤٦٢ بلفظ : « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل قولى وقول الأنبياء قبلى : لا إله إلا الله . . . » الحديث ، وزاد بعد : « وله الحمد » : « يحيى ويميت ، بيده الخير » .
قال ابن حجر فى التلخيص الحبير ٢/ ٢٥٤ : فى إسناده حماد بن أبى حميد ، وهو ضعيف .

بها ، والعارفِين لمعناها ، العامِلِين بمُقْتَضَاها ، ظاهرًا وباطنًا .

وسيكونُ حديثى عن هذه الكلمةِ فى حدودِ النقاطِ التاليـةِ :

مكانةُ لا إلهَ إلا اللهُ فى الحياةِ ، وفضلُها ، وإعرابُها ، وأركانُها ، وشروطُها ، ومعناها ، ومُقْتَضَاها ، ومتى يَنْفَعُ الإنسانَ التلفُّظُ بهذه الكلمةِ ، ومتى لا يَنْفَعُه ذلك .

فأقولُ مَسْتَعِينًا باللهِ تعالى :

١ – أمَّا مكانةُ هذه الكلمةِ : فإنها كلمةٌ يُعْلِنُها المُسْلِمون فى أذانِهم وإقامتِهم ، وفى خُطَبِهم ومُحادثاتِهم ، وهى كلمةٌ قامَتْ بها الأرضُ والسماواتُ ، وخُلِقَت لأجلِها جميعُ المخلوقاتِ .

وبها أَرْسَلَ اللهُ رسلَه ، وأنْزَل كتبَه ، وشرَعَ شرائعَه ، ولأجلِها نُصِبَتِ المَوازِينُ ، ووُضِعَت الدَّواوينُ ، وقام سوقُ الجنةِ والنارِ ، وبها انْقَسَمَت الخَلِيقةُ إلى مؤمنين وكفارٍ .

فهى مَنْشَأُ الخلقِ والأمرِ والثوابِ والعقابِ ، وهى الحقُّ الذى خُلِقَت له الخَلِيقةُ ، وعنها وعن حقوقِها السؤالُ والحسابُ .

وعليها يَقَعُ الثوابُ والعقابُ ، وعليها نُصِبَت القِبْلةُ ، وعليها أُسِّسَت المِلَّةُ ، ولأجلِها جُرِّدَت سيوفُ الجهادِ ، وهى حقُّ اللهِ على جميعِ العبادِ .

فهى كلمةُ الإسلامِ ، ومِفْتاحُ دارِ السلامِ ، وعنها يُسْأَلُ الأوَّلُون والآخِرون ، فلا تَزَولُ قَدَما العبدِ بينَ يَدَيِ اللهِ حتى يُسْأَلَ عن مسألتين : (ماذا كنتم تَعْبُدون ، وماذا أجَبْتُم المُرْسَلِين) .

وجوابُ **الأولى** بتحقيقِ لا إلهَ إلا اللهُ معرفةً وإقرارًا وعملًا .

وجوابُ **الثانيةِ** بتحقيقِ أن محمدًا رسولُ اللهِ معرفةً وانقيادًا وطاعةً[1].

هذه الكلمةُ هى الفارقةُ بينَ الكفرِ والإسلامِ ، وهى كلمةُ التقوى والعُرْوةُ الوُثْقَى ، وهى التى جعَلَها إبراهيمُ ﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٨] .

وهى التى شَهِد اللهُ بها لنفسِه ، وشهِد بها ملائكتُه وأُولُو العلمِ من خلقِه ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وهى كلمةُ الإخلاصِ وشهادةُ الحقِّ ، ودعوةُ الحقِّ ، وبَراءةٌ من الشركِ ، ولأجلِها خُلِق الخَلْقُ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ولأجلِها أُرْسِلَت الرسلُ ، وأُنْزِلَت الكتبُ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] .

قال ابنُ عُيَيْنةَ[2]: ما أنْعَمَ اللهُ على عبدٍ مِن العبادِ نعمةً أعظمَ مِن أن

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ١/ ٣٤.

(٢) كلمة الإخلاص لابن رجب ص٥٢، ٥٣.

عرَّفَهم لا إلهَ إلا اللهُ ، وإنَّ لا إلهَ إلا اللهُ لأهلِ الجنةِ كالماءِ الباردِ لأهلِ الدنيا ، فمَن قالها عُصِم مالُه ودمُه ، ومَن أباها فمالُه ودمُه هَدْرٌ .

ففى الصحيحِ ، عن النبىِّ ﷺ قال : « مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ ، وكَفَر بما يُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ حَرُم مالُه ودمُه ، وحسابُهُ على اللهِ »[١] .

وهى أولُ ما يُطْلَبُ من الكفارِ عندَما يُدْعَوْن إلى الإسلامِ ، فإن النبىَّ ﷺ لما بعَثَ معاذًا إلى اليمنِ قال له : « إنك تأتى قومًا من أهلِ الكتابِ ، فلْيَكُنْ أولَ ما تَدْعُوهم إليه شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ » الحديثَ ، أخرجاه فى الصحيحَيْنِ[٢] .

وبهذا تُعْلَمُ مكانتُها فى الدينِ ، وأهميتُها فى الحياةِ ، وأنها أولُ واجبٍ على العبادِ ؛ لأنها الأساسُ الذى تُبْنَى عليه جميعُ الأعمالِ .

٢- وأما فضلُ هذه الكلمةِ : فلها فضائلُ عظيمةٌ ، ولها من اللهِ مكانٌ ، مَن قالها صادقًا أدْخَلَه اللهُ الجنةَ ، ومَن قالها كاذبًا حَقَنَت دمَه ، وأحْرَزَت مالَه ، وحسابُه على اللهِ عزَّ وجلَّ .

وهى كلمةٌ وَجيزةُ اللفظِ ، قليلةُ الحروفِ ، خَفِيفةٌ على اللسانِ ، ثَقِيلةٌ فى الميزانِ ، فقد رَوَى ابنُ حِبَّانَ ، والحاكمُ ، وصحَّحَه ، عن أبى سعيدٍ الخُدْرِىِّ ، رضِى اللهُ عنه ، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « قال مُوسَى : يا رَبِّ عَلِّمْنى شيئًا أَذْكُرُك ، وأدْعُوك به .

قال : يا مُوسَى ، قُلْ : لا إلهَ إلا اللهُ .

---

(١) رواه مسلم ١/٥٣ (٢٣) .

(٢) البخارى (٤٣٤٧) ، ومسلم ١/٥٠ (١٩) .

قال : كلُّ عِبادِك يقولون هذا .

قال : يا موسى لو أنَّ السماواتِ السبعَ ، وعامِرَهُنَّ غيرى ، والأَرَضِينَ السبعَ ، فى كِفَّةٍ ، ولا إلهَ إلا اللهُ فى كِفَّةٍ مالَت بهِنَّ لا إلهَ إلا اللهُ »[(١)] .

فالحديثُ يَدُلُّ على أنَّ لا إلهَ إلا اللهُ هى أفضلُ الذِّكْرِ .

وفى حديثِ عبدِ الله بنِ عمرٍو مرفوعًا : « خيرُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفةَ ، وخيرُ ما قلتُ أنا والنَّبِيُّون مِن قبلى لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ » . رواه أحمدُ والترمذىُّ[(٢)] .

وممَّا يَدُلُّ على ثِقَلِها فى الميزانِ أيضًا ما رواه الترمذىُّ وحسَّنه ، والنسائىُّ ، والحاكمُ وقال : صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ ، عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قال : قال النبىُّ ﷺ : « يُصاحُ برجلٍ من أُمَّتِى على رُءوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ ، فيُنْشَرُ له تسعةٌ وتسعون سِجِلًّا ، كلُّ سِجِلٍّ منها مَدُّ البصرِ ، ثم يقالُ : أتُنْكِرُ من هذا شيئًا ؟

فيقولُ : لا يا ربِّ .

فيُقالُ : ألك عُذْرٌ ، أو حَسَنةٌ ؟

---

(١) رواه النسائى فى عمل اليوم والليلة (٨٣٤، ١١٤١)، وأبو يعلى فى مسنده (١٣٩٣)، والطبرانى فى الدعاء (١٤٨٠)، والبيهقى فى الأسماء والصفات ص١٠٢- ١٠٣، وفى السنن الكبرى ٦/ ٢٠٨، ٢٨٠، وصححه ابن حبان (٦٢١٨)، والحاكم ١/ ٥٢٨، ووافقه الذهبى، وابن حجر فى الفتح ١١/ ٢٠٨.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٠٢.

فيَهَابُ الرجلُ ، فيقولُ : لا .

فيُقالُ : بلى ، إنَّ لك عندَنا حسنةً ، وإنه لا ظُلْمَ عليك ، فيُخْرَجُ له بِطاقةٌ ، فيها أَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ ، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ، فيقولُ : يا ربِّ ، ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجِلاتِ ، فيقالُ : إنك لا تُظْلَمُ ، فتُوضَعُ السِّجِلاتُ فى كِفَّةٍ ، والبطاقةُ فى كِفَّةٍ ، فطاشَتِ السِّجِلاتُ ، وثَقُلَتِ البطاقةُ »[1] .

ولهذه الكلمةِ العظيمةِ فضائلُ كثيرةٌ ، ذكَرَ جُمْلةً منها الحافظُ ابنُ رجبٍ فى رسالتِه المُسَمَّاةِ (كلمةَ الإخلاصِ) ، واسْتَدَلَّ لكلِّ فضيلةٍ .

ومنها : أنها ثمنُ الجنةِ ، ومَن كانت آخرَ كلامِه دخَلَ الجنةَ ، وهى نجاةٌ من النارِ ، وهى تُوجِبُ المَغْفرةَ ، وهى أحسنُ الحسناتِ ، وهى تمْحُو الذنوبَ .

وهى تَخْرِقُ الحُجُبَ حتى تَصِلَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهى الكلمةُ التى يَصْدُقُ اللهُ قائلَها ، وهى أفضلُ ما قاله النَّبِيُّون ، وهى أفضلُ الذكرِ ، وهى أفضلُ الأعمالِ ، وأكثرُها تضعيفًا .

وتَعْدِلُ عِتْقَ الرقابِ ، وتكونُ حِرْزًا من الشيطانِ ، وهى أمانٌ من

---

(١) رواه أحمد ٢/٢١٣ (٦٩٩٤)، والترمذى (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم فى المستدرك ٢/٣٨٢، وابن حبان (٢٢٥)، والبغوى فى شرح السنة (٤٣٢١).

قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى شرح المسند : إسناده صحيح .

وقال الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٧٦) : صحيح .

وَحْشةِ القبرِ ، وهَوْلِ الحَشْرِ ، وهى شِعارُ المؤمنين إذا قاموا من قبورِهم .

ومن فضائلِها : أنها تَفْتَحُ لقائِلِها أبوابَ الجنةِ الثمانيةَ ، يَدْخُلُ مِن أيِّها شاء .

ومِن فضائلِها : أن أهلَها ، وإن دَخَلُوا النارَ بتقصيرِهم فى حقوقِها ، فإنَّهم لا بدَّ أن يَخْرُجوا منها .

هذا عَناوينُ الفضائلِ التى ذكَرَها ابنُ رجبٍ فى رسالتِه ، واسْتَدَلَّ لكلِّ واحدٍ منها[1].

٣- إعرابُها وأركانُها وشروطُها :

إذا كان فهمُ المعنى يَتَوَقَّفُ على معرفةِ إعرابِ الجُمَلِ ؛ فإنَّ العلماءَ رحِمَهم اللهُ قد اهْتَمُّوا بإعرابِ « لا إلهَ إلا اللهُ » ، فقالوا إن : « لا » نافيةٌ للجنسِ ، « وإله » اسمُها مبنىٌّ معَها على الفتحِ ، وخبرُها محذوفٌ تقديرُه : (حقٌّ) ؛ أى : لا إلهَ حقٌّ ، وإلا اللهُ استثناءٌ مِن الخبرِ المرفوعِ .

والإلهُ معناه : المألوهُ بالعبادةِ ، وهو الذى تَأْلَهُه القلوبُ ، وتَقْصِدُه رغبةً إليه فى حصولِ نفعٍ ، أو دفعِ ضَرَرٍ .

وأما أركانُ لا إلهُ إلا اللهُ :

فلها ركنان : الركنُ الأولُ النفىُ ، والركنُ الثانى : الإثباتُ .

والمرادُ بالنفي نفىُ الإلهيةِ عما سوَى اللهِ تعالى مِن سائرِ المخلوقاتِ .

والمرادُ بالإثباتِ إثباتُ الإلهيةِ للهِ سبحانَه ، فهو الإلهُ الحقُّ ، وما سواه

(١) انظر كلمة الإخلاص لابن رجب رحمه اللّهُ ص٥٤- ٦٦.

مِن الآلهةِ التى اتَّخَذَها المشركون ، فكلُّها باطلةٌ ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج : ٦٢] .

قال الإمامُ ابنُ القيم : فدَلالةُ لا إلهَ إلا اللهُ على إثباتِ إلهيتِه أعظمُ من دَلالةِ قولِه : اللهُ إلهٌ ، وهذا لأنَّ قولَ (اللهُ إلهٌ) لا يَنْفِى إلهيةَ ما سِواه ، بخلافِ قولِ لا إلهَ إلا اللهُ ، فإنه يَقْتَضِى حصرَ الألوهيةِ ، ونفيَها عما سواه .

وقد غلِط غلطًا فاحشًا مَن فسَّر الإلهَ بأنه القادرُ على الاختراعِ .

قال الشيخُ سليمانُ بنُ عبدِ اللهِ فى شرحِ كتابِ التوحيدِ : فإن قيل قد تبيَّن معنى الإلهِ والإلهيةِ ، فما الجوابُ عن قولِ مَن قال بأنَّ معنى الإلهِ القادرُ على الاختراعِ ، ونحوُ هذه العبارةِ ؟

قيل : الجوابُ من وجهين :

أحدُهما : أنَّ هذا قولٌ مُبْتَدَعٌ ، لا يُعْرَفُ أحدٌ قاله من العلماءِ ، ولا من أئمةِ اللغةِ ، وكلامُ العلماءِ وأئمةِ اللغةِ هو معنى ما ذكَرْنا كما تقدَّم ، فيَكونُ هذا القولُ باطلًا .

الثانى : على تقديرِ تسليمِه ، فهو تفسيرٌ باللازمِ للإلهِ الحقِّ ؛ فإنَّ اللازمَ أن يكونَ خالقًا ، قادرًا على الاختراعِ ، ومتى لم يَكُنْ كذلك ، فليس بإلهٍ حقٍّ ، وإن سُمِّىَ إلهًا .

وليس مرادُه أنَّ مَن عَرَف أن الإلهَ هو القادرُ على الاختراعِ فقد دَخَل فى الإسلامِ ، وأَتَى بتحقيقِ المَرامِ من مِفْتاحِ دارِ السلامِ ؛ فإنَّ هذا لا يقولُه أحدٌ ؛ لأنه يَسْتَلْزِمُ أن يكونَ كفارُ العربِ مسلمين .

ولو قُدِّر أن بعضَ المتأخِّرين أراد ذلك فهو مُخْطِئٌ يُرَدُّ عليه بالدلائلِ السمعيةِ والعقليةِ[١] . اهـ

وأما شروطُ لا إلهَ إلا اللهُ .

فإنها لا تَنْفَعُ قائلَها إلا بسبعةِ شروطٍ :

الأولُ : العلمُ بمعناه ، نفيًا وإثباتًا .

الثاني : اليقينُ ، وهو كمالُ العلمِ بها ، المنافى للشكِّ والرَّيْبِ .

الثالثُ : الإخلاصُ المنافى للشركِ .

الرابعُ : الصدقُ المانعُ من النفاقِ .

الخامسُ : المَحَبَّةُ لهذه الكلمةِ ، ولِمَا دلَّتْ عليه ، والسرورُ بذلك .

السادسُ : الانقيادُ بأداءِ حقوقِها ، وهى الأعمالُ الواجبةُ ؛ إخلاصًا للهِ ، وطلبًا لمرضاتِه .

السابعُ : القَبولُ المنافى للردِّ[٢] .

وهذه الشروطُ قد اسْتَنْبَطَها العلماءُ من نصوصِ الكتابِ والسنةِ التى جاءت بخصوصِ هذه الكلمةِ العظيمةِ وبيانِ حقوقِها وقُيودِها .

٤- معنى هذه الكلمةِ ومُقْتَضَاها :

معنى لا إلهَ إلا اللهُ : لا مَعْبُودَ بحقٍّ إلا إلهٌ واحدٌ ، وهو اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، فتضَمَّنَت هذه الكلمةُ العظيمةُ أنَّ ما سِوى اللهِ من سائرِ

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٨٢.

(٢) انظر معارج القبول ٢/ ٤١٨، ٤١٩، وفتح المجيد ١/ ٨٧، ٨٨.

المعبوداتِ ليس بإلهٍ حقٍّ ، وأنه باطلٌ .

ولهذا كثيرًا ما يَرِدُ الأمرُ بعبادةِ اللهِ مقرونًا بنفيِ عبادةِ ما سواه ؛ لأنَّ عبادةَ اللهِ لا تَصِحُّ مع إشراكِ غيرِه معَه ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء: ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقال ﷺ : « مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ ، وكَفَر بما يُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ حَرُمَ مالُه ودمُه »[1] الحديثَ .

وكان كلُّ رسولٍ يقولُ لقومِه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩] إلى غيرِ ذلك من الأدلةِ .

قال الإمامُ ابنُ رجبٍ رحِمه اللهُ : وتحقيقُ هذا المعنى وإيضاحُه أن قولَ العبدِ : لا إلهَ إلا اللهُ يَقْتَضِى أنْ لا إلهَ له غيرُ اللهِ .

والإلهُ هو الذى يُطاعُ فلا يُعْصَى ؛ هَيْبةً له وإجلالًا ، ومحبةً وخوفًا ورجاءً وتوكُّلًا عليه ، وسؤالًا منه ، ودعاءً له ، ولا يَصْلُحُ ذلك كلُّه إلا للهِ عزَّ وجلَّ .

ولهذا لما قال النبيُّ ﷺ لكفارِ قريشٍ : « قولوا لا إلهَ إلا اللهُ » . قالوا :

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٠٥.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

ففهِمُوا من هذه الكلمةِ أنها تُبْطِلُ عبادةَ الأصنامِ كلِّها، وتَحْصُرُ العبادةَ للهِ وحدَه، وهم لا يُريدون ذلك، فتبيَّن بهذا المعنى أن معنى لا إلهَ إلا اللهُ، ومُقْتَضاها إفرادُ اللهِ بالعبادةِ، وتَرْكُ عبادةِ ما سِواه.

فإذا قال العبدُ: لا إلهَ إلا اللهُ. فقد أعْلَنَ وجوبَ إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وبُطْلانَ عبادةِ ما سِواه من الأصنامِ والقبورِ والأولياءِ والصالحين.

وبهذا يَبْطُلُ ما يَعْتَقِدُه عُبَّادُ القبورِ اليومَ وأشباهُهم مِن أنَّ معنى لا إلهَ إلا اللهُ هو الإقرارُ بأنَّ اللهَ موجودٌ، أو أنه هو الخالقُ القادرُ على الاختراعِ، وأشباهُ ذلك، أو أن معناها لا حاكِمِيَّةَ إلا للهِ.

ويَظُنُّون أنَّ مَن اعْتَقَد ذلك، وفسَّر به لا إلهَ إلا اللهُ فقد حقَّق التوحيدَ المُطْلَقَ، ولو فعَلَ ما فَعَلَ مِن عبادةِ غيرِ اللهِ، والاعتقادِ بالأمواتِ، والتقرُّبِ إليهم بالذبائحِ والنُّذُورِ، والطوافِ بقبورِهم، والتبرُّكِ بتُرْبتِهم.

وما شعَرَ هؤلاء أن كفارَ العربِ الأوَّلِين يُشارِكونهم فى هذا الاعتقادِ، ويَعْرِفون أنَّ اللهَ هو الخالقُ القادرُ على الاختراعِ، ويُقِرُّون بذلك، وأنَّهم ما عبَدَوا غيرَه إلا لزعمِهم أنهم يُقَرِّبونهم إلى اللهِ زُلْفَى، لا أنهم يَخْلُقون، ويَرْزُقون.

ولو كان معنى لا إلهَ إلا اللهُ ما زَعَمَه هؤلاء لم يَكُنْ بينَ الرسولِ ﷺ، وبينَ المشركين نِزاعٌ، بل كانوا يُبادِرُون إلى إجابةِ الرسولِ ﷺ إذا قال لهم بزعمِ هؤلاء: أَقِرُّوا بأنَّ اللهَ هو القادرُ على الاختراعِ.

لكنَّ القومَ - وهم أهلُ اللسانِ العربيِّ - فهِمُوا أنهم إذا قالوا: (لا إلهَ

إلا اللهُ) . فقد أقرُّوا ببُطْلانِ عبادةِ الأصنامِ ، وأنَّ هذه الكلمةَ ليست مجردَ لفظٍ ، لا مَعْنَى له ، ولهذا نفَرُوا منها ، وقالوا : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] .

كما قال اللهُ عنهم : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦] .

فعرَفُوا أنَّ لا إلهَ إلا اللهُ تَقْتَضِي تركَ عبادةِ ما سِوَى اللهِ ، وإفرادَ اللهِ بالعبادةِ ، وأنَّهم لو قالوها ، واستَمَرُّوا على عبادةِ الأصنامِ لَتَناقَضُوا مع أنفسِهم .

وعبادُ القبورِ اليومَ لا يَأْنَفون من هذا التناقُضِ الشنيعِ ، فهم يقولون : لا إلهَ إلا اللهُ ، ثم يَنْقُضونها بعبادةِ الأمواتِ ، والتقرُّبِ إلى الأضرحةِ بأنواعٍ مِن العباداتِ .

فتبًّا لمن كان أبو جهلٍ وأبو لهبٍ أعلمَ منه بمعنى لا إلهَ إلا اللهُ .

والحاصلُ أنَّ مَن قال هذه الكلمةَ عارفًا لمعناها ، عاملًا بمقتضاها ، ظاهرًا وباطنًا ، مِن نَفْيِ الشركِ ، وإثباتِ العبادةِ للهِ مع الاعتقادِ الجازمِ لما تضَمَّنَتْهُ ، والعملِ به فهو المسلمُ حقًّا .

ومَن قالها وعمِل بها بمُقْتَضاها ظاهرًا ، مِن غيرِ اعتقادٍ لما دلَّتْ عليه فهو المنافقُ .

ومَن قالها بلسانِه ، وعمِلَ بخلافِها من الشركِ المنافى لها ، فهو الكافرُ ، ولو قالها آلافَ المراتِ ؛ لأنَّ عملَه يُبْطِلُ نطقَه بها .

فلا بدَّ من النطقِ لهذه الكلمةِ من معرفةِ معناها ؛ لأن ذلك وسيلةٌ للعملِ بمُقْتَضاها .

قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] .

والعملُ بمُقْتَضاها – وهو تركُ عبادةِ ما سِوَى اللهِ ، وعبادةُ اللهِ وحدَه – هو الغايةُ من هذه الكلمةِ .

٥– متى يَنْفَعُ الإنسانَ قولُ : لا إلهَ إلا اللهُ ؟

سبَق أن قلْنا : إنَّ قولَ لا إلهَ إلا اللهُ لا بدَّ أن يكونَ مَصْحوبًا بمعرفةِ معناها والعملِ بمقتضاها ، ولكن لمَّا كان هناك نصوصٌ قد يُتَوَهَّمُ منها أن مجردَ التلفُّظِ بها يَكْفِى ، وقد تعَلَّق بهذا الوهمِ بعضُ الناسِ ، فاقْتَضى الأمرُ إيضاحَ ذلك لإزالةِ هذا الوهمِ عمَّن يُرِيدُ الحقَّ .

قال الشيخُ سليمانُ بنُ عبدِ اللهِ رحِمه اللهُ على حديثِ عِتْبانَ ، الذى فيه : « فإنَّ اللهَ حَرَّم على النارِ مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ ، يَبْتَغِى بذلك وجهَ اللهِ »[١] .

قال : اعْلَمْ أنه قد وَرَدَت أحاديثُ ، ظاهرُها أنه مَن أَتَى بالشهادتَيْنِ حَرُم على النارِ ، كهذا الحديثِ ، وحديثِ أنسٍ قال : كان النبيُّ ﷺ ، ومعاذٌ رَدِيفُه على الرَّحْلِ ، فقال : « يا معاذُ » .

قال : لبَّيْكَ رسولَ اللهِ ، وسَعْدَيْك .

---

(١) البخارى (٤٢٥) ، ومسلم ٤٥٦/١ (٣٣) ، الحديث رقم (٢٦٣) من كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

قال : « ما مِن عبدٍ يَشْهَدُ أنَ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ، إلا حرَّمَه اللهُ على النارِ »[١] .

ولمسلمٍ عن عُبادةَ مرفوعًا : « ومَن شَهِد أن لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه حرَّمَه اللهُ على النارِ »[٢] .

ووَرَدَت أحاديثُ فيها أنَّ مَن أَتَى بالشهادتَيْن دَخَل الجنةَ ، وليس فيها أنْ يُحَرَّمَ على النارِ ، منها حديثُ عبادةَ الذى تقَدَّم قريبًا .

وحديثُ أبى هريرةَ أنهم كانوا مع النبىِّ ﷺ فى غزوةِ تَبُوكَ ... الحديثَ .

وفيه : فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « أَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنى رسولُ اللهِ ، لا يَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ ، فيُحْجَبَ عن الجنةِ » رواه مسلمٌ[٣] .

قال : وأحسنُ ما قيل فى معناه ما قاله شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وغيرُه : إنَّ هذه الأحاديثَ إنما هى فيمَن قالها ، ومات عليها ، كما جاءت مُقَيَّدةً ، وقالها خالصًا مِن قلبِه ، مُسْتَيْقِنًا بها قلبُه ، غيرَ شاكٍّ فيها ، بصدقٍ ويقينٍ ؛ فإنَّ حقيقةَ التوحيدِ انْجِذابُ الرُّوحِ إلى اللهِ جُمْلةً .

فمَن شَهِد أنْ لا إلهَ إلا اللهُ خالصًا مِن قلبِه ، دَخَل الجنةَ ؛ لأنَّ

---

(١) البخارى (١٢٨) ، ومسلم ١/٦١ (٣٢) .

(٢) رواه أحمد ٥/٣١٨ (٢٢٦١٠) ، ومسلم ١/٥٧ (٢٩) ، والترمذى (٢٦٣٨) .

(٣) رواه أحمد ٣/١١ (١١٠٢٢) ، ومسلم ١/٥٦ (٢٧) ، الحديث رقم (٤٥) من كتاب الإيمان .

الإخلاصَ هو انْجِذابُ القلبِ إلى اللهِ تعالى بأن يَتُوبَ من الذنوبِ تَوْبةً نَصُوحًا .

فإذا مات على تلك الحالِ نال ذلك ؛ فإنه قد تَوَاتَرَتِ الأحاديثُ بأنه يَخْرُجُ من النارِ مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ ، وكان فى قلبِه من الخيرِ ما يَزِنُ شعيرةً ، وما يَزِنُ خَرْدَلةً ، وما يَزِنُ ذرةً[١] .

وتَواتَرَت بأن كثيرًا ممَّن يقولُ لا إلهَ إلا اللهُ يَدْخُلُ النارَ ، ثم يَخْرُجُ منها[٢] .

وتواتَرَتْ بأنَّ اللهَ حرَّم النارَ أن تَأْكُلَ أَثَرَ السجودِ مِن ابنِ آدمَ[٣] ،

---

(١) وممن نص على التواتر أيضًا ابن حجر فى الفتح ١١/ ٤٢٦، وابن أبى العز فى شرح الطحاوية ص ٢٣٣، والشيخ ابن عثيمين فى شرح العقيدة الواسطية ٢/ ١٧٧.
ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك : ما رواه البخارى (٧٤٣٩) ، ومسلم ١/ ١٧٠ (١٨٣) ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، وفيه : « فيقول تعالى : اذهبوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثال دينارٍ من إيمان فأَخرِجوه ، ويُحَرِّم الله صُوَرَهم على النار ، فيأتونهم ، وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه ، فيُخْرِجون مَن عرفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيُخْرِجون مَن عَرَفوا ، ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمَن وجدتم فى قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان فأخرجوه . . .» الحديث .

(٢) ومن ذلك ما رواه البخارى (٤٤، ٧٤١٠، ٧٥١٠) ، ومسلم ١/ ١٨٢ (١٩٣) ، الحديث رقم (٣٢٥) من كتاب الإيمان ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله » .

(٣) ومن ذلك ما رواه البخارى (٨٠٦، ٦٥٧٣، ٧٤٣٧) ، ومسلم ١/ ١٦٣ (١٨٢) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، وفيه : « تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود ، حَرَّمَ الله على النار أن تأكل أثر السجود » .

فهؤلاء كانوا يُصَلُّون ويَسْجُدون للهِ .

وتواتَرَت بأنه يُحَرِّمُ على النارِ مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ ، ومَن يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ[1] .

لكن جاءَتْ مُقَيَّدةً بالقُيودِ الثِّقالِ ، وأكثرُ مَن يَقُولُها لا يَعْرِفُ الإخلاصَ ، ولا اليقينَ ، ومَن لا يَعْرِفْ ذلك يُخْشَ عليه أن يُفْتَنَ عنها عندَ الموتِ ، فيُحالَ بينَه وبينَها .

وأكثرُ مَن يقولُها يقولُها تقليدًا ، وعادةً ، لم يُخالِطِ الإيمانُ بَشاشةَ قلبِه ، وغالبُ مَن يُفْتَنُ عندَ الموتِ ، وفى القبورِ أمثالُ هؤلاء ، كما فى الحديثِ : « سمِعْتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه »[2] .

وغالبُ أعمالِ هؤلاءِ إنما هو تقليدٌ واقتداءٌ بأمثالِهم ، وهم أقربُ الناسِ مِن قولِه تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

وحينَئذٍ فلا مُنافاةَ بينَ الأحاديثِ ؛ فإنَّه إذا قالها بإخلاصٍ ويقينٍ تامٍّ لم يَكُنْ فى هذه الحالِ مُصِرًّا على ذنبٍ أصلًا ؛ فإنَّ كمالَ إخلاصِه ويقينِه يُوجِبُ أن يكونَ اللهُ أحبَّ إليه من كلِّ شىءٍ .

---

(١) ومن ذلك ما رواه البخارى (١٢٨) ، ومسلم ١/٦١ (٣٢) من حديث معاذ ، وفيه : أن النبى ﷺ قال : « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، إلا حرمه اللَّه على النار » .

(٢) رواه الترمذى (١٠٧١) ، قال الشيخ الألبانى رحمه اللَّهُ فى صحيح الجامع (٧٢٤) : حسن .

فإذًا لا يَبْقَى فى قلبِه إرادةٌ لِمَا حَرَّم اللهُ ، ولا كَراهِيَةٌ لما أَمَرَ اللهُ ، وهذا هو الذى يَحْرُمُ على النارِ ، وإن كانت له ذنوبٌ قبلَ ذلك ؛ فإنَّ هذا الإيمانَ ، وهذه التوبةَ ، وهذا الإخلاصَ ، وهذه المَحَبَّةَ ، وهذا اليقينَ لا تَتْرُكُ له ذنبًا إلا يُمْحَى ، كما يُمْحَى الليلُ بالنهارِ . انتهى كلامُه رحِمه اللهُ .

وقال الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللهُ فى كشفِ الشُّبُهاتِ :

ولهم شُبْهةٌ أخرى يقولون : إن النبيَّ أنْكَر على أسامةَ قتلَ مَن قال : لا إلهَ إلا اللهُ ، وقال : « أقتَلْتَه بعدَ ما قال لا إلهَ إلا اللهُ »[١] . وأحاديثُ أخرى فى الكفِّ عمَّن قالها .

ومرادُ هؤلاء الجَهَلةِ أنَّ مَن قالها لا يَكْفُرُ ، ولا يُقْتَلُ ، ولو فعَلَ ما فعَلَ .

فيقالُ لهؤلاء الجُهَّالِ : معلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قاتَلَ اليهودَ وسبَاهم[٢] ، وهم يقولون : لا إلهَ إلا اللهُ ، وأصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ قاتلوا بنى حَنِيفةَ[٣] ، وهم يَشْهَدون أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأن محمدًا رسولُ

---

(١) رواه البخارى (٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ، ومسلم ١/ ٩٦ (٩٦) .

(٢) ومن ذلك غزوه ﷺ لخيبر ، والذى رواه البخارى (٤١٩٥- ٤٢٠١، ٤٢٠٥) ، وغزوه ﷺ لبنى قُرَيظة ، رواه البخارى (٤١١٧- ٤١١٩) .

وكذلك غزوه ﷺ لبنى المُصْطَلِق ، رواه البخارى (٢٥٤١، ٤١٣٨) ، ومسلم ٣/ ١٣٥٦ (١٧٣٠) .

وأيضًا غزوه ﷺ لبنى النَّضِير ، رواه البخارى (٤٠٢٨، ٤٠٣٠، ٤٠٣٢) ، ومسلم ٣/ ١٣٦٥ (١٧٤٦) .

(٣) روى ذلك أحمد ٣/ ٥٠١ (١٦٠٢٢) ، والبخارى (٤٠٧٢) ، وانظر تاريخ الطبرى =

اللهِ ، ويُصَلُّون ، ويَدَّعُون الإسلامَ .

وكذلك الذين حرَّقَهم عليُّ بنُ أبى طالبٍ[(١)] .

وهؤلاء الجَهَلةُ مُقِرُّون أنَّ مَن أنْكَر البعثَ كفَرَ وقُتِل ، ولو قال لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ مَن جَحَد شيئًا من أركانِ الإسلامِ كَفَر ، وقُتِل ، ولو قالها .

فكيف لا تَنْفَعُه إذا جحَدَ شيئًا من الفروعِ ، وتَنْفَعَه إذا جَحَد التوحيدَ الذى هو أصلُ دينِ الرسلِ ، ورأسُه ، ولكنَّ أعداءَ اللهِ ما فهِمُوا معنى الأحاديثِ .

وقال رحِمه اللهُ : فأمَّا حديثُ أسامةَ فإنه قَتَل رجلًا ادَّعَى الإسلامَ بسببِ أنه ظَنَّ أنَّه ما ادَّعاه إلا خوفًا على دمِه ومالِه ، والرجلُ إذا أظهَر الإسلامَ ، وَجَب الكفُّ عنه حتى يَتَبَيَّنَ منه ما يُخالِفُ ذلك .

وأنْزَل اللهُ فى ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء : ٩٤] ؛ أى : (فَتَثَبَّتُوا) ، فالآيةُ تَدُلُّ على أنه يَجِبُ الكفُّ عنه ، والتثبُّتُ ، فإن تبيَّن بعدَ ذلك ما يُخالِفُ الإسلامَ قُتِل ؛ لقولِه : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ .

ولو كان لا يُقْتَلُ إذا قالها لم يَكُنْ للتثبُّتِ معنًى .

= ٢/٢٧٥- ٢٨٤، وفتوح البلدان ١/ ٩٨، والبداية والنهاية ٤/ ١٩، ٦/ ٣٢٣.

(١) البخارى (٣٠١٧، ٦٩٢٢) ، وأبو داود (٢٥٣٥) ، والنسائى (٤٠٦٠) ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/ ٦٧، ٢٠٢، ٨/ ١٩٥، وابن حبان (٤٤٧٦، ٥٦٠٦) ، والحميدى (٥٣٣) ، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٥٣٨، وانظر طبقات المحدثين بأصبهان ٢/ ٣٤٣، والبدء والتاريخ ٥/ ١٢٥.

وكذلك الحديثُ الآخرُ وأمثالُه معناه ما ذكَرْناه مِن أنَّ مَن أظْهَر الإسلامَ والتوحيدَ وجَبَ الكفُّ عنه إلا إن تبيَّن منه ما يُناقِضُ ذلك .

والدليلُ على هذا : أن الرسولَ ﷺ الذى قال : « أقتَلْتَه بعدَ ما قال لا إلهَ إلا اللهُ »[١] . وقال : « أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يَقُولوا لا إلهَ إلا اللهُ »[٢] هو الذى قال فى الخَوارِجِ : « أيْنَما لقِيتُموهم فاقتُلُوهم »[٣] ، « لئن أدْرَكْتُهم لأَقْتُلَنَّهم قتلَ عادٍ »[٤] .

مع كونِهم من أكثرِ الناسِ عبادةً ، وتهليلًا ، وتسبيحًا ، حتى إنَّ الصحابةَ يَحْقِرون أنفسَهم عندَهم ، وتعلَّموا العلمَ من الصحابةِ ، فلم تَنْفَعْهم لا إلهَ إلا اللهُ ، ولا كثرةُ العبادةِ ، ولا ادعاءُ الإسلامِ لمَّا ظهَرَ منهم مخالفةُ الشريعةِ .

وكذلك ما ذكَرْناه مِن قتالِ اليهودِ[٥] ، وقتالِ الصحابةِ بنى حَنِيفةَ[٦] . اهـ[٧]

وقال الحافظُ ابنُ رجبٍ فى رسالتِه الـمُسَمَّاةِ (كلمةَ الإخلاصِ)[٨]

(١) تقدم تخريجه ص ١١٨.

(٢) البخارى (١٣٩٩، ٢٩٤٦، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤) ، ومسلم ١/٥٢، ٥٣ (٢١) ، الحديث رقم ٣٣، ٣٥ من كتاب الإيمان .

(٣) البخارى (٦٩٣٠) ، ومسلم ٢/٧٤٦ (١٠٦٦) .

(٤) البخارى (٣٣٤٤، ٧٤٣٢) ، ومسلم ٢/٧٤١ (١٠٦٤) .

(٥) تقدم تخريجه ص ١١٨.

(٦) تقدم تخريجه ص ١١٨.

(٧) انظر شرح كشف الشبهات للشيخين المِفْضَالَيْن : محمد بن إبراهيم ، ومحمد بن صالح العثيمين رحمهما الله بتحقيقنا ص٢٨١ ، ٢٩٤، يسَّر اللّه طبعه .

(٨) كلمة الإخلاص ص١٣ ، ١٤.

على قولِه ﷺ : « أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأن محمدًا رسولُ اللهِ »[١] قال : ففهِم عمرُ وجماعةٌ من الصحابةِ أنَّ مَن أَتَى بالشهادتين امْتَنَع من عقوبةِ الدنيا بمُجَرَّدِ ذلك ، فتوَقَّفوا فى قتالِ مانِعِى الزكاةِ .

وفهِم الصديقُ أنه لا يَمْتَنِعُ قتالُه إلا بأداءِ حقوقِها ؛ لقولِه ﷺ : « فإذا فعَلُوا ذلك مَنَعُوا منى دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها ، وحسابُهم على اللهِ »[١] .

وقال : الزكاةُ حقُّ المالِ[٢] . وهذا الذى فهِمَه الصديقُ قد رواه عن النبىِّ ﷺ صريحًا غيرُ واحدٍ من الصحابةِ ، منهم ابنُ عمرَ وأنسٌ وغيرُهما .

وأنه قال : « أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ويُقِيموا الصلاةَ ويُؤْتُوا الزكاةَ »[١] .

وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] .

كما دلَّ قولُه تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] على أن الأُخُوَّةَ فى الدينِ لا تَثْبُتُ إلا بأداءِ الفرائضِ مع التوحيدِ ؛ فإنَّ التوبةَ من الشركِ لا تَحْصُلُ إلا بالتوحيدِ .

---

(١) البخارى (٢٥) ، ومسلم ١/٥٣ (٢٢) .
(٢) البخارى (١٤٥٦، ٦٩٢٥، ٧٢٨٥) ، ومسلم ١/ ٥١، ٥٢ (٢٠) .

فلمَّا قرَّر أبو بكرٍ هذا للصحابةِ رَجَعُوا إلى قولِه ، ورأَوْه صوابًا ، فإذا عُلِم أن عقوبةَ الدنيا لا تَرْتَفِعُ عمَّن أدَّى الشهادتين مطلقًا ، بل يُعاقَبُ بإخلالِه بحقٍّ من حقوقِ الإسلامِ ، فكذلك عقوبَةُ الآخِرةِ .

وقال أيضًا[1] : وقالت طائفةٌ من العلماءِ : المرادُ من هذه الأحاديثِ أن التلَفُّظَ بلا إلهَ إلا اللهُ سببٌ لدخولِ الجنةِ ، والنجاةِ من النارِ ، ومُقْتَضٍ لذلك .

ولكنَّ المُقْتَضِيَ لا يَعْمَلُ عملَه إلا باستجماعِ شروطِه وانتفاءِ مَوانعِه ، فقد يَتَخَلَّفُ عنه مُقْتَضاه لفواتِ شرطٍ مِن شروطِه ، أو لوجودِ مانعٍ . وهذا قولُ الحسنِ ووَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ ، وهو الأظهرُ .

ثم ذكَر عن الحسنِ البَصْريِّ أنه قال للفَرَزْدقِ ، وهو يَدْفِنُ امرأتَه : ما أعْدَدْتَ لهذا اليومِ ؟

قال : شهادةَ أن لا إلهَ إلا اللهُ منذُ سبعين سنةً .

قال الحسنُ : نِعْمَ العُدَّةُ ، لكن لـ « لا إلهَ إلا اللهُ » شروطٌ فإياك وقَذْفَ المُحْصَناتِ .

وقيلِ للحسنِ : إن أُناسًا يقولون : مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ دخَل الجنةَ .

فقال : مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ فأدَّى حقَّها ، وفرْضَها دخَلَ الجنةَ[2] .

---

(١) كلمة الإخلاص ص٩ - ١١.

(٢) انظر معارج القبول ٢/ ٤٢٩.

وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ لمَن سأَلَه : أليس لا إلهَ إلا اللهُ مِفْتاحَ الجنةِ ؟

قال : بلى ، ولكن ما من مِفْتاحٍ إلا له أسنانٌ ، فإن جئتَ بمِفْتاحٍ له أسنانٌ فُتِح لك ، وإلا لم يُفْتَحْ لك[1] .

وأَظُنُّ أنَّ فى هذا القَدْرِ الذى نقَلْتُه من كلامِ أهلِ العلمِ كفايةً فى ردِّ هذه الشُّبْهةِ التى تعَلَّق بها مَن ظَنَّ أنَّ مَن قال لا إلهَ إلا اللهُ لا يَكْفُرُ ، ولو فعَلَ ما فعَلَ مِن أنواعِ الشركِ الأكبرِ التى تُمارَسُ اليومَ عندَ الأضْرِحةِ وقُبورِ الصالحين ممَّا يُناقِضُ كلمةَ لا إلهَ إلا اللهُ تمامَ المُناقَضةِ ، ويُضادُّها تمامَ المُضادَّةِ .

وهذه طريقةُ أهلِ الزَّيْغِ الذين يَأْخُذُون من النصوصِ ما يَظُنُّون أنه حُجَّةٌ لهم من النصوصِ المُجْمَلةِ ، وَيَتْرُكون ما تُبَيِّنُه وتُوَضِّحُه النصوصُ المُفَصَّلةُ ، كحالِ الذين يُؤْمِنون ببعضِ الكتابِ ، ويَكْفُرون ببعضٍ .

وقد قال اللهُ فى هذا النوعِ من الناسِ : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٧: ٩] .

---

(١) رواه البخارى تعليقًا فى كتاب الجنائز ، باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، الفتح ٣/ ١٠٩، وانظر معارج القبول ٢/ ٤٢٩.

اللهمَّ أَرِنا الحقَّ حقًّا، وارْزُقْنا اتباعَه، وأَرِنا الباطلَ باطلًا وارْزُقْنا اجتنابَه.

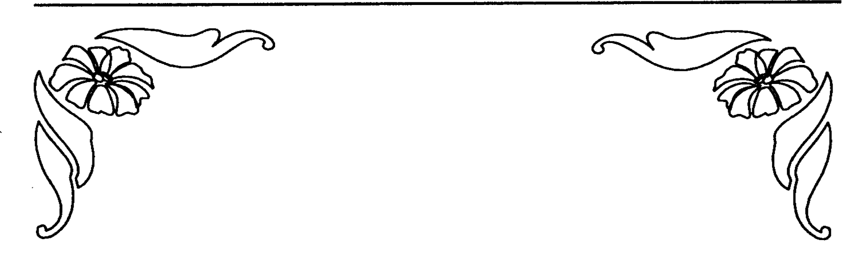
وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وآلِه وصَحْبِه وأجْمَعِين.

والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ.

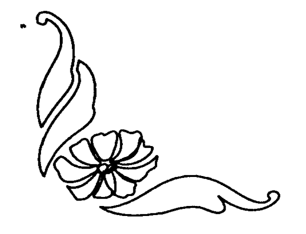
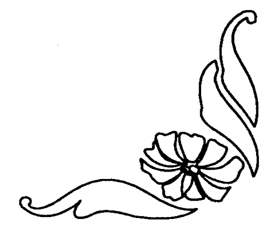
* * *

الموضوع الصفحة

* * *



عقيدة التوحيد



بِسْمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ

المُقدِّمة

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمِينَ ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّه الصادقِ الأمينِ ، نبيِّنا محمدٍ ، وعلى آلِه وصَحْبِه أجمعين ، **وبعـــدُ** :

فهذا كتابٌ في علمِ التوحيدِ ، وقد راعَيْتُ فيه الاختصارَ مع سهولةِ العبارةِ ، وقد اقْتَبَسْتُه من مصادرَ كثيرةٍ ، مِن كتبِ أئمتِنا الأعلامِ ، ولا سيَّما كتبُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ ، وكتبُ العَلامةِ ابنِ القَيِّمِ ، وكتبُ شيخِ الإسلامِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ وتلاميذِه من أئمةِ هذه الدعوةِ المباركةِ .

ومما لا شكَّ فيه أن علمَ العقيدةِ الإسلاميةِ هو العلمُ الأساسيُّ الذى تَجْدُرُ العنايةُ به تعلُّمًا وتعليمًا وعملاً بمُوجَبِه ؛ لتكونَ الأعمالُ صحيحةً مقبولةً عندَ اللهِ ، نافعةً للعاملين .

خصوصًا وأننا فى زمانٍ ، كثُرَت فيه التياراتُ المنحرفةُ ؛ تيارُ الإلحادِ ، وتيارُ التصوُّفِ والرَّهْبَنةِ ، وتيارُ القُبُوريةِ الوَثَنيةِ ، وتيارُ البِدَعِ المخالفةِ للهَدْيِ النَّبويِّ .

وكلُّها تَيَّاراتٌ خَطيرةٌ ما لم يَكُنِ المسلمُ مُسَلَّحًا بسلاحِ العقيدةِ الصحيحةِ المُرْتَكِزةِ على الكتابِ والسنةِ ، وما عليه سَلَفُ الأُمةِ ، فإنه حَرِىٌّ أن تَجْرُفَه تلك التياراتُ المُضِلَّةُ .

وهذا مما يَسْتَدْعِي العنايةَ التامةَ بتعليمِ العقيدةِ الصحيحةِ لأبناءِ المسلمين من مصادرِها الأصليةِ .

وصلَّى اللَّهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وآلِه وصَحْبِه .

* * *

البابُ الأولُ
مَدْخَلٌ لدراسةِ العقيدةِ

ويَتَكَوَّنُ من الفُصولِ التاليةِ :

الفصلُ الأولُ : معنى العقيدةِ ، وبيانُ أهميتِها ؛ باعتبارِها أساسًا يَقُومُ عليه بناءُ الدِّينِ .

الفصلُ الثانى : مصادرُ العقيدةِ الصحيحةِ ، ومَنْهَجُ السَّلَفِ فى تَلَقِّيها .

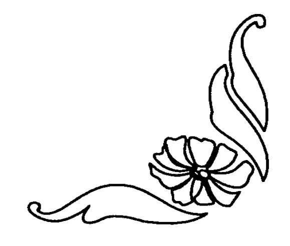
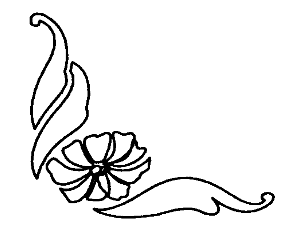
الفصلُ الثالثُ : الانحرافُ عن العقيدةِ ، وسُبُلُ التَّوَقِّى منه .

* * *






الفصلُ الأولُ
فى بيانِ العقيدةِ،
وبيانِ أهميتِها باعتبارِها
أساسًا يقومُ عليه بناءُ الدينِ



العقيدةُ لغةً : مأخوذةٌ مِن العَقْدِ ، وهو رَبْطُ الشيءِ ، واعْتَقَدْتُ كذا : عقَدْتُ عليه القلبَ والضميرَ .

والعقيدةُ : ما يَدِينُ به الإنسانُ ، يقالُ : له عقيدةٌ حسنةٌ ؛ أى : سالمةٌ من الشكِّ . والعقيدةُ عملٌ قلبيٌّ ، وهو إيمانُ القلبِ بالشيءِ ، وتصديقُه به .

والعقيدةُ شرعًا : هى الإيمانُ باللهِ وملائكتِه ، وكُتُبِه ، ورسلِه ، واليومِ الآخِرِ ، والإيمانُ بالقَدَرِ ؛ خيرِه وشرِّه[1] ، وتُسَمَّى هذه أركانَ الإيمانِ .

والشريعةُ تَنْقَسِمُ إلى قسمين : اعتقادياتٌ وعملياتٌ :

فالاعتقادياتُ : هى التى لا تَتَعَلَّقُ بكيفيةِ العملِ ، مثلُ اعتقادِ رُبوبيةِ اللهِ ، ووُجوبِ عبادتِه ، واعتقادِ بَقيةِ أركانِ الإيمانِ المذكورةِ ، وتُسَمَّى أَصْليةً .

والعملياتُ : هى ما يَتَعَلَّقُ بكيفيةِ العملِ ، مثلُ الصلاةِ والزكاةِ والصومِ وسائرِ الأحكامِ العَمَليةِ ، وتُسَمَّى فرعيةً ؛ لأنها تُبْنَى على تلك صحةً وفسادًا[2] .

فالعقيدةُ الصَّحيحةُ هى الأساسُ الذى يَقومُ عليه الدينُ ، وتَصِحُّ معه الأعمالُ ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

---

(١) دل على ذلك ما رواه البخارى (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، ومسلم ١/ ٣٩ ، ٤٠ (٩ ، ١٠) عن أبى هريرة ، وفيه : أن جبريل سأل النبى ﷺ عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ؛ خيره وشره » .

(٢) شرح العقيدة السفارينية ١/ ٤ .

صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

فدلَّتْ هذه الآياتُ الكريمةُ، وما جاء بمعناها - وهو كثيرٌ - على أنَّ الأعمالَ لا تُقْبَلُ إلا إذا كانَتْ خالصةً من الشركِ، ومِن ثَمَّ كان اهتمامُ الرسلِ - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم - بإصلاحِ العقيدةِ أولاً، فأولَ ما يَدْعُون أقوامَهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وكلُّ رسولٍ يقولُ أولَ ما يُخاطِبُ قومَه:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، قالها نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وشُعَيْبٌ، وسائرُ الأنبياءِ لقومِهم.

وقد بَقِي النبيُّ ﷺ فى مكةَ بعدَ البِعْثةِ ثلاثةَ عشرَ عامًا يَدْعُو الناسَ إلى التوحيدِ[1]، وإصلاحِ العقيدةِ؛ لأنها الأساسُ الذى يَقُومُ عليه بناءُ الدينِ.

---

(١) روى البخارى (٣٩٠٣)، ومسلم ٤/١٨٢٦ (٢٣٥١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة، وتوفى وهو ابن ثلاث وستين.

وقد احْتَذَى الدُّعاةُ والمُصْلِحون فى كلِّ زمانٍ حَذْوَ الأنبياءِ والمُرْسَلِين ، فكانوا يَبْدَءُون بالدعوةِ إلى التوحيدِ ، وإصلاحِ العقيدةِ ، ثم يَتَّجِهُون بعدَ ذلك إلى الأمرِ ببقيةِ أوامرِ الدينِ .

* * *

الفصلُ الثاني
في بيانِ مصادرِ العَقيدةِ
ومَنْهَجِ السَّلَفِ في تقديمِها

العقيدةُ توقيفيةٌ ، فلا تَثْبُتُ إلا بدليلٍ من الشارعِ ، ولا مَسْرَحَ فيها للرأيِ والاجْتِهادِ ، ومِن ثَمَّ فإنَّ مصادرَها مَقْصورةٌ على ما جاء فى الكتابِ والسنةِ ؛ لأنه لا أحدَ أعْلَمُ باللهِ ، وما يَجِبُ له ، وما يُنَزَّهُ عنه مِن اللهِ .

ولا أحدَ بعدَ اللهِ أعلمُ باللهِ من رسولِ اللهِ ﷺ ، ولهذا كان مَنْهَجُ السلفِ الصالحِ ، ومَن تَبِعَهم فى تلقِّى العقيدةِ مقصورًا على الكتابِ والسنةِ .

فما دَّل عليه الكتابُ والسنةُ فى حقِّ اللهِ تعالى آمَنوا به ، واعْتَقَدُوه ، وعمِلوا به ، وما لم يَدُلَّ عليه كتابُ اللهِ ، ولا سنةُ رسولِه نَفَوْهُ عن اللهِ تعالى ورَفَضُوه ؛ ولهذا لم يَحْصُلْ بينَهم اختلافٌ فى الاعتقادِ ، بل كانت عقيدتُهم واحدةً ، وكانت جماعتُهم واحدةً ؛ لأنَّ اللهَ تكَفَّل لمن تَمَسَّك بكتابِه وسنةِ رسولِه باجتماعِ الكلمةِ ، والصوابِ فى المُعْتَقَدِ واتحادِ المنهجِ ، قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] .

ولذلك سُمُّوا بالفرقةِ الناجيـةِ ؛ لأنَّ النبىَّ ﷺ شهِد لهم بالنَّجاةِ حينَ أَخْبَر بافتراقِ الأمةِ إلى ثلاثٍ وسبعين فرقةً ، كلُّها فى النارِ إلا واحدةً[١] ، ولما سُئِل عن هذه الواحدةِ قال : « هى مَن كان على مثلِ ما أنا عليه اليومَ وأصْحابى »[٢] .

وقد وقَعَ مِصْداقُ ما أخْبَر به ﷺ ، فعندَما بَنَى بعضُ الناسِ عقيدتَهم على غيرِ الكتابِ والسنةِ ، مِن علمِ الكلامِ ، وقواعدِ المَنْطِقِ المَوْرُوثَيْنِ عن فلاسفةِ اليُونانِ ، حصَلَ الانحرافُ والتفرُّقُ فى الاعتقادِ مما نَتَج عنه اختلافُ الكلمةِ ، وتفرُّقُ الجماعةِ ، وتصَدُّعُ بناءِ المجتمعِ الإسلامىِّ .

* * *

(١) رواه أحمد ١٠٢/٤ (١٦٨٧٦) ، وأبو داود (٤٥٩٧) .
وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٦٤١) : صحيح .
(٢) رواه الترمذى (٢٦٤١) .
وقال الشيخ الألبانى رحِمه اللَّهُ فى صحيح الجامع (٥٣٤٣) : حسن .

الفصلُ الثالثُ

فى بيانِ الانحرافِ عن العقيدةِ، وسُبُلِ التَّوَقّى منه

الانحرافُ عن العقيدةِ الصحيحةِ مَهْلَكةٌ وضَياعٌ؛ لأنَّ العقيدةَ الصحيحةَ هى الدافعُ القويُّ إلى العملِ النافعِ، والفَرْدُ بلا عَقيدةٍ صحيحةٍ، يكونُ فَريسةً للأوهامِ، والشكوكِ التى رُبَّما تَتَراكَمُ عليه، فتَحْجُبُ عنه الرؤيةَ الصحيحةَ لدُروبِ الحياةِ السعيدةِ؛ حتى تَضِيقَ عليه حياتُه، ثم يُحاوِلُ التَّخَلُّصَ من هذا الضيقِ بإنهاءِ حياتِه، ولو بالانتحارِ، كما هو الواقعُ من كثيرٍ من الأفرادِ الذين فقَدُوا هدايةَ العقيدةِ الصحيحةِ.

والمجتمعُ الذى لا تَسُودُه عقيدةٌ صحيحةٌ هو مجتمعٌ بَهِيمىٌّ، يَفْقِدُ كلَّ مُقَوِّماتِ الحياةِ السعيدةِ، وإن كان يَمْلِكُ الكثيرَ من مُقَوِّماتِ الحياةِ المادِيةِ التى كثيرًا ما تَقُودُه إلى الدَّمارِ، كما هو مُشاهَدٌ فى المجْتَمعاتِ الكافرةِ؛ لأنَّ هذه المُقَوِّماتِ المادِيةَ تَحْتاجُ إلى توجيهٍ وتَرْشيدٍ؛ للاستفادةِ مِن خصائصِها ومنافعِها، ولا مُوَجِّهَ لها سِوَى العقيدةِ الصحيحةِ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ

كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٠: ١٣].

فقوةُ العقيدةِ يَجِبُ أن لا تَنْفَكَّ عن القوةِ المادية؛ فإن انْفَكَّت عنها بالانحرافِ إلى العقائدِ الباطلةِ، صارَتِ القوةُ الماديةُ وسيلةَ دمارٍ وانحدارٍ؛ كما هو الشاهدُ اليومَ فى الدولِ الكافرةِ التى تَمْلِكُ مادةً، ولا تَمْلِكُ عقيدةً صَحِيحةً.

والانحرافُ عن العقيدةِ الصحيحةِ له أسبابٌ تَجِبُ معرفتُها، من أهمِّها:

(١) الجهلُ بالعقيدةِ الصحيحةِ؛ بسببِ الإعراضِ عن تعلُّمِها وتعليمِها، أو قلةِ الاهتمامِ والعنايةِ بها؛ حتى يَنْشَأَ جيلٌ لا يَعْرِفُ تلك العقيدةَ، ولا يَعْرِفُ ما يُخالِفُها ويُضادُّها.

فيَعْتَقِدُ الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقًّا، كما قال عمرُ بنُ الخطابِ رضِى اللَّهُ عنه: إنما تُنْقَضُ عُرَى الإسلامِ عُرْوةً عُرْوةً إذا نشَأَ فى الإسلامِ مَن لا يَعْرِفُ الجاهليةَ[1].

(٢) التعصُّبُ لما عليه الآباءُ والأجدادُ، والتمسُّكُ به، وإن كان باطلاً، وتركُ ما خالَفَه، وإن كان حقًّا؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢/ ٣٩٨، ٤/ ٥٩٠.

(٣) التقليدُ الأعمى بأخذِ أقوالِ الناسِ فى العقيدةِ مِن غيرِ معرفةِ دليلِها ، ومعرفةِ مَدَى صحتِها ، كما هو الواقعُ مِن الفِرَقِ المُخَالِفةِ من جهميةٍ[١] ، ومعتزلةٍ[٢] ، وأشاعرةٍ[٣] ، وصوفيةٍ[٤] ، وغيرِهم ، حيث قلَّدوا

---

(١) تقدمت ترجمتهم ص٣٦ ، ٣٧ .

(٢) سُمُّوا بذلك ؛ لاعتزالهم أقوال المسلمين فى مرتكب الكبيرة ، حيث قالوا : إنه فى منزلة بين المنزلتين ، فلا هو مؤمن ، ولا كافر .
وقيل : لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء مجلسَ الحسن البصرى .
ومذهبهم يقوم على نفى الصفات عن الله تعالى ، ونفى القدر فى معاصى العباد ، وإضافة خلقها إلى فاعلها ، وأن القرآن مخلوق ، ونفَوْا شفاعة النبى ﷺ لأهل الكبائر .
وهم فرق كثيرة ، منها : الجبائية والضرارية والنظامية والجاحظية وغيرها .
انظر تفاصيل مذهبهم فى : البرهان فى عقائد أهل الأديان ص٢٦، ٢٧، مقالات الإسلاميين ١/٣٣٥ وما بعدها ، الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٥٤، دارا لمعرفة ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٢٧ وما بعدها .

(٣) تقدمت ترجمتهم ص ٥٩.

(٤) الصوفية : سُمُّوا بذلك نسبة إلى اللِّبسة الظاهرة ، وهى الصوف غالبًا ، وهم طوائف متعددة ، أصولها متقاربة ، إن لم تكن واحدة .
ولقد مر التصوف بعدة مراحل ، فقد كان فى أوله زهدًا فى الدنيا ، وانقطاعًا لعبادة اللَّه عز وجل ، ثم صار حركات ومظاهر خالية من الروح والعبادة ، ثم صار إلحادًا وزندقة .
وهذا ما عبَّر عنه الواسطى بقوله : كان للقوم إشارات ، ثم صارت حركات ، ثم لم يبق إلا حسَرات ، ثم صار إلحادًا وخروجًا عن دين اللَّه ، فقالوا بالحلول ووَحْدة الوجود ، وإباحة المحرمات ، وترك الواجبات ، وعلم الباطن .
وفى عصرنا الحاضر نجد المتصوفة الزُّهَّاد ، وهم قليل ، ومتصوفة المظاهر وحُبِّ الشهرة والجاه والمال ، ومتصوفة الزندقة والانحلال ، وما أكثرهم .
وانظر تفاصيل مذهبم فى : مجموع الفتاوى ١١/ ١٩، ٢٠، كشف المحجوب ١/ ٢٣١، المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١١٢، ١٣٠.

مَن قبلَهم من أئمةِ الضلالِ ، فضلُّوا وانْحَرَفوا عن الاعتقادِ الصحيحِ .

(٤) الغلُوُّ فى الأولياءِ والصالحين ، ورفعُهم فَوقَ منزلتِهم ؛ بحيث يُعْتَقَدُ فيهم ما لا يَقْدِرُ عليه إلا اللهُ من جَلْبِ النفعِ ، ودَفْعِ الضرِّ ، واتخاذُهم وَسائطَ بينَ اللهِ وبينَ خلقِه فى قضاءِ الحَوائجِ ، وإجابةِ الدعاءِ ؛ حتى يَؤُولَ الأمرُ إلى عبادتِهم من دونِ اللهِ .

والتقرُّبُ إلى أضرحتِهم بالذبائحِ والنُّذُورِ ، والدعاءِ والاستغاثةِ وطلبِ المددِ ، كما حصَلَ مِن قومِ نوحٍ فى حقِّ الصالحين حينَ قالوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] . وكما هو الحاصلُ مِن عُبَّادِ القُبورِ اليومَ فى كثيرٍ من الأمصارِ .

(٥) الغَفْلةُ عن تَدَبُّرِ آياتِ اللهِ الكونيـةِ ، وآياتِ اللهِ القرآنيـةِ ، والانبهارُ بمُعْطَياتِ الحضارةِ الماديةِ ، حتى ظَنُّوا أنها من مقدورِ البشرِ وحدَهم ، فصاروا يُعَظِّمون البشرَ ، ويُضِيفون هذه المُعْطَياتِ إلى مجهودِهم واختراعِهم وحدَهم .

كما قال قارونُ من قبلُ : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى ﴾ [القصص : ٧٨] .

وكما يقولُ الإنسانُ : ﴿ هَذَا لِىَ ﴾ [فصلت : ٥٠] ، ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الزمر : ٤٩] .

ولم يَتَفَكَّرُوا ، ويَنْظُروا فى عظمةِ مَن أوْجَد هذه الكائناتِ ، وأَوْدَعَها هذه الخصائصَ الباهرةَ ، وأوْجَدَ البشرَ ، وأعْطَاه المقدرةَ على استخراجِ هذه الخصائصِ ، والانتفاعِ بها .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] . ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٢: ٣٤] .

(٦) أصْبحَ البيتُ فى الغالبِ خاليًا من التوجيهِ السليم، وقد قال النبيُّ ﷺ : « كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرةِ ، فأبواه يُهَوِّدَانِه ، أو يُنَصِّرانِه ، أو يُمَجِّسَانِه » [أخرجه الشيخان[1]] . فالأبوان لهما دَوْرٌ كبيرٌ فى تقويمِ اتجاهِ الطفلِ .

(٧) إحجامُ وسائلِ التعليمِ والإعلامِ فى غالبِ العالمِ الإسلاميِّ عن أداءِ مهمتِها ، فقد أصْبَحَت مناهجُ التعليمِ فى الغالبِ لا تُوَلِّى جانبَ الدينِ اهتمامًا كبيرًا ، أو لا تَهْتَمُّ به أصلاً .

وأصْبَحَت وسائلُ الإعلامِ المرئيةُ والمسموعةُ والمقروءةُ فى الغالبِ أداةَ تدميرٍ وانحرافٍ ، أو تُعْنَى بأشياءَ ماديةٍ وتَرْفيهيةٍ ، ولا تَهْتَمُّ بما يُقَوِّمُ الأخلاقَ ، ويَزْرَعُ العقيدةَ الصحيحةَ ، ويُقاوِمُ التَّيَّاراتِ المنحرفةَ ؛ حتى يَنْشَأَ جيلٌ أَعْزَلُ أمامَ جيوشِ الإلحادِ ، لا يَدَانِ له بمُقاومتِها .

---

(١) رواه البخارى (٤٧٧٥) ، ومسلم ٢٠٤٧/٤ (٢٦٥٨) ، من حديث أبى هريرة .

وسُبُلُ التَّوَقِّى من هذا الانحرافِ تَتَلَخَّصُ فيما يلى :

(١) الرجوعُ إلى كتابِ اللهِ عَزَّ وجلَّ ، وإلى سنةِ رسولِه ﷺ لتَلَقِّى الاعتقادِ الصحيحِ منهما ، كما كان السلفُ الصالحُ يَسْتَمِدُّونَ عقيدتَهم منهما ، ولن يُصْلِحَ آخرَ هذه الأمةِ إلا ما أصْلَحَ أولَها ، مع الاطِّلاعِ على عقائدِ الفرقِ المنحرفةِ ، ومعرفةِ شُبَهِهم للردِّ عليها ، والتحذيرِ منها ؛ لأنَّ مَن لا يَعْرِفِ الشرَّ يُوشِكُ أن يَقَعَ فيه[١] .

(٢) العنايةُ بتدريسِ العقيدةِ الصحيحةِ – عقيدةِ السلفِ الصالحِ – فى مُخْتَلَفِ المراحلِ الدراسيةِ ، وإعطاؤُها الحصصَ الكافيةَ من المنهجِ ، والاهتمامُ البالغُ فى تدقيقِ الامتحاناتِ فى هذه المادةِ .

(٣) أن تُقَرَّرَ دراسةُ الكُتُبِ السَّلفيةِ الصافيةِ ، ويُبْتَعَدَ عن كتبِ الفرقِ المنحرفةِ ؛ كالصوفيةِ ، والمُبْتَدِعةِ ، والجَهْمِيَّةِ ، والمُعْتَزِلةِ ، والأشاعرةِ ، والماتوريديةِ ، وغيرِهم ، إلا من بابِ معرفتِها لردِّ ما فيها من الباطلِ ، والتحذيرِ منها .

(٤) قيامُ دُعاةٍ مُصْلِحِينَ يُجَدِّدُونَ للناسِ عقيدةَ السلفِ ، ويَرُدُّونَ ضَلالاتِ المُنْحَرِفِينَ عنها .

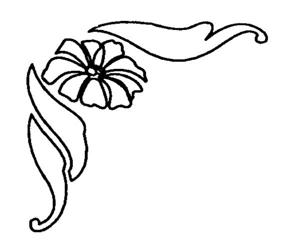
---

(١) ومما يدل على صحة قول الشيخ حفظه الله ما رواه البخارى (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم ١٤٧٥/٣ (١٨٤٧) رحمهما الله ، عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ؛ مخافة أن يدركنى .

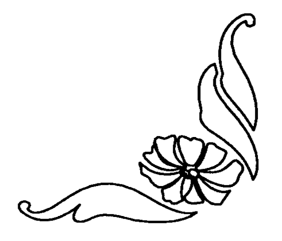
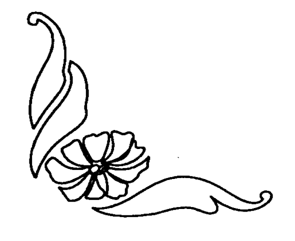
وما أصْدَقَ قولَ القائلِ :

عرَفْتُ الشرَّ لا للشرِّ ولكن لتَوَقِّيه ... ومَن لا يَعْرِفِ الشرَّ من الخيرِ يَقَعْ فِيهِ



البابُ الثانى
فى بيانِ معنى التوحيدِ، وأنواعِه

البابُ الثانى

فى بيانِ معنى التوحيدِ، وأنواعِه

التوحيدُ : هو إفرادُ اللهِ بالخلقِ والتدبُّرِ ، وإخلاصُ العبادةِ له ، وتركُ عبادةِ ما سِواه ، وإثباتُ ما له من الأسماءِ الحُسْنَى ، والصفاتِ العُلْيَا ، وتنزيهُه عن النقصِ والعيبِ ؛ فهو بهذا التعريفِ يَشْمَلُ أنواعَ التوحيدِ الثلاثةَ ، وبيانُها كالتالى :

١- توحيدُ الربوبيـةِ

ويَتَضَمَّنُ الفصولَ التاليةَ :

الفصلُ الأولُ : فى بيانِ معنى توحيدِ الربوبيةِ ، وفِطْرِيَّتِه ، وإقرارِ المشركين به .

الفصلُ الثانى : فى بيانِ مفهومِ كلمةِ الربِّ فى القرآنِ والسنةِ ، وتَصَوُّراتِ الأممِ الضالَّةِ فى بابِ الربوبيةِ ، والردِّ عليها .

الفصلُ الثالثُ : فى بيانِ خُضُوعِ الكونِ فى الانقيادِ ، والطاعةِ للهِ .

الفصلُ الرابعُ : فى بيانِ منهجِ القرآنِ فى إثباتِ وَحْدانيةِ اللهِ فى الخَلْقِ والرزقِ وغيرِ ذلك .

الفصلُ الخامسُ : فى بيانِ استلزامِ توحيدِ الربوبيةِ لتوحيدِ الأُلُوهيةِ .

* * *

الفصلُ الأولُ
فى بيانِ معنى توحيدِ الربوبيـةِ ، وإقرارِ المشركين به

التوحيدُ بمعناه العامِّ : هو اعتقادُ تفرُّدِ اللهِ تعالى بالربوبيةِ ، وإخلاصُ العبادةِ له ، وإثباتُ ما له من الأسماءِ والصفاتِ ، فهو ثلاثةُ أنواعٍ :

توحيدُ الربوبيةِ ، وتوحيدُ الألوهيةِ ، وتوحيدُ الأسماءِ والصفاتِ ، وكلُّ نوعٍ له معنًى لا بدَّ من بيانِه ؛ ليتَحَدَّدَ الفرقُ بينَ هذه الأنواعِ :

١- فتوحيدُ الربوبيـةِ :

هو إفرادُ اللهِ تعالى بأفعالِه ؛ بأن يُعْتَقَدَ أنه وَحْدَه الخالقُ لجميعِ المخلوقاتِ : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] .

وأنه الرزاقُ لجميعِ الدوابِّ والآدميِّينَ وغيرِهم : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] .

وأنه مالكُ الملكِ ، والمدبِّرُ لشئونِ العالَمِ كلِّه ؛ يُوَلِّى ويَعْزِلُ ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ، قادرٌ على كلِّ شيءٍ ، يُصَرِّفُ الليلَ والنهارَ ، ويُحْيِى ويُمِيتُ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] .

وقد نَفَى اللهُ سبحانَه أن يكونَ له شريكٌ فى الملكِ ، أو مُعِينٌ ، كما نَفَى سبحانَه أن يكونَ له شريكٌ فى الخلقِ ، والرزقِ ، قال تعالى : ﴿ هَذَا

خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١١].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ [الملك: ٢١].

كما أعْلَنَ انفرادَه بالربوبيةِ على جميعِ خلقِه، فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢].

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد فطَرَ اللهُ جميعَ الخلقِ على الإقرارِ بربوبيتِهِ، حتى إنَّ المشركين الذين جعَلُوا له شريكًا فى العبادةِ يُقِرُّون بتفرُّدِه بالربوبيةِ، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٩].

فهذا التوحيدُ لم يَذْهَبْ إلى نَقِيضِه طائفةٌ معروفةٌ مِن بنى آدمَ، بل القلوبُ مَفْطورةٌ على الإقرارِ به؛ أعظمَ مِن كونِها مفطورةً على الإقرارِ بغيرِه من الموجوداتِ؛ كما قالتِ الرسلُ فيما حَكَى اللهُ عنهم: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشْهَرُ مَن عُرِفَ تَجاهُلُه وتَظَاهُرُه بإنكارِ الربِّ فِرْعَوْنُ، وقد كان

مُسْتَيْقِنًا به فى الباطنِ ، كما قال له موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] .

وقال عنه وعن قومِه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

وكذلك مَن يُنْكِرُ الربَّ اليومَ مِن الشُّيُوعِيِّين ؛ إنما يُنْكِرُونه فى الظاهرِ مُكابَرةً ، وإلا فهم فى الباطنِ لابدَّ أن يَعْتَرِفوا أنه ما مِن موجودٍ إلا وله مُوجِدٌ ، وما من مخلوقٍ ، إلا وله خالقٌ ، وما مِن أَثَرٍ إلا وله مُؤَثِّرٌ .

قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥، ٣٦] .

تأَمَّلِ العالَمَ كلَّه ، عُلْوِيَّه وسُفْلِيَّه ، بجميعِ أجزائِه تَجِدْه شاهدًا بإثباتِ صانعِه وفاطرِه ومَلِيكِه ، فإنكارُ صانعِه وجَحْدُه فى العقولِ والفِطَرِ بمنزلةِ إنكارِ العِلْمِ وجَحْدِه ، لا فرقَ بينهما[1] .

وما تَتَبَجَّحُ به الشيوعيةُ اليومَ من إنكارِ وجودِ الربِّ إنما هو من بابِ المُكابَرةِ ، ومصادرةِ نِتَاجِ العقولِ والأفكارِ الصحيحةِ ، ومَن كان بهذه المثابةِ ، فقد أَلْغَى عقلَه ، ودعا الناسَ للسُّخْرِيَّةِ منه .

قال الشاعرُ :

كيف يُعْصَى الإلهُ ويَجْحَدُه الجاحدُ
وفى كلِّ شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحِدُ

* * *

(١) لأن العلم الصحيح يثبت وجود الخالق .

الفصلُ الثانى
مفهومُ كلمةِ الربّ فى القُرآنِ والسُّنةِ ، وتَصوُّراتِ الأُمَمِ الضالَّةِ

١- مفهومُ كلمةِ الربِّ فى الكتابِ والسنةِ :

الربُّ فى الأصلِ : مَصْدَرُ رَبَّ يَرُبُّ ؛ بمعنى : نَشَّأَ الشيءَ مِن حالٍ إلى حالِ التَّمامِ ، يقالُ : ربَّه وربَّاه ورَبَّبَهُ ، فلفظُ (رب) مَصْدَرٌ مُسْتَعارٌ للفاعلِ ، ولا يُقالُ : (الرَّبُّ) بالإطلاقِ إلا للهِ تعالى المُتَكَفِّلِ بما يُصْلِحُ الموجوداتِ ، نحوَ قولِه :﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] . ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٦] .

ولا يقالُ لغيرِه إلا مضافًا محدودًا ، كما يقالُ : ربُّ الدارِ ، وربُّ الفرسِ . يعنى : صاحبُها ، ومنه قولُه تعالى حكايةً عن يوسُفَ عليه السلامُ : ﴿ اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : ٤٢] .

وقولُه تعالى : ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ [يوسف : ٥٠] . ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : ٤١] .

وقال ﷺ فى ضالةِ الإبلِ : « حتى يَجِدَها ربُّها »[1] .

---

(١) قال النووى رحمه اللّه فى كتابه المجموع ١/ ٣٣٤: قال العلماء : « الربُّ » بالألف واللام لا يطلق إلا على الله تعالى ؛ بخلاف « رب » فإنه يضاف إلى المخلوق ، فيقال : رب المال ، ورب الدار ، ورب الماشية ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث فى ضالة الإبل : « دَعْها حتى يأتيها ربها » . اهـ

وقال ابن حجر رحمه اللّهُ فى الفتح ٥/ ١٧٩: والذى يختص بالله تعالى إطلاق الرب =

فتَبَيَّنَ بهذا : أن الربَّ يُطْلَقُ على اللهِ مُعَرَّفًا ومُضافًا ، فيقالُ : الربُّ ، أو ربُّ العالمين ، أو ربُّ الناسِ ، ولا تُطْلَقُ كلمةُ الربِّ على غيرِ اللهِ إلا مضافةً ، مثلَ : ربِّ الدارِ ، وربِّ المنزلِ ، وربِّ الإبلِ .

ومعنى (ربِّ العالمين) ؛ أي : خالِقِهم ، ومالِكِهم ، ومُصْلِحِهم ومُرَبِّيهم بنِعَمِه ، وبإرسالِ رُسُلِه ، وإنزالِ كتبِه ، ومُجازِيهم على أعمالِهم .

قال العَلامةُ ابنُ القيمِ رحِمه اللهُ : فإنَّ الربوبيةَ تَقْتَضِى أمرَ العبادِ ونَهْيَهم ، وجزاءَ مُحْسِنِهم بإحسانِه ، ومُسِيئِهم بإساءتِه[1] .

هذه حقيقةُ الربوبيةِ .

٢- مفهومُ كلمةِ الربِّ فى تصوُّراتِ الأممِ الضالةِ :

خلَقَ اللهُ الخَلْقَ مَفْطُورينَ على التوحيدِ ، ومعرفةِ الربِّ الخالقِ سبحانَه ، كما قال اللهُ تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

= بلا إضافة ، أما مع الإضافة ، فيجوز إطلاقه ، كما فى قوله تعالى ؛ حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ، وقوله عليه الصلاة والسلام فى أشراط الساعة : « أن تلد الأَمَةُ ربَّها » . اهـ

والحديث رواه البخارى (٢٤٢٨) ، ومسلم ٣/١٣٤٩ (١٧٢٢) ، الحديث رقم (٥) من كتاب اللقطة .

(١) مدارج السالكين ١/ ٨.

فالإقرارُ بربوبيـةِ اللهِ والتوجُّهُ إليه أمرٌ فِطْرىٌّ، والشركُ حادثٌ طارئٌ، وقد قال النبىُّ ﷺ : « كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرةِ ، فأبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه »[1] .

فلو خُلِّى العبدُ وفطرتُه لاتَّجَهَ إلى التوحيدِ ، وقَبِل دعوةَ الرسلِ ؛ الذى جاءت به الرسلُ ، ونزَلَت به الكتبُ ، ودلَّت عليه الآياتُ الكونيةُ ، ولكنَّ التربيةَ المنحرفةَ والبيئةَ المُلْحِدةَ هما اللتان تُغَيِّران اتجاهَ المولودِ ، ومِن ثَمَّ يُقَلِّدُ الأولادُ آباءَهم فى الضلالةِ والانحرافِ .

يقولُ اللهُ تعالى فى الحديثِ القُدْسىِّ : « خَلَقْتُ عبادى حُنَفاءَ ، فاجْتالَتْهم الشياطينُ »[2] ؛ أى : صرَفَتْهُم إلى عبادةِ الأصنامِ ، واتخاذِها أربابًا من دونِ اللهِ ، فوَقَعُوا فى الضلالِ ، والضَّياعِ ، والتفرُّقِ ، والاختلافِ .

كلٌّ يَتَّخِذُ له ربًّا يَعْبُدُه غيرَ ربِّ الآخَرِ ؛ لأنهم لَمَّا ترَكُوا الربَّ الحقَّ ، ابْتُلُوا باتخاذِ الأربابِ الباطلةِ ، كما قال تعالى : ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس : ٣٢] .

والضلالُ ليس له حدٌّ ، ولا نهايةٌ ، هو لازمٌ لكلِّ مَن أعْرَضَ عن ربِّه الحقِّ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف : ٣٩، ٤٠] .

---

(١) تقدم تخريجه ص١٤٤ .

(٢) رواه أحمد ٤/١٦٢ (١٧٤١٤) ، ومسلم ٤/٢١٩٧ (٢٨٦٥) .

والشركُ فى الربوبيةِ باعتبارِ إثباتِ خالقَيْنِ متماثِلَيْنِ فى الصفاتِ والأفعالِ ممتنعٌ ، وإنما ذهَبَ بعضُ المشركين إلى أن معبوداتِهم تَمْلِكُ بعضَ التصرُّفاتِ فى الكونِ ، وقد تَلاعَبَ بهم الشيطانُ فى عبادةِ هذه المعبوداتِ ، فتَلاعَبَ بكلِّ قومٍ على قَدْرِ عقولِهم .

فطائفةٌ دعاهم إلى عبادتِها من جهةِ تعظيمِ الـمَوْتَى ، الذين صوَّروا تلك الأصنامَ على صُوَرِهم ؛ كقومِ نوحٍ .

وطائفةٌ اتَّخَذَتِ الأصنامَ على صورةِ الكواكبِ ، التى زعَمُوا أنها تُؤَثِّرُ على العالَمِ ، فجعَلُوا لها بُيوتًا وسَدَنةً .

واخْتَلَفُوا فى عبادتِهم لهذه الكواكبِ : فمنهم مَن عبَدَ الشمسَ ، ومنهم مَن عبَدَ القمرَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ غيرَهما من الكواكبِ الأخرى ، حتى بَنَوْا لها هياكلَ ، لكلِّ كوكبٍ منها هَيْكَلٌ يَخُصُّه .

ومنهم مَن يَعْبُدُ النارَ ، وهم المجوسُ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ البقرَ ، كما فى الهندِ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الملائكةَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ الأشجارَ والأحجارَ ، ومنهم مَن يَعْبُدُ القبورَ والأضْرِحةَ .

وكلُّ هذا بسببِ أن هؤلاء تصَوَّرُوا فى هذه الأشياءِ شيئًا من خصائصِ الربوبيةِ .

فمنهم مَن يَزْعُمُ أنَّ هذه الأصنامَ تُـمَثِّلُ أشياءَ غائبةً ، قال ابنُ القيمِ : وَضْعُ الصنمِ إنما كان فى الأصلِ على شَكْلِ معبودٍ غائبٍ ، فجعَلُوا الصنمَ على شكلِه وهيأتِه وصُورتِه ؛ ليكونَ نائبًا مَنابَه ، وقائمًا مقامَه ، وإلا فمِن المعلومِ أن عاقلاً لا يَنْحِتُ خشبةً أو حجرًا بيدِهِ ، ثم يَعْتَقِدُ أنه إلهُه

ومعبودُه. انتهى[1].

كما أنَّ عُبَّادَ القبورِ قديمًا وحديثًا ، يَزْعُمون أنَّ هؤلاء الأمواتَ يَشْفَعون لهم ، وَيَتَوَسَّطون لهم عندَ اللهِ فى قضاءِ حوائجِهم ، ويقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣] . ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] .

كما أنَّ بعضَ مُشْرِكِى العربِ والنَّصارَى تصَوَّرُوا فى معبوداتِهم أنها وَلَدُ اللهِ ، فمُشْرِكو العربِ عبَدُوا الملائكةَ على أنها بناتُ اللهِ ، والنَّصارَى عَبَدُوا المسيحَ عليه السلامُ على أنه ابنُ اللهِ .

٣- الردُّ على هذه التصوُّراتِ الباطلةِ :

قد رَدَّ اللهُ على هذه التصوُّراتِ الباطلةِ جميعًا بما يأتى :

أ - رَدَّ على عَبَدةِ الأصنامِ بقولِه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ، ومعنى الآيةِ كما قال القرطبىُّ : أَفَرَأَيْتُم هذه الآلهةَ ؛ أنَفَعَتْ أو ضَرَّتْ حتى تكونَ شُرَكاءَ للهِ تعالى ؟ ! وهل دَفَعَت عن نفسِها حينَما حطَّمَها رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه رضِى اللهُ عنهم ، وهدَمُوها[2].

(١) إغاثة اللهفان ص ٥٨٦.

(٢) روى البخارى (٢٤٧٨، ٤٢٨٧، ٤٧٢٠)، ومسلم ١٤٠٨/٣ (١٧٨١) ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نُصُبًا ، فجعل يَطْعُنها بعُودٍ كان بيده ، ويقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . =

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٤].

فقد وافقُوا على أنَّ هذه الأصنامَ لا تَسْمَعُ الدعاءَ، ولا تَنْفَعُ، ولا تَضُرُّ، وإنما عَبدُوها تقليدًا لآبائِهم، والتقليدُ حجةٌ باطلةٌ.

ب - وردَّ على مَن عبدَ الكواكبَ والشمسَ والقمرَ بقولِه: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وبقولِه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

جـ - وردَّ على مَن عَبد الملائكةَ والمسيحَ - عليهم السلامُ - على أنهم وَلَدُ اللهِ - بقولِه تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وبقولِه: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وبقولِه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

* * *

= وانظر قصة تكسير النبى ﷺ والصحابة للأصنام: ابن سعد فى الطبقات ٢/١٤٥-١٤٦، وزاد المعاد ٣/٤١٣- ٤١٤.

وقال النووى رحمه الله فى شرح مسلم ٦/ ٣٧٢: وقوله: يطعن. بضم العين على المشهور، ويجوز فتحها فى لغة، وهذا الفعل إذلال للأصنام ولعابديها، وإظهار لكونها لا تضر، ولا تنفع، ولا تدفع عن نفسها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾. اهـ

الفصلُ الثالثُ

الكونُ وفطرتُه فى الخُضوعِ والطَّاعةِ للهِ

إنَّ جميعَ الكونِ بسمائِه ، وأرضِه ، وأفلاكِه ، وكواكبِه ، ودَوابِّه ، وشَجَرِه ، ومَدَرِه ، وبَرِّه ، وبَحْرِه ، وملائكتِه ، وجِنِّه ، وإنسِهِ ؛ كلُّه خاضعٌ للهِ ، مطيعٌ لأمرِه الكونيِّ ، قال تعالى : ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة : ١١٦] ، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل : ٤٩] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج : ١٨] .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد : ١٥] .

فكلُّ هذه الكائناتِ والعَوالِمِ مُنْقَادَةٌ للهِ خاضعةٌ لسلطانِه ، تَجْرِى وَفْقَ إرادتِه وطَوْعَ أمرِه ، لا يَسْتَعْصِى عليه منها شيءٌ ، تَقُومُ بوظائِفِها ، وتُؤَدِّى نتائجَها بنظامٍ دقيقٍ ، وتُنَزِّهُ خالقَها عن النقصِ والعجزِ والعيبِ .

قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فهذه المخلوقاتُ صامتُها وناطقُها ، وحيُّها وميتُها ، كلُّها مطيعةٌ للهِ ، مُنْقَادةٌ لأمرِه الكونيِّ ، وكلُّها تُنَزِّهُ اللهَ عن النقائصِ والعُيُوبِ بلسانِ الحالِ ، ولسانِ المقالِ .

فكُلَّما تَدبَّر العاقلُ هذه المخلوقاتِ عَلِم أنها خُلِقَتْ بالحقِّ وللحقِّ ، وأنها مُسَخَّراتٌ ؛ ليس لها تَدْبيرٌ ، ولا اسْتِعْصاءٌ عن أمرِ مُدَبِّرِها ، فالجميعُ مُقِرُّون بالخالقِ بفطرتِهم .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحِمه اللهُ[1] : وهم خاضِعُون ، مُسْتَسْلِمون ، قَانتون ، مُضْطَرُّون ، مِن وجوهٍ :

منها : عِلْمُهم بحاجتِهم وضَرُورتِهم إليه .

ومنها : خضوعُهم واستسلامُهم لما يَجْرِي عليهم من أقدارِه ، ومشيئتِه .

ومنها : دعاؤُهم إياه عندَ الاضْطِرارِ .

والمؤمنُ يَخْضَعُ لأمرِ ربِّه طَوْعًا ؛ وكذلك لِمَا يُقَدِّرُه عليه مِن المصائبِ ، فإنَّه يَفْعَلُ عندَها ما أُمِر به مِن الصَّبْرِ وغيرِه طَوْعًا ، فهو مُسَلِّمٌ للهِ طَوْعًا ، خاضعٌ له طَوْعًا .

والكافرُ يَخْضَعُ لأمرِ ربِّه الكونيِّ ، وسجودُ الكائناتِ المقصودُ به الخضوعُ ، وسجودُ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه ، سجودٌ يُناسِبُه ، ويَتَضَمَّنُ الخضوعَ للربِّ ، وتسبيحُ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه حقيقةً ، لا مجازًا .

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٤٥.

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ – رحِمه اللهُ – على قولِه تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

قال : فذكَرَ سبحانَه إسلامَ الكائناتِ طَوْعًا وكَرْهًا ؛ لأنَّ المخلوقاتِ جميعَها مُتَعَبِّدةٌ له التعبُّدَ التامَّ ؛ سواءٌ أقَرَّ المُقِرُّ بذلك ، أو أنْكَرَه ، وهم مَدِينون له ، مُدَبَّرون ، فهم مُسَلِّمون له طَوْعًا وكَرْهًا .

وليس لأحدٍ من المخلوقاتِ خروجٌ عما شاءَه وقدَّرَه وقَضاه ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا به ، وهو ربُّ العالمِينَ ومَلِيكُهم ، يُصَرِّفُهم كيف يَشَاءُ .

وهو خالقُهم كلِّهم ، وبارئُهم ، ومُصَوِّرُهم ، وكلُّ ما سواه فهو مَرْبوبٌ مَصْنوعٌ ، مَفْطورٌ فقيرٌ مُحْتاجٌ مُتَعَبِّدٌ مَقْهورٌ ، وهو سبحانَه الواحدُ القَهَّارُ الخالقُ البارِيءُ المُصَوِّرُ[1] .

* * *

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٠٠.

الفصلُ الرابعُ

في بيانِ مَنْهَجِ القرآنِ في إثباتِ وجودِ الخالقِ ووَحْدَانيتِه

مَنْهَجُ القرآنِ فى إثباتِ وجُودِ الخالقِ ووَحْدانيتِه هو المنهجُ الذى يَتَمَشَّى مع الفِطْرةِ المستقيمةِ ، والعقولِ السليمةِ ، وذلك بإقامةِ البَراهينِ الصحيحةِ ، التى تَقْتَنِعُ بها العقولُ ، وتُسَلِّمُ بها الخُصُومُ ، ومِن ذلك :

١- من المعلومِ بالضَّرورةِ أن الحادثَ لا بدَّ له من مُحْدِثٍ .

هذه قضيةٌ ضروريةٌ معلومةٌ بالفِطْرةِ ، حتى للصِّبيانِ ؛ فإنَّ الصبيَّ لو ضرَبَهُ ضاربٌ ، وهو غافلٌ لا يُبْصِرُه ، لَقالَ : مَن ضرَبَنى ؟ فلو قيل له : لم يَضْرِبْك أحدٌ لم يَقْبَلْ عقلُهُ أن تكونَ الضَّرْبةُ حدَثَتْ مِن غيرِ مُحْدِثٍ .

فإن قيل : فلانٌ ضرَبَك ، بَكَى حتى يُضْرَبَ ضارِبُهُ ، ولهذا قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥] .

وهذا تقسيمٌ حاصرٌ ، ذكَرَه اللهُ بصيغةِ استفهامٍ إنكاريٍّ ؛ ليُبَيِّنَ أنَّ هذه المُقَدِّماتِ معلومةٌ بالضرورةِ ، لا يُمْكِنُ جَحْدُها ، يقولُ : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ ؛ أى : من غيرِ خالقٍ خلَقَهم ، أم هم خلَقُوا أنفسَهم ؟

وكلا الأمرَيْنِ باطلٌ ؛ فتعَيَّنَ أنَّ لهم خالقًا خلَقَهم ، وهو اللهُ سبحانَه ، ليس هناك خالقٌ غيرُه ، قال تعالى : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان : ١١] .

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف : ٤] . ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ

شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦] . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [الحج: ٧٣] .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠] . ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] .

ومع هذا التَّحَدِّى المُتَكَرِّرِ لم يَدَّعِ أحدٌ أنه خَلَق شيئًا ، ولا مُجَرَّدَ دَعْوَى ، فضلاً عن إثباتِ ذلك ، فتَعَيَّنَ أنَّ اللهَ سبحانَه هو الخالقُ وحدَه ، لا شريكَ له .

٢- انتظامُ أمرِ العالَمِ كلِّه وإحكامُه : أَدَلُّ دليلٍ على أنَّ مُدَبِّرَه إلهٌ واحدٌ ، وربٌّ واحدٌ ، لا شريكَ له ، ولا مُنازِعَ .

قال تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

فالإلهُ الحقُّ لا بدَّ أن يكونَ خالقًا فاعلاً ، فلو كان مَعَه سبحانَه إلهٌ آخَرُ ، يُشارِكُه فى مُلْكِه - تعالى اللهُ عن ذلك - لكان له خَلْقٌ وفِعْلٌ ، وحينَئذٍ فلا يَرْضَى شَرِكَةَ الإلهِ الآخَرِ معَه .

بل إن قَدَر على قَهْرِ شريكِه ، وتَفَرَّدَ بالملكِ والإلهيةِ دونَه فعَلَ ، وإن لم يَقْدِرْ على ذلك ، انْفَرَد بنصيبِه فى الملكِ والخلقِ ، كما يَنْفَرِدُ ملوكُ الدنيا ، بعضُهم عن بعضٍ بملكِه ، فيَحْصُلُ الانقسامُ .

فلا بدَّ من أحدِ ثلاثةِ أمورٍ :

أ - إما أن يَقْهَرَ أحدُهما الآخَرَ ويَنْفَرِدَ بالملكِ دُونَه .

ب – وإما أن يَنْفَرِدَ كلُّ واحدٍ منهما عن الآخَرِ بمُلْكِه وخَلْقِه، فيَحْصُلُ الانقسامُ .

جـ – وإمَّا أن يكونا تحتَ مَلِكٍ واحدٍ، يَتَصَرَّفُ فيهما كيف يَشَاءُ، فيكونُ هو الإلهَ الحقَّ، وهم عَبِيدُه .

وهذا هو الواقعُ، فإنه لم يَحْصُلْ فى العالَمِ انقسامٌ، ولا خَلَلٌ، مما يَدُلُّ على أن مُدَبِّرَه واحدٌ، لا مُنازِعَ له، وأن مالِكَه واحدٌ، لا شريكَ له.

تَسْخِيرُ المخلوقاتِ لأداءِ وظائِفِها، والقيامِ بخصائصِها :

فليس هناك مخلوقٌ يَسْتَعْصِى، ويَمْتَنِعُ عن أداءِ مُهِمَّتِه فى هذا الكونِ، وهذا ما اسْتَدَلَّ به موسى – عليه السلامُ – حينَ سأَلَه فِرْعَوْنُ : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٤٩]، أجاب موسى بجوابٍ شافٍ كافٍ، فقال : ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] .

أى : ربُّنا الذى خلَقَ جميعَ المخلوقاتِ، وأعْطَى كلَّ مخلوقٍ خَلْقَه اللائقَ به؛ مِن كِبَرِ الجسمِ، وصِغَرِه، وتوَسُّطِه، وجميعِ صفاتِه، ثم هَدَى كلَّ مخلوقٍ إلى ما خَلَقَه له .

وهذه الهدايةُ هى هدايةُ الدَّلالةِ والإلهامِ، وهى الهدايةُ الكاملةُ المُشاهَدةُ فى جميعِ المخلوقاتِ، فكلُّ مخلوقٍ تَجِدُه يَسْعَى لما خُلِق له مِن المنافعِ، وفى دَفْعِ المَضَارِّ عنه .

حتى إنَّ اللهَ أعْطَى الحيوانَ البَهِيمَ من الإدراكِ، ما يَتَمَكَّنُ بهِ مِن فِعْلِ ما يَنْفَعُه، ودَفْعِ ما يَضُرُّه، وما به يُؤَدِّى مُهِمَّتَه فى الحياةِ .

وهذا كقولِه تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة: ٧] .

فالذى خلَقَ جميعَ المخلوقاتِ ، وأعْطَاها خَلْقَها الحَسَنَ – الذى لا تَقْتَرِحُ العقولُ فوقَ حُسْنِه – وهداها لمصالحِها ، هو الربُّ على الحقيقةِ ، فإنكارُهُ إنكارٌ لأعظمِ الأشياءِ وُجُودًا ، وهو مُكابَرةٌ ومُجاهَرةٌ بالكذبِ .

فاللهُ أعْطَى الخَلْقَ كلَّ شيءٍ يَحْتاجون إليه فى الدنيا ، ثم هَداهم إلى طريقِ الانتفاعِ بهِ ، ولا شكَّ أنه أعْطَى كلَّ صِنْفٍ شَكْلَه وصُورتَه المُناسِبةَ له ، وأعْطَى كلَّ ذَكَرٍ وأنثى الشكلَ المُناسِبَ له مِن جنسِه ، فى المُناكَحةِ والأُلْفةِ والاجْتِماعِ .

وأعْطَى كلَّ عُضْوٍ شَكْلَه المُلائِمَ للمنفعةِ المَنُوطةِ به .

وفى هذا بَراهينُ قاطعةٌ على أنه جَلَّ وعلا ربُّ كلِّ شيءٍ ، وهو المُسْتَحِقُّ للعبادةِ دونَ سواه .

وفى كلِّ شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أنه الواحدُ[1]

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله فى « مِفْتاح دار السعادة » ٢/ ١٤٣ :

فصلٌ : وجْه الدَّابة :

ثم تأمَّلِ الحكمةَ الباهرةَ فى وجهِ الدَّابَّةِ كيف هو ؛ فإنَّكَ تَرى العَينينِ فيه شاخِصَتَيْنِ أمامَها لتبصرَ ما بينَ يَديها أتمَّ من بَصرِ غيرها ؛ لأنَّها تحرُسُ نفسَها وراكبها ، فَتَتَّقى أن تَصدِمَ حائطًا أو تَترَدَّى فى حفرةٍ ، فجُعِلَت عيناها كعَينى المُنتصبِ القامةِ ؛ لأنَّها طليعتُه ، وجُعل فوها مشقوقًا فى أسفلِ الخَطْمِ لتتمكَّن من العضِّ والقبضِ على العلفِ – إذ لو كان فوها فى مقدَّم الخَطمِ ، كما أنه من الإنسانِ فى مقدَّمِ الذَّقَنِ لما استطاعَت أن تتناوَلَ به شيئًا من الأرضِ ، ألَا تَرى الإنسانَ لا يتناولُ الطعامَ بفيهِ لكن بيَدِه ، فلمّا لم تكُن الدَّابَّةُ تَتناولُ طعامَها بيَدها جُعِلَ خَطْمُها مشقوقًا من أسفلِه لتضعَهُ على العلفِ ثم تَقْضِمَهُ ، وأُعِينتْ بالجَحْفَلَةِ – وهى لها كالشَّفَةِ للإنسانِ – لتلتقمَ بها ما قَرُبَ منها وما بَعُدَ .وقد أشكلَت منفعةُ الذَّنَبِ على بعضِ الناسِ ولم يهتدِ إليها ! وفيها منافعُ عديدةٌ . =

....

= فمنها : أنه بمنزلةِ الطَّبَقِ على الدُّبُرِ والغطاءِ على حَيَاها ، يُواريهما ويسترُهما .
ومنها : أن بينَ الدُّبرِ ومراقِّ البطن من الدابةِ له وَضَرٌ يجتمعُ عليه الذبابُ والبعوضُ ، فيؤذى الدَّابةَ ، فجُعِلَ أذنابُها كالمذابِّ لها والمراوحِ تطرُدُ به ذلك .
ومنها : أن الدابَّةَ تستريحُ إلى تحريكه وتصريفِهِ يَمْنةً ويَسْرةً ؛ فإنه لما كان قيامُها على الأربع بكلِّ جسمها ، وشُغِلَت قدماها بحملِ البَدنِ عن التَّصرُّفِ والتقلُّبِ كان لها فى تحريكِ الذَّنَبِ راحةٌ .
وعسى أن يكونَ فيه حكمٌ آخرُ تقصُرُ عنها أفهامُ الخَلْقِ أو يَزْدريها السامعُ إذا عُرِضَت عليه ؛ فإنه لا يعرفُ موقعَها إلا فى وقتِ الحاجةِ ، فمن ذلك أن الدابةَ تربِضُ فى الوَحَلِ ، فلا يكونُ شىءٌ أعونَ على رفعها من الأخذِ بذنبها .
فصلٌ : خُرطُوم الفيل :
ثم تأمَّل مِشْفَرَ الفيلِ وما فيه من الحِكَمِ الباهرةِ ؛ فإنه يقومُ مقامَ اليدِ فى تناولِ العلفِ والماءِ وإيرادهما إلى جوفِه ، ولولا ذلك ما استطاعَ أن يتناولَ شيئًا من الأشياء من الأرضِ ؛ لأنَّه ليست له عنُقٌ يمدُّها كسائرِ الأنعامِ ، فلمَّا عُدِمَ العنقَ أُخْلِفَ عليه مكانَهُ الخُرطومُ الطويلُ ليسُدَّ مسدَّهُ ، وجُعِلَ قادرًا على سَدْلِه ورفعِهِ وثَنْيِهِ والتصرُّفِ به كيفَ شاءَ ، وجُعِلَ وعاءً أجوفَ لينَ الملمَسِ ، فهو يتناول به حاجتَهُ ويُحَمِّلُهُ ما أرادَ إلى جوفِهِ ، ويحبِسُ منه ما يريدُ ، ويكيدُ به إذا شاءَ ، ويُعطى ويتناولُ إذا أرادَ .
فتسَلِ المُعطِّلَ : مَن الذى عوَّضَهُ وأخلفَ عليه مكانَ العضوِ الذى منعهُ ما يقومُ له مقامَهُ ، وينوبُ منابَهُ غيرُ الرؤوفِ الرحيم بخلقهِ المُتكفِّلِ بمصالحهم اللطيف بهم ؟ وكيف يتأتَّى ذلك مع الإهمالِ وخُلُوِّ العالمِ عن قيِّمهِ وبارئِهِ ومُبدعِهِ وفاطرِهِ ! لا إلهَ إلَّا هو العزيزُ الحكيمُ .
فإن قلتَ : فما بالُهُ لم يُخْلَقَ ذا عُنُقٍ كسائرِ الأنعامِ ؟ وما الحكمةُ فى ذلك ؟
قيل - واللَّهُ أعلمُ فى مصنوعاتِه - : لأنَّ رأسهُ وأذنيهِ أمرٌ هائلٌ عظيمٌ ، وحملٌ ثقيلٌ ، فلو كان ذا عُنقٍ كسائرِ الأعناقِ لانهَدَّتْ رقبتَهُ بثقلهِ وَوَهَنَتَ بحملِه ، فجعَلَ رأسهُ مُلْصَقًا بجسمهِ لئلا ينالَهُ منه شىءٌ من الثِّقَلِ والمُؤْنَةِ ، وخَلَقَ له مكانَ العنقِ هذا المِشْفَرَ الطويلَ يتناولُ به غذاءَهُ .
ولما طالَت عنقُ البعيرِ للحكمَةِ فى ذلك صغُرَ رأسهُ بالنسبةِ إلى عِظَمِ جُثَّتِه ؛ لئلا يُؤذيَه =

....

= ثقلُهُ ويُوهِنَ عنقَهُ .
فسبحانَ مَن فاتَت حِكَمُهُ عدَّ العادِّينَ وحصرَ الحاصرين .
فصل : الزَّرافة :
ثم تأمَّل خلقَ الزَّرافَةِ واختلافَ أعضائها وشِبْهَها بأعضاءِ جميعِ الحيوانِ ؛ فرأسُها رأسُ فَرَسٍ ، وعُنُقها عنقُ بعيرٍ ، وأظلافُها أظلافُ بقرةٍ ، وجلدُها جلدُ نَمِرٍ ، حتى زعمَ بعضُ الناسِ أن لقاحَها من فحولٍ شَتَّى ! وذكروا أنَّ أصنافَها من حيوانِ البَرِّ إذا ورَدَت الماءَ يَنزو بعضُها على بعضٍ ، فتنزو المُسْتوحِشَةُ على السَّائمةِ ، فَتُنْتَجُ مثلَ هذا الشخصِ الذى هو كالمُلْتقَطِ من أُناسٍ شتى !
وما أرى هذا القائلَ إلَّا كاذبًا عليها وعلى الخِلْقةِ ؛ إذ ليس فى الحيوانِ صنفٌ يُلَقِّحُ صنفًا آخرَ ، فلا الجملُ يلقحُ البقرَ ، ولا الثَّوْرُ يُلقحُ الناقةَ ، ولا الفرسُ يُلقِّحُها ولا يُلَقِّحانِه ، ولا الوحوشُ يُلقِّحُ بعضُها بعضًا ، ولا الطيورُ ، وإنَّما يقعُ هذا نادرًا فيما يتقاربُ كالبقرِ الوحشىِّ والأهلىِّ ، والضَّأنِ والمعزِ ، والفرسِ والحمارِ ، والذئبِ والضَّبُعِ فيتولَّدُ من ذلك البغلُ والسِّمْعُ والعِسبارُ .
وقولُ الفقهاءِ : هل تجبُ الزَّكاةُ فى المتولِّد من الوحشىِّ والأهلىِّ ؟
فيه وجهانِ ؛ هذا إنَّما يُتصورُ فى واحدٍ واثنينِ وثلاثةٍ يَكْمُلُ بها النِّصابُ ، فأمَّا نصابُ كلِّ متولِّدٍ من الوحشىِّ والأهلىِّ فلا وجودَ لذلك ، والأحكامُ المتعلِّقَةُ بهذه المتولِّداتِ تُذْكَرُ فى الزَّكاةِ وجزاءِ الصَّيدِ والأضاحى والأحوطِ ، فيُغَلَّبُ فى كل بابِ الأحوطُ ؛ ففى الأضاحى يُغَلَّبُ عدمُ الإجزاءِ ، وفى الإحرامِ والحَرَمِ يُغَلَّبُ وجوبُ الجزاءِ ، وفى الأطعمةِ يُغَلَّبُ جانبُ التحريمِ ، وفى الزكاةِ اختلافٌ مشهورٌ .
وسُئِل شيخنا أبو العباسِ ابنُ تيميَّة قدَّس اللَّهُ روحهُ عن حمارٍ نَزا على فرسٍ فأحبلَها ، فهل يكونُ لبنُ الفرسِ حلالًا أو حرامًا ؟
فأجابَ بأنَّه حلالٌ ، ولا حُكمَ للفَحْلِ فى اللبنِ فى هذا الموضع ، بخلافِ الأَناسىِّ ؛ لأنَّ لبنَ الفرسِ حادثٌ من العلفِ فهو تابعٌ للحمِها ، ولم يَسْرِ وطءُ الفحلِ إلى هذا اللبنِ ؛ فإنَّه لا حُرمةَ هناكَ تنتشرُ بخلافِ لبنِ الفحلِ فى الأناسىِّ ؛ فإنَّه تنتشرُ به حرمةُ الرَّضاعِ ، ولا حرمةَ هاهنا تنتشرُ من جهةِ الفحلِ إلَّا إلى الولدِ خاصَّةً ، فإنه يتكونُ منه ومن الأمِّ ، فغلبَ عليه =

ومما لا شكَّ فيه أنَّ المقصودَ من إثباتِ رُبوبيتِه سبحانَه لخلقِه ، وانفرادِه بذلك : هو الاستدلالُ به على وُجوبِ عبادتِه وحْدَه ، لا شريكَ له ، الذى

= التحريمُ ، وأما اللبنُ فلم يتكوَّنْ بوطئِه ، وإنما تكوَّنَ من العلفِ ، فلم يكن حرامًا .
هذا بسطُ كلامِه وتقريرُه .
والمقصودُ إبطالُ زعمِ أن هذه الحيواناتِ المختلفَةَ يُلقِّحُ بعضُها بعضًا عندَ الموارِدِ ، فتتكوّنُ الزَّارفةُ ! وأنَّهُ كاذبٌ عليها وعلى الإبداعِ ، والذى يدُلُّ على كذِبهِ أنَّهُ ليس الخارجُ من بين ما ذكرنا من الفَرسِ والحمارِ والذِّئبِ والضبعِ والضَّأنِ والمعزِ عضوًا من كلِّ واحدٍ من أبيه وأُمِّه كما يكونُ للزَّارفةِ عضوٌ من الفرسِ وعضوٌ من الجملِ ، بل يكونُ كالمتوسِّطِ بينهما الممتزجِ منهما ، كما تُشاهدهُ فى البغلِ ، فإنَّك ترى رأسَهُ وأذنيه وكَفَلَهُ وحوافِرَهُ وسطًا بين أعضاءِ أبيه وأُمِّه مشتقَّةً منهما حتى تجدَ شحيجَهُ كالمُمتزِجِ من صَهيلِ الفرسِ ونَهيقِ الحمارِ ، وهذا يدلُّ على أن الزَّرافةَ ليست بِنِتاجِ آباءٍ مختلفةٍ ، كما زعمَ هذا الزاعمُ ! بل من خلقِ عجيبٍ وصنعٍ بديعٍ ، من خلقِ اللَّهِ الذى أبدعهُ آيةً ودلالةً على قدرتهِ وحكمته التى لا يُعْجِزُها شىءٌ ، ليُرِىَ عبادَهُ أنَّه خالقُ أصنافِ الحيوانِ كلِّها كما يشاءُ وفى أىِّ لونٍ شاءَ :
فمنها المتشابهُ الخلقةِ المتناسبُ الأعضاءِ .
ومنها المختلفُ التركيبِ والشكلِ والصورةِ ، كما أَرَى عبادَهُ قدرتَهُ التَّامةَ فى خلقهِ لنوعِ الإنسانِ على الأقسامِ الأربعةِ الدَّالةِ على أنه مخلوقٌ بقدرتهِ ومشيئته تابعٌ لها :
فمنه ما خُلِقَ من غيرِ أبٍ ولا أمٍّ ؛ وهو أبو النَّوعِ الإنسانى .
ومنه ما خُلِقَ من ذكَرٍ بلا أنثى ، وهى أُمُّهم التى خُلِقَت من ضِلَعِ آدمَ .
ومنه ما خُلِقَ من أُنثى بلا ذكرٍ ، وهو المسيحُ ابنُ مريم .
ومنه ما خُلِقَ من ذكرٍ وأُنثى ، وهو سائرُ النوعِ الإنسانىِّ ، لِيُرِىَ عبادَهُ آياتِه ، ويتعرَّفَ إليهم بآلائه وقدرتهِ ، وأنه إذا أراد شيئًا أن يقول له : كُن ؛ فيكون .
وأمَّا طولُ عُنُقِ الزَّارفةِ وما لها فيه من المصلَحةِ ؛ فلأنَّ منشأَها ومرعاها - كما ذكَرَ المُعْتَنونَ بمحالِّها ومساكنها - فى عَيَاطِلَ ذواتِ أشجارٍ شاهقةٍ ذاهبةٍ طولًا ؛ فأُعِينَت بطولِ العنقِ لتتناولَ أطرافَ الشجرِ الذى هناكَ وثمارَها . وهذا ما وصلتْ إليه معرفتُهم ، وحكمَةُ اللطيفِ الخبيرِ فوقَ ذلك ، وأجلُّ منه . اهـ

هو توحيدُ الألوهيةِ .

فلو أنَّ الإنسانَ أقَرَّ بتوحيدِ الربوبيةِ ، ولم يُقِرَّ بتوحيدِ الألوهيةِ ، أو لم يَقُمْ به على الوجهِ الصحيحِ ، لم يَكُنْ مُسْلِمًا ، ولا مُوَحِّدًا ، بل يكونُ كافرًا جاحِدًا ، وهذا ما سنَتَحَدَّثُ عنه فى الفَصْلِ التالى ، إن شاءَ اللهُ تعالى .

* * *

الفصلُ الخامسُ

بيانُ استلزامِ توحيدِ الربوبيـةِ لتوحيدِ الألوهيـةِ

ومعنى ذلك : أنَّ مَن أقَرَّ بتوحيدِ الربوبيةِ للهِ ، فاعْتَرَف بأنه لا خَالِقَ ، ولا رازقَ ، ولا مُدَبِّرَ للكونِ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ ، لزِمَه أن يُقِرَّ بأنه لا يَسْتَحِقُّ العبادةَ بجميعِ أنواعِها إلا اللهُ سبحانَه .

وهذا هو توحيدُ الألوهيةِ ؛ فإنَّ الألوهيةَ هى العبادةُ ، فالإلهُ معناه : المعبودُ ، فلا يُدْعَى إلا اللهُ ، ولا يُسْتَغاثُ إلا به ، ولا يُتَوَكَّلُ إلا عليه ، ولا تُذْبَحُ القَرابينُ ، وتُنْذَرُ النُّذورُ ، ولا تُصْرَفُ جميعُ أنواعِ العبادةِ إلا له .

فتوحيدُ الربوبيـةِ دليلٌ لوجوبِ توحيدِ الألوهيـةِ ، ولهذا كثيرًا ما يَحْتَجُّ اللهُ سبحانَه على المُنْكِرِين لتوحيدِ الألوهيةِ بما أقَرُّوا به من توحيدِ الربوبيةِ ، مثلَ قولِه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢] .

فأمَرَهم بتوحيدِ الألوهيةِ ، وهو عبادتُه ، واحْتَجَّ عليهم بتوحيدِ الربوبيةِ الذى هو خَلْقُ الناسِ الأوَّلِين والآخِرِين ، وخلْقُ السماءِ والأرضِ وما فيهما ، وتَسْخِيرُ الرياحِ ، وإنزالُ المطرِ ، وإنباتُ النباتِ ، وإخراجُ الثَّمَراتِ التى هى رِزْقُ العبادِ .

فلا يَلِيقُ بهم أن يُشْرِكوا معَه غيرَه ، ممَّن يَعْلَمون أنه لم يَفْعَلْ شيئًا من

ذلك ، ولا من غيره ، فالطريقُ الفِطْرىُّ لإثباتِ توحيدِ الألوهيةِ : الاستدلالُ عليه بتوحيدِ الربوبيةِ ؛ فإنَّ الإنسانَ يَتَعَلَّقُ أولاً بمَصْدَرِ خلقِه ، ومَنْشأ نفعِه وضَرِّه .

ثم يَنْتَقِلُ بعدَ ذلك إلى الوسائلِ التى تُقَرِّبُه إليه ، وتُرْضِيه عنه ، وتُوثِقُ الصِّلةَ بينَه وبينَه .

فتوحيدُ الربوبيـةِ بابٌ لتوحيدِ الألوهيـةِ ؛ مِن أجلِ ذلك احْتَجَّ اللهُ على المشركين بهذه الطريقةِ ، وأمَرَ رسولَه أن يَحْتَجَّ بها عليهم ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤: ٨٩] .

وقال تعالى : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

فقد احْتَجَّ بتفرُّدِه بالربوبيةِ على استحقاقِه للعبادةِ ، وتوحيدُ الألوهيةِ : هو الذى خُلِق الخَلْقُ من أجلِه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومعنى (يَعْبُدُونِ) : يُفْرِدُونى بالعبادةِ ، ولا يَكونُ العبدُ مُوَحِّدًا بمجردِ اعترافِه بتوحيدِ الربوبيةِ ، حتى يُقِرَّ بتوحيدِ الألوهيةِ ، ويقومَ به .

وإلا فإنَّ المشركين كانوا مُقِرِّين بتوحيدِ الربوبيةِ ، ولم يُدْخِلْهم فى

الإسلامِ ، وقاتَلَهم رسولُ الله ﷺ ، وهم يُقِرُّون بأنَّ اللهَ هو الخالقُ ، الرازقُ ، المُحْيِي ، المُمِيتُ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٩] .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس : ٣١] .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ ، فمَن زعَمَ أنَّ التوحيدَ هو الإقرارُ بوجودِ اللهِ ، أو الإقرارُ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ المُتَصَرِّفُ في الكونِ ، واقْتَصَر على هذا النوعِ ، لم يَكُنْ عارفًا لحقيقةِ التوحيدِ الذى دَعَت إليه الرسلُ ؛ لأنه وقَفَ عندَ الملزومِ ، وتَرَكَ اللازمَ أو وَقَف عندَ الدليلِ ، وتَرَكَ المدلولَ عليه .

ومن خصائصِ الألوهيـةِ : الكمالُ المُطْلَقُ مِن جميعِ الوجوهِ ، الذى لا نَقْصَ فيه بوجهٍ من الوُجوهِ ، وذلك يُوجِبُ أن تكونَ العبادةُ كلُّها له وحدَه ، والتعظيمُ والإجلالُ ، والخَشْيةُ والدعاءُ ، والرجاءُ ، والإنابةُ ، والتوكُّلُ والاستغاثةُ ، وغايةُ الذلِّ مع غايةِ الحبِّ .

كلُّ ذلك يَجِبُ عقلاً وشرعًا وفِطْرةً أن يكونَ للهِ وحدَه ، ويَمْتَنِعُ عقلاً وشرعًا وفطرةً أن يكونَ لغيرِه .

* * *

٢- توحيدُ الألوهيـةِ

ويَتَضَمَّنُ الفُصولَ التاليةَ :

الفصلُ الأولُ : فى معنى توحيدِ الألوهيةِ ، وأنه موضوعُ دعْوَةِ الرسلِ .

الفصلُ الثانى : الشهادتان : معناهما - أركانُهما - شروطُهما - مُقْتَضاهما - نواقضُهما .

الفصلُ الثالثُ : فى التشريعِ : التحليلِ - التحريمِ - حقِّ اللهِ .

الفصلُ الرابعُ : فى العبادةِ : معناها - أنواعِها - شُمُولِها .

الفصلُ الخامسُ : فى بيانِ مَفاهيمَ خاطئةٍ فى تحديدِ العبادةِ (وذلك كالتقصيرِ فى مَدْلولِ العبادةِ أو الغُلُوِّ فيها) .

الفصلُ السادسُ : فى بيانِ رَكائزِ العبوديةِ الصحيحةِ : الحبِّ - الخوفِ - الخضوعِ - الرجاءِ .

الفصلُ السابعُ : فى بيانِ شُروطِ قَبولِ العبادةِ والعملِ ، وهى الإخلاصُ ومتابعةُ الشرعِ .

الفصلُ الثامنُ : فى بيانِ مَراتِبِ الدينِ ، وهى : الإسلامُ - والإيمانُ - والإحسانُ . تعريفُها ، وما بينَها من عمومٍ وخصوصٍ .

* * *

الفصلُ الأولُ

فى بيانِ معنى توحيدِ الأُلوهيـةِ، وأنه موضوعُ دَعْوةِ الرُّسُلِ

توحيدُ الألوهيـةِ: الألوهيةُ هى العبادةُ:

وتوحيدُ الألوهيـةِ هو: إفرادُ اللهِ تعالى بأفعالِ العبادِ التى يَفْعَلُونها على وجهِ التقرُّبِ المشروعِ؛ كالدعاءِ، والنذرِ، والنحرِ، والرجاءِ، والخوفِ، والتوكُّلِ، والرَّغْبةِ، والرَّهْبةِ، والإنابةِ.

وهذا النوعُ من التوحيدِ هو موضوعُ دَعْوةِ الرُّسُلِ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكلُّ رسولٍ يَبْدَأُ دعوتَه لقومِه بالأمرِ بتوحيدِ الألوهيةِ، كما قال نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وشُعَيْبٌ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وأَنْزَل على محمدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

وقال ﷺ: «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ الناسَ؛ حتى يَشْهَدوا أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ»[1].

(١) تقدم تخريجه ص ١٢١.

وأولُ واجبٍ على المُكَلَّفِ : شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ والعملُ بها ، قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] .

وأولُ ما يُؤْمَرُ به مَن يُرِيدُ الدخولَ فى الإسلامِ : النطقُ بالشهادتين ، فتبيَّنَ مِن هذا : أنَّ توحيدَ الألوهيةِ هو مقصودُ دعوةِ الرسلِ ، وسُمِّى بذلك ؛ لأنَّ الأُلوهيةَ وَصْفُ اللهِ تعالى الدالُّ عليه اسمُه تعالى (اللهُ) ، فاللهُ : ذو الأُلوهيةِ ؛ أى : المعبودُ .

ويقالُ له : توحيدُ العبادةِ ؛ باعتبارِ أن العُبُوديةَ وَصْفُ العبدِ ، حيث إنه يَجِبُ عليه أن يَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا فى ذلك ؛ لحاجتِه إلى ربِّه وفقرِه إليه .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحِمه اللهُ : واعْلَمْ أنَّ فقرَ العبدِ إلى اللهِ : أن يَعْبُدَه ، لا يُشْرِكُ به شيئًا ، ليس له نظيرٌ ، فيُقاسَ به ، لكن يُشْبِهُ مِن بعضِ الوجوهِ حاجةَ الجسدِ إلى الطعامِ والشرابِ ، وبينَهما فروقٌ كثيرةٌ ؛ فإنَّ حقيقةَ العبدِ قلبُه ورُوحُه ، وهى لا صلاحَ لها إلا بإلهِها ؛ اللهِ الذى لا إلهَ إلا هو .

فلا تَطْمَئِنُّ فى الدنيا إلا بذكرِه ، ولو حصَلَ للعبدِ لَذَّاتٌ وسُرورٌ بغيرِ اللهِ ، فلا يَدُومُ ذلك ، بل يَنْتَقِلُ من نوعٍ إلى نوعٍ ، ومِن شخصٍ إلى شخصٍ .

وأمَّا إلهُه فلا بدَّ له منه فى كلِّ حالٍ ، وكلِّ وقتٍ ، وأينَما كان فهو معَه . اهـ[١]

وكان هذا النوعُ من التوحيدِ هو موضوعَ دَعْوةِ الرسلِ ؛ لأنه الأساسُ

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٢٤.

الذى تُبْنَى عليه جميعُ الأعمالِ ، وبدونِ تحقُّقِه لا تَصِحُّ جميعُ الأعمالِ .

فإنه إذا لم يَتَحَقَّقْ حصَلَ ضدُّه ، وهو الشركُ ، وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥] .

ولأنَّ هذا النوعَ من التوحيدِ هو أولُ الحقُوقِ الواجبةِ على العبدِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآيةَ [النساء: ٣٦] ، ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآيةَ [الإسراء: ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآياتِ [الأنعام: ١٥١: ١٥٣] .

* * *

الفصلُ الثاني

في بيانِ معنى الشَّهادتَيْنِ، وما وقَعَ فيهما مِن الخطأ، وأركانِهما، وشُروطِهما، ومُقْتَضاهما، ونواقضِهما

أولاً : معنى الشهادتَيْنِ :

معنى شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ : الاعتقادُ والإقرارُ، أنه لا يَسْتَحِقُّ العبادةَ إلا اللهُ، والتزامُ ذلك، والعملُ به .

(**فلا إلهَ**) نفيٌ لاستحقاقِ مَن سِوَى اللهِ للعبادةِ كائنًا مَن كان .

(**إلا اللهُ**) إثباتٌ لاسْتِحْقاقِ اللهِ وحدَه للعبادةِ .

ومعنى هذه الكلمةِ إجمالًا : لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ، وخبرُ (لا) يَجِبُ تقديرُه : (بحقٍّ)، ولا يَجُوزُ تقديرُه بموجودٍ ؛ لأنَّ هذا خلافُ الواقعِ، فالمعبوداتُ غيرُ اللهِ موجودةٌ بكثرةٍ، فيَلْزَمُ منه أنَّ عبادةَ هذه الأشياءِ عبادةٌ للهِ .

وهذا من أبطلِ الباطلِ، وهو مذهبُ أهلِ وَحْدةِ الوجودِ، الذين هم أكفرُ أهلِ الأرضِ .

وقد فُسِّرَت هذه الكلمةُ بتفسيراتٍ باطلةٍ، منها :

(أ) أن معناها : لا معبودَ إلا اللهُ . وهذا باطلٌ ؛ لأن معناه : أنَّ كلَّ معبودٍ بحقٍّ أو باطلٍ هو اللهُ، كما سبَقَ بيانُه قريبًا .

(ب) أن معناها : لا خالقَ إلا اللهُ . وهذا جزءٌ من معنى هذه الكلمةِ ،

ولكن ليس هو المقصودَ ؛ لأنه لا يُثْبِتُ إلا توحيدَ الربوبيةِ ، وهو لا يَكْفِى ، وهو توحيدُ المشركين .

(جـ) أن معناها : لا حَاكِمِيَّةَ إلا للهِ ، وهذا أيضًا من معناها ، وليس هو المقصودَ ؛ لأنه لا يَكْفِى ؛ لأنه لو أَفْرَدَ اللهَ بالحاكميةِ فقط ، ودعا غيرَ اللهِ ، أو صَرَف له شيئًا من العبادةِ لم يَكُنْ مُوَحِّدًا .

وكلُّ هذه تَفاسِيرُ باطلةٌ أو ناقصةٌ ، وإنما نبَّهْنا عليها ؛ لأنها تُوجَدُ فى بعضِ الكتبِ المُتَداوَلةِ .

والتفسيرُ الصحيحُ لهذه الكلمةِ عندَ السلفِ والمُحَقِّقين : أن يُقالَ : (لا معبودَ بحقٍّ إلا اللهُ) كما سبَقَ .

٢- ومعنى شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللهِ : هو الاعترافُ باطنًا وظاهرًا أنه عبدُ اللهِ ورسولُه إلى الناسِ كافةً ، والعملُ بمُقْتَضَى ذلك من طاعتِه فيما أَمَر ، وتصديقِه فيما أخْبَر ، واجْتنابِ ما نَهَى عنه ، وزَجَر ، وألَّا يُعْبَدَ اللهُ إلا بما شَرَعَ .

ثانيًا : أركانُ الشهادتين :

أ- لا إلهَ إلا اللهُ : لها رُكْنانِ ، هما : النفىُ والإثباتُ :

فالركنُ الأولُ : النفىُ : « لا إلهَ » يُبْطِلُ الشركَ بجميعِ أنواعِه ، ويُوجِبُ الكفرَ بكلِّ ما يُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ .

والركنُ الثانى : الإثباتُ « إلا اللهُ » يُثْبِتُ أنه لا يَسْتَحِقُّ العبادةَ إلا اللهُ ، ويُوجِبُ العملَ بذلك .

وقد جاء معنى هذين الركنَيْنِ فى كثيرٍ من الآياتِ ، مثلَ قولِه تعالى :

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فقولُه : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ . هو معنى الركنِ الأولِ (لا إلهَ) وقولُه : ﴿ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ هو معنى الركنِ الثانى (إلا اللهُ) .

وكذلك قولُه عن إبراهيمَ عليه السلامُ : ﴿ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

فقولُه : ﴿ إِنَّنِى بَرَاءٌ ﴾ هو معنى النفيِ فى الركنِ الأولِ ، وقولُه : ﴿ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى ﴾ . هو معنى الإثباتِ فى الركنِ الثانى .

* **أركانُ شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللهِ :** لها رُكْنان ، هما قولُنا : عبدُه ورسولُه ، وهما يَنْفِيانِ الإفراطَ والتفريطَ فى حقِّه ﷺ ، فهو عبدُه ورسولُه ، وهو أكملُ الخلقِ فى هاتَيْنِ الصفتَيْنِ الشريفتَيْنِ .

ومعنى العبدِ هنا : المملوكُ العابدُ ؛ أى : أنه بشرٌ مخلوقٌ مما خُلِق منه البَشَرُ ، يَجْرِى عليه ما يَجْرِى عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد وفَّى ﷺ العبوديةَ حقَّها ، ومَدَحه اللهُ بذلك ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] ، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف: ١] ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [الإسراء: ١].

ومعنى الرسولِ : المبعوثُ إلى الناسِ كافةً بالدعوةِ إلى اللهِ بشيرًا ونذيرًا .

وفى الشهادةِ له بهاتَيْنِ الصفتَيْـنِ : نفيٌ للإفراطِ والتفريطِ فى حقِّه ﷺ ؛ فإنَّ كثيرًا ممَّن يَدَّعِي أنه من أمتِهِ أفْرَطَ فى حقِّه ، وغلا فيه ، حتى رفَعَه فوقَ مرتبةِ العبوديةِ إلى مرتبةِ العبادةِ له مِن دونِ اللهِ ، فاسْتَغاث به من دونِ اللهِ ، وطلَبَ منه ما لا يَقْدِرُ عليه إلا اللهُ ؛ مِن قضاءِ الحاجاتِ وتفريجِ الكُرُباتِ .

والبعضُ الآخَرُ جَحَدَ رسالتَه ، أو فرَّط فى متابعتِه ، واعْتَمَد على الآراءِ والأقوالِ المخالفةِ لما جاء به ، وتعَسَّف فى تأويلِ أخبارِه وأحكامِه .

ثالثًا : شروطُ الشهادَتَيْـنِ :

أ- شروطُ لا إلهَ إلا اللهُ :

لا بدَّ فى شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ من سبعةِ شروطٍ ، لا تَنْفَعُ قائلَها إلا باجتماعِها ، وهى على سبيلِ الإجمالِ :

الأولُ : العلمُ المُنافِى للجهلِ .

الثانى : اليقينُ المنافى للشَّكِّ .

الثالثُ : القَبولُ المُنافِى للردِّ .

الرابعُ : الانقيادُ المُنافِى للتركِ .

الخامسُ : الإخلاصُ المُنافِى للشركِ .

السادسُ : الصدقُ المنافى للكذبِ .

السابعُ : المحبةُ المنافيةُ لضدِّها ، وهو البَغْضاءُ[1] .

---

(١) وقد جمع الشيخ حافظ بن أحمد حكمى رحمه اللّه فى متنه « سُلَّم الوُصول » هذه =

وأما تفصيلُها فكما يلى :

الشرطُ الأولُ :

العلمُ ؛ أى : العلمُ بمعناها المرادِ منها ، وما تَنْفِيه ، وما تُثْبِتُه ، المنافى للجهلِ بذلك ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] .

أى : (شهِد) بـ « لا إلهَ إلا اللهُ » وهم يَعْلَمون بقلوبِهم ما شهِدَت به ألسنتُهم ، فلو نطَقَ بها ، وهو لا يَعْلَمُ معناها ، لم تَنْفَعْه ؛ لأنه لم يَعْتَقِدْ ما تَدُلُّ عليه .

الشرطُ الثانى :

اليقينُ ، بأن يكونَ قائلُها مُسْتَيْقِنًا بما تَدُلُّ عليه ؛ فإن كان شاكًّا بما تَدُلُّ عليه لم تَنْفَعْه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات : ١٥] .

فإن كان مُرْتابًا كان منافقًا ، وقال النبيُّ ﷺ : « مَن لقِيتَ وَراءَ هذا الحائطِ يَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ ، مُسْتَيْقِنًا بها قلبُه فبَشِّرْه بالجنةِ »[1] . فمَن

= الشروط ، فقال :

وبشروطٍ سَبْعةٍ قد قُيِّدَتْ ... وفى نصوصِ الوَحْيِ حقًّا ورَدَتْ
فإنه لم يَنْتَفِعْ قائلُها ... بالنُّطْقِ إلا حيث يَسْتَكْمِلُها
العلمُ واليقينُ والقَبُولُ ... والانْقِيادُ فادْرِ ما أقولُ
والصدقُ والإخلاصُ والمَحَبَّهْ ... وفَّقَكَ اللهُ لِمَا أحَبَّهْ

وانظر « معارج القبول بشرح سُلَّم الوصول إلى علم الأصول » للشيخ حافظ بن أحمد حكمى ٢/ ٤١٨، ٤١٩.

(١) رواه مسلم ١/ ٥٩، ٦٠ (٣١) .

لم يَسْتَيْقِنْ بها قلبُه ، لم يَسْتَحِقَّ دخولَ الجنةِ .

الشرطُ الثالثُ :

القبولُ لما اقْتَضَتْه هذه الكلمةُ من عبادةِ اللهِ وحدَه ، وتركِ عبادةِ ما سواه ، فمَن قالها ، ولم يَقْبَلْ ذلك ، ولم يَلْتَزِمْ به ، كان مِن الذين قال اللهُ فيهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات : ٣٥، ٣٦] .

وهذا كحالِ عُبَّادِ القُبورِ اليومَ ؛ فإنهم يقولون : « لا إلهَ إلا اللهُ » ، ولا يَتْرُكون عبادةَ القبورِ ، فلا يَكُونون قابِلِين لمعنى « لا إلهَ إلا اللهُ » .

الشرطُ الرابعُ :

الانقيادُ لما دَلَّت عليه ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [لقمان : ٢٢] .

والعُرْوةُ الوُثْقَى : لا إلهَ إلا اللهُ ، ومعنى : ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ ﴾ ؛ أي يَنْقَدْ للهِ بالإخلاصِ له .

الشرطُ الخامسُ :

الصدقُ : وهو أن يَقولَ هذه الكلمةَ مُصَدِّقًا بها قلبُه ، فإن قالها بلسانِه ، ولم يُصَدِّقْ بها قلبُه ، كان مُنافِقًا كاذبًا ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى قولِه : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ٨: ١٠] .

الشرطُ السادسُ :

الإخلاصُ : وهو تَصْفِيةُ العملِ مِن جميعِ شَوائبِ الشركِ ؛ بأن لا يَقْصِدَ بقولِها طَمَعًا من مَطامِعِ الدنيا ، ولا رياءً ، ولا سُمْعةً ؛ لما فى الحديثِ الصحيحِ من حديثِ عِتْبانَ ، قال : « فإنَّ اللهَ حرَّم على النارِ مَن قال : لا إلهَ إلا اللهُ ، يَبْتَغِى بذلك وجهَ اللهِ » [الحديثَ أخرَجه الشَّيخانِ[1]] .

الشرطُ السابعُ :

الـمَحَبَّةُ لهذه الكلمةِ ، ولما تَدُلُّ عليه ، ولأهلِها العاملين بمُقْتَضاها ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فأهلُ « لا إلهَ إلا اللهُ » يُحِبُّون اللهَ حُبًّا خالصًا ، وأهلُ الشركِ يُحِبُّونه ، ويُحِبُّون معَه غيرَه ، وهذا يُنافِى « لا إلهَ إلا اللهُ » .

ب – وشروطُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ هى :

١- الاعترافُ برسالتِه ، واعتقادُها باطنًا فى القلبِ .

٢- النطقُ بذلك ، والاعترافُ به ظاهرًا باللسانِ .

٣- المتابعةُ له ؛ بأن يَعْمَلَ بما جاء به من الحقِّ ، ويَتْرُكَ ما نَهَى عنه مِن الباطلِ .

٤- تصديقُه فيما أخْبَرَ به من الغُيوبِ الماضيةِ والمُسْتَقْبَلةِ .

٥- محبتُه أشدَّ مِن محبةِ النفسِ والمالِ والولدِ والوالدِ والناسِ أجمعين .

---

(١) البخارى (٤٢٥) ، ومسلم ١/٤٥٦ (٣٣) .

٦- تقديمُ قولِه على قولِ كلِّ أحدٍ ، والعملُ بسنتِه .

رابعًا : مُقْتَضَى الشهادتين :

أ - مقتضى شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ : هو تركُ عبادةِ ما سِوَى اللهِ من جميعِ المعبوداتِ ، المدلولِ عليه بالنفيِ ، وهو قولُنا : (لا إلهَ) ، وعبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، المدلولِ عليه بالإثباتِ ، وهو قولُنا : (إلا اللهُ) .

فكثيرٌ ممَّن يقولُها يُخالِفُ مُقْتَضاها ، فيُثْبِتُ الإلهيةَ المنفيةَ للمخلوقين والقبورِ والمشاهِدِ والطَّواغيتِ والأشجارِ والأحجارِ .

وهؤلاء اعْتَقَدوا أن التوحيدَ بدعةٌ ، وأنْكَرُوه على مَن دَعَاهم إليه ، وعابوا على مَن أخْلَص العبادةَ للهِ .

ب - ومُقْتَضَى شهادةِ أن محمدًا رسولُ اللهِ : طاعتُه ، وتصديقُه وتَرْكُ ما نَهَى عنه ، والاقتصارُ على العملِ بسنتِهِ ، وتَرْكُ ما عَدَاها من البدعِ والمحْدَثاتِ ، وتقديمُ قولِه على قولِ كلِّ أحدٍ .

خامسًا : نواقضُ الشهادتَيْنِ :

هى نواقضُ الإسلامِ ؛ لأنَّ الشهادتَيْنِ هنا هما اللتان يَدْخُلُ المَرْءُ بالنطقِ بهما فى الإسلامِ ، والنطقُ بهما اعْتِرافٌ بمدلولِهما ، والتزامٌ بالقيامِ بما تَقْضِيانِه ، مِن أداءِ شعائرِ الإسلامِ .

فإذا أخَلَّ بهذا الالتزامِ فقد نقَضَ التعهُّدَ الذى تعَهَّد به حينَ نطَقَ بالشهادتين .

ونواقضُ الإسلامِ كثيرةٌ قد عقَدَ لها الفقهاءُ فى كتبِ الفقهِ بابًا خاصًّا

سَمَّوْه (بابَ الرِّدَّةِ) ، وأهمُّها عشرةُ نواقِضَ ذكَرَها شيخُ الإسلامِ محمدُ ابنُ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللهُ فى قولِه :

١- الشركُ فى عبادةِ اللهِ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] .

ومنه الذبحُ لغيرِ اللهِ ؛ كالذبحِ للأضْرِحةِ ، أو الذبحِ للجنِّ .

٢- مَن جَعَل بينَه وبينَ اللهِ وَسائطَ ، يَدْعُوهم ، ويَسْأَلُهم الشفاعةَ ، ويَتَوَكَّلُ عليهم ، فإنه يَكْفُرُ إجماعًا .

٣- مَن لم يُكَفِّرِ المشركين ، ومَن يَشُكَّ فى كفرِهم ، أو صَحَّح مذهَبهم كفَرَ .

٤- مَن اعْتَقَد أنَّ هَدْىَ غيرِ النبيِّ ﷺ أكملُ مِن هَدْيِه ، أو أنَّ حُكْمَ غيرِه أحْسَنُ من حكمِه ، كالذين يُفَضِّلُون حكمَ الطَّواغيتِ على حكمِ الرسولِ ﷺ ، ويُفَضِّلون حكمَ القوانينِ على حكمِ الإسلامِ .

٥- مَن أبْغَضَ شيئًا مما جاء به الرسولُ ﷺ - ولو عَمِل به - كفَرَ .

٦- مَن اسْتَهْزَأ بشيءٍ من دينِ الرسولِ ، أو ثوابِه ، أو عقابِه كفَرَ ، والدليلُ على ذلك قولُه تعالى : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] .

٧- السحرُ ، ومنه الصرفُ والعطفُ - لعَلَّه يَقْصِدُ عَمَلَ ما يَصْرِفُ الرجلَ عن حبِّ زوجتِه ، أو عَمَلَ ما يُحَبِّبُها إليه - فمَن فَعَلَه ،

أو رضِيَ به كَفَر .

والدليلُ : قولُه تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

٨- مظاهرةُ المشركين ، ومعاونتُهم على المسلمين ، والدليلُ قولُه تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

٩- مَن اعْتَقَد أنَّ بعضَ الناسِ يَسَعُه الخروجُ عن شريعةِ محمدٍ ﷺ ، كما وَسِع الخَضِرَ الخروجُ عن شريعةِ موسى ، عليه السلامُ ، فهو كافرٌ .
قلتُ : وكما يَعْتَقِدُه غُلاةُ الصُّوفيةِ أنهم يَصِلُون إلى درجةٍ لا يَحْتَاجُون معَها إلى متابعةِ الرسولِ ﷺ .

١٠- الإعراضُ عن دينِ اللهِ ، لا يَتَعَلَّمُه ، ولا يَعْمَلُ به ، والدليلُ قولُه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣] ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢] .

قال الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ رحِمه اللهُ : لا فرقَ في جميعِ هذه النواقضِ ، بينَ الهازلِ والجادِّ والخائفِ ، إلا المُكْرَهَ ، وكلُّها مِن أعْظَمِ ما يكونُ خطرًا ، وأكثرُ ما يكونُ وُقوعًا ، فيَنْبَغِي للمسلمِ أن يَحْذَرَها ، ويَخافَ منها على نفسِه ، نَعوذُ باللهِ من مُوجِباتِ غَضَبِه ، وأليمِ عقابِه[1] .

* * *

(١) مجموعة التوحيد النجدية : ص٣٧- ٣٩.

الفصلُ الثالثُ

في التشريعِ

التشريعُ حقٌّ للهِ تعالى ، والمرادُ بالتشريعِ : ما يُنَزِّلُهُ اللهُ لعبادِه من المنهجِ الذى يَسيرون عليه فى العقائدِ والمعاملاتِ وغيرِها ، ومن ذلك التحليلُ والتحريمُ .

فليس لأحدٍ أن يُحِلَّ إلا ما أحلَّه اللهُ ، لا يُحَرِّمَ إلا ما حرَّمَه اللهُ ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [الشورى : ٢١] .

فقد نَهَى اللهُ عن التحليلِ والتحريمِ ، بدونِ دليلٍ من الكتابِ والسنةِ ، وأخبَر أنَّ ذلك من الكذبِ على اللهِ ، كما أخبَر سبحانَه أنَّ مَن أوْجَبَ شيئًا ، أو حرَّم شيئًا من غيرِ دليلٍ ، فقد جعَلَ نفسَه شريكًا للهِ فيما هو من خصائصِه ، وهو التشريعُ .

قال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

ومَن أطاع هذا المُشَرِّعَ مِن دونِ اللهِ ، وهو يَعْلَمُ بذلك ، ووافَقَه على فعلِه ، فقد أشْرَكه مع اللهِ ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

يعنى : الذين يُحِلُّون ما حرَّمَ اللهُ من الميتاتِ ، مَن أطاعهم فى ذلك فهو مشركٌ ، كما أخْبَر سبحانَه أنَّ مَن أطَاعَ الأحبارَ والرُّهْبانَ فى تحليلِ ما حرَّمَ اللهُ ، وتحريمِ ما أحَلَّه اللهُ ، فقد اتَّخَذَهم أربابًا مِن دونِ اللهِ .

قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

ولما سَمِع عدىُّ بنُ حاتمٍ - رضِى اللهُ عنه - هذه الآيةَ ، قال : يا رسولَ اللهِ ، إنَّا لسْنا نَعْبُدُهم . فقال له النبىُّ ﷺ : « أليسوا يُحِلُّون ما حرَّم اللهُ فتُحِلُّونه ، ويُحَرِّمون ما أحَلَّ اللهُ فتُحَرِّمُونَه ؟ » قال : بلى . قال : « فتلك عبادتُهم »[1] .

قال الشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ حسنٍ رحِمه اللهُ : فى الحديثِ دليلٌ على أنَّ طاعةَ الأحبارِ والرُّهْبَانِ فى معصيةِ اللهِ عبادةٌ لهم من دونِ اللهِ ، ومن الشركِ الأكبرِ الذى لا يَغْفِرُه اللهُ ، لقولِه تعالى فى آخرِ الآيةِ : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

ونظيرُ ذلك قولُه تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ

---

(١) رواه الترمذى (٣٠٩٥) ، وابن جرير ١٠/ ١١٤، والطبرانى فى الكبير ٩٢/١٧، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ١٧٤/٤ إلى ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه .
وقد حسن إسناده الشيخ الألبانى رحِمه اللّهُ فى غاية المرام (٦) .

إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

وهذا وقَعَ فيه كثيرٌ من الناسِ ، مع مَن قلَّدُوهم ؛ لعدمِ اعتبارِهم الدليلَ إذا خالَفَ المُقلَّدَ ، وهو من هذا الشركِ . انتهى[1] .

فالتزامُ شرعِ اللهِ ، وتركُ شرعِ ما سِواه ، هو مِن مُقْتَضَى لا إلهَ إلا اللهُ ، واللهُ المُستَعانُ .

* * *

(١) فتح المجيد ص ٣٧٨.

الفصلُ الرابعُ

العبادةُ : معناها ، شُمولُها

١- معنى العبادةِ :

أصلُ العبادةِ : التذلُّلُ والخضوعُ .

وفي الشرعِ : لها تَعاريفُ كثيرةٌ ، ومعناها واحدٌ .

منها : أنَّ العبادةَ هي طاعةُ اللهِ بامتثالِ ما أَمَرَ به على أَلْسِنةِ رُسُلِه .

ومنها : أن العبادةَ ، معناها : التذلُّلُ للهِ سبحانَه ، فهي : غايةُ الذلِّ للهِ تعالى مع غايةِ حُبِّه ، والتعريفُ الجامعُ لها هو أن العبادةَ : اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرْضَاه ، من الأقوالِ والأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ[1] .

وهي مُنْقَسِمةٌ على القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، فالخوفُ والرجاءُ ، والمحبةُ والتوكُّلُ ، والرغبةُ والرهبةُ : عبادةٌ قلبيةٌ ، والتسبيحُ والتهليلُ والتكبيرُ ، والحمدُ والشكرُ باللسانِ والقلبِ عبادةٌ لِسانيةٌ قلبيةٌ .

والصلاةُ والزكاةُ والحجُّ والجِهادُ : عبادةٌ بدنيةٌ قلبيةٌ ، إلى غيرِ ذلك مِن أنواعِ العبادةِ التي تَجْرِي على القلبِ واللسانِ والجوارحِ ، وهي كثيرةٌ .

والعبادةُ : هي التي خَلَقَ اللهُ الخلقَ من أجلِها ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] .

فأخْبَرَ سبحانَه أنَّ الحكمةَ مِن خَلْقِ الجنِّ والإنسِ : هي قيامُهم بعبادةِ

---

(١) هذا هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة ، وانظر مجموع الفتاوى ١٠/ ١٤٩.

اللهِ ، واللهُ غنيٌّ عن عبادتِهم ، وإنما هم المُحْتاجُون إليها لفقرِهم إلى اللهِ تعالى ، فيَعْبُدُونَه على وَفْقِ شريعتِه .

فمَن أَبَى أن يَعْبُدَ اللهَ ، فهو مُسْتَكْبِرٌ ، ومَن عَبَده وعَبَد معَه غيرَه فهو مشركٌ ، ومَن عَبَده وحدَه بغيرِ ما شَرَع فهو مُبْتَدِعٌ ، ومَن عَبَده وحْدَه بما شرَعَ فهو المؤمنُ المُوَحِّدُ .

٢- أنواعُ العبادةِ وشمولُها :

العبادةُ لها أنواعٌ كثيرةٌ ، فهي تَشْمَلُ كلَّ أنواعِ الطاعاتِ الظاهرةِ على اللسانِ والجوارحِ ، والصادرةِ عن القلبِ ؛ كالذكرِ ، والتسبيحِ ، والتهليلِ ، وتلاوةِ القرآنِ ، والصلاةِ ، والزكاةِ ، والصيامِ ، والحجِّ ، والجهادِ ، والأمرِ بالمعروفِ ، والنهيِ عن المنكرِ ، والإحسانِ إلى الأقاربِ واليَتامَى والمساكينِ وابنِ السبيلِ .

وكذلك حبُّ اللهِ ورسولِه ، وخشيةُ اللهِ ، والإنابةُ إليه ، وإخلاصُ الدينِ له ، والصبرُ لحُكْمِه ، والرضا بقضائِه ، والتوكُّلُ عليه ، والرجاءُ لرحمتِه ، والخوفُ مِن عذابِه .

فهي شاملةٌ لكلِّ تصرُّفاتِ المؤمنِ ، إذا نَوَى بها القُرْبةَ ، أو ما يُعِينُ عليها ، حتى العاداتُ ، إذا قَصَد بها التَّقَوِّيَ على الطاعاتِ ؛ كالنومِ ، والأكلِ ، والشربِ ، والبيعِ ، والشراءِ ، وطلبِ الرزقِ ، والنكاحِ ، فإنَّ هذه العاداتِ مع النيةِ الصالحةِ تَصِيرُ عباداتٍ ، يُثابُ عليها ، وليست العبادةُ قاصرةً على الشعائرِ المعروفةِ .

* * *

الفصلُ الخامسُ

فى بيانِ مفاهيمَ خاطئةٍ فى تحديدِ العبادةِ

العبادةُ توقيفيةٌ ؛ بمعنى : أنه لا يُشْرَعُ شيءٌ منها إلا بدليلٍ مِن الكتابِ والسنةِ ، وما لم يُشْرَعْ يُعْتَبَرْ بدعةً مردودةً ، كما قال النبىُّ ﷺ : « مَن عَمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ »[1] .

أى : مردودٌ عليه عملُه ، لا يُقْبَلُ منه ، بل يَأْثَمُ عليه ؛ لأنه معصيةٌ ، وليس طاعةً .

ثم إنَّ المنهجَ السليمَ فى أداءِ العباداتِ المَشْروعةِ هو الاعتدالُ ، بينَ التساهُلِ والتَّكاسُلِ ، وبينَ التشدُّدِ والغُلُوِّ ، قال تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ [هود : ١١٢] .

فهذه الآيةُ الكريمةُ فيها رَسْمٌ لخُطَّةِ المنهجِ السليمِ فى فعلِ العباداتِ ، وذلك بالاستقامةِ فى فعلِها على الطريقِ المعتدلِ ، الذى ليس فيه إفراطٌ ، ولا تفريطٌ ، حَسَبَ الشرعِ ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ .

ثم أَكَّد ذلك بقولِه : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ والطُّغْيانُ : مُجاوَزةُ الحدِّ بالتشدُّدِ والتنطُّعِ ، وهو الغلوُّ .

ولمَّا عَلِم ﷺ بأنَّ ثلاثةً من أصحابِه تَقالُّوا فى أعمالِهم ، حيث قال أحدُهم : أنا أصومُ ، ولا أُفْطِرُ ، وقال الآخَرُ : أنا أُصَلِّى ، ولا أَرْقُدُ ، وقال

---

(١) علَّقه البخارى رحمه الله فى كتاب البيوع ، باب النَّجْش ، ومن قال لا يجوز ذلك البيع ، الفتح ٣٥٥/٤، ورواه مسلم ١٣٤٤/٣ (١٧١٨)، الحديث رقم (١٨) من كتاب الأقضية .

ثالثٌ : أنا لا أَتَزَوَّجُ النساءَ ، قال ﷺ : « أمَّا أنا فأَصُومُ وأُفْطِرُ ، وأَتَزَوَّجُ النساءَ ، فمَن رغِب عن سُنَّتى فليس منى »[1] .

وهناك الآن فئتان من الناسِ على طرَفَىْ نَقِيضٍ فى أمرِ العبادةِ :

الفئةُ الأولى : قَصَّرَتْ فى مفهومِ العبادةِ ، وتَساهَلَتْ فى أدائِها حتى عطَّلَتْ كثيرًا من أنواعِها ، وقصَرَتْها على أعمالٍ محدودةٍ ، وشعائرَ قليلةٍ ، تُؤَدَّى فى المسجدِ فقط .

ولا مجالَ للعبادةِ فى البيتِ ، ولا فى المكتبِ ، ولا فى المَتْجَرِ ، ولا فى الشارعِ ، ولا فى المعاملاتِ ، ولا فى السياسةِ ، ولا فى الحكمِ فى المنازعاتِ ، ولا غيرِ ذلك من شئونِ الحياةِ .

نعم للمسجدِ فضلٌ ، ويَجِبُ أن تُؤَدَّى فيه الصلواتُ الخمسُ ، ولكنَّ العبادةَ تَشْمَلُ كلَّ حياةِ المسلمِ ، داخلَ المسجدِ وخارجَه .

الفئةُ الثانيةُ : تشَدَّدَتْ فى تطبيقِ العباداتِ إلى حدِّ التطرُّفِ ، فرَفَعَتِ المُسْتَحَبَّاتِ إلى مرتبةِ الواجباتِ ، وحرَّمَت بعضَ المباحاتِ ، وحكَمَت بالتضليلِ أو التَّخْطِئةِ على مَن خالَفَ منهجَها ، وخطَّأ مفاهيمَها .

وخيرُ الهديِ هدىُ محمدٍ ﷺ ، وشرُّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها .

* * *

(١) رواه البخارى (٥٠٦٣) ، ومسلم ٢/١٠٢٠ (١٤٠١) .

الفصلُ السادسُ

فى بيانِ رَكائزِ العبوديـةِ الصحيحةِ

إنَّ العبادةَ تَرْتَكِزُ على ثلاثِ رَكائِزَ ؛ هى : الحبُّ والخوفُ والرجاءُ .

فالحبُّ مع الذلِّ ، والخوفُ مع الرجاءِ ، لا بدَّ فى العبادةِ من اجتماعِ هذه الأمورِ ، قال تعالى : ﴿ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

وقال فى وصفِ رُسُلِه وأنبيائِه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

وقال بعضُ السلفِ : مَن عَبَدَ اللهَ بالحبِّ وحدَه فهو زِنْدِيقٌ ، ومَن عبَدَه بالرجاءِ وحْدَه فهو مُرْجِيءٌ ، ومَن عَبَدَه بالخوفِ وَحْدَه فهو حَروريٌّ[1] ، ومَن عبَدَه بالحبِّ والخوفِ والرجاءِ فهو مؤمنٌ موحِّدٌ .

ذكَرَ هذا شيخُ الإسلامِ فى رسالةِ (العُبُوديةِ)[2] .

وقال أيضًا : فدينُ اللهِ : عبادتُه وطاعتُه والخضوعُ له ، والعبادةُ أصلُ

---

(١) أى : من الخوارج ، وسُمُّوا بذلك نسبة إلى حَرُوراء ، وهى أرض كانوا قد نزلوا بها . وقد تقدمت ترجمتهم ص ٣٤ .

(٢) العبودية ص ١٥٩ ، وانظر أيضًا رسالة فى تحقيق الشكر ١/ ١١٢ ، وأمراض القلوب ١/ ٧٥ ، مجموع الفتاوى ١٠/ ٨١ ، ٢٠٧ ، ١١/ ٣٩٠ ، ١٥/ ٢١ ، والفتاوى الكبرى ١/ ٣٤١ ، ٢/ ٣٩٤ .

والزنديق لفظ فارسى مُعَرَّب ، وهو بالفارسية زَنْدِ كِرَاىْ ، وهو من يقول بدوام بقاء الدهر ، وليس فى كلام العرب زنديق ، فإذا أرادت العرب معنى ما تقول العامة قالوا : مُلْحِد ، ودَهْرِىّ ، والزنديق هو مَن ينطوى على الكفر ، ويظهر الإسلام . لسان العرب (ز ن د ق) .

معناها : الذلُّ . يقالُ : طريقٌ مُعَبَّدٌ ، إذا كان مُذَلَّلًا قد وطِئَتْه الأقدامُ .

لكنَّ العبادةَ المأمورَ بها تَتَضَمَّنُ معنى الذُّلِّ ، ومعنى الحبِّ ، فهى تَتَضَمَّنُ غايةَ الذلِّ للهِ تعالى ، بغايةِ الحبِّ له .

ومَن خضَعَ لإنسانٍ مع بُغْضِه له لا يكونُ عابدًا له ، ولو أحَبَّ شيئًا ، ولم يَخْضَعْ له لم يَكُنْ عابدًا له ، كما يُحِبُّ الرجلُ ولدَه وصديقَه .

ولهذا لا يَكْفِى أحدُهما فى عبادةِ اللهِ تعالى ، بل يَجِبُ أن يكونَ اللهُ أحبَّ إلى العبدِ مِن كلِّ شيءٍ ، وأنْ يكونَ اللهُ أعظمَ عندَه مِن كلِّ شيءٍ ، بل لا يَسْتَحِقُّ المحبةَ والخضوعَ التامَّ إلا اللهُ . انتهى[١] .

هذه ركائزُ العُبُوديةِ التى تَدُورُ عليها ، قال العَلامةُ ابنُ القيمِ فى النُّونيةِ :

وعبادةُ الرحمنِ غايةُ حُبِّهِ ... مع ذُلِّ عابدِه هما قُطْبانِ
وعليهما فَلَكُ العبادةِ دائرٌ ... ما دار حتى قامَتِ القُطْبانِ
ومدارُه بالأمرِ أمرِ رسولِه ... لا بالهَوَى والنفسِ والشيطانِ[٢]

شبَّه - رحِمه اللهُ - دَوَرانَ العبادةِ على المحبةِ والذلِّ للمحبوبِ - وهو اللهُ جلَّ وعلا - بدَوَرانِ الفَلَكِ على قُطْبَيْهِ ، وذكَرَ أنَّ دَوَرانَ فَلَكِ العبادةِ بأمرِ الرسولِ ﷺ ، وما شَرَعَه ، لا بالهَوَى ، وما تَأْمُرُ به النفسُ والشيطانُ ، فليس ذلك من العبادةِ .

فما شَرَعه الرسولُ ﷺ هو الذى يُدِيرُ فَلَكَ العبادةِ ، ولا تُدِيرُه البدعُ ، والخُرافاتُ ، والأهواءُ ، وتقليدُ الآباءِ .

(١) مجموعة التوحيد النجدية ص٥٤٩، والفتاوى الكبرى ٢/ ٣٦٣، ورسالة العبودية ص١٦، ١٧.

(٢) القصيدة النونية بشرح الشيخ محمد خليل هراس ١/ ١١١.

٣- توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ

ويَتَضَمَّنُ ما يلى :

أولًا : الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ والعقلِ على ثبوتِ الأسماءِ والصفاتِ .

ثانيًا : منهجُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى أسماءِ اللهِ وصفاتِه .

ثالثًا : الردُّ على مَن أنْكَر الأسماءَ والصفاتِ ، أو أنْكَرَ شيئًا منها .

* * *

أولًا : الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ والعقلِ على ثبوتِ الأسماءِ والصفاتِ :

أ - الأدلةُ من الكتابِ والسنةِ :

سبَقَ أن ذكَرْنا أن التوحيدَ يَنْقَسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ : توحيدُ الربوبيةِ ، وتوحيدُ الأُلوهيةِ ، وتوحيدُ الأسماءِ والصفاتِ ، وذكَرْنا جملةً من الأدلةِ على النوعَيْنِ الأوَّلَيْنِ : توحيدِ الربوبيةِ ، وتوحيدِ الأُلوهيةِ .

والآنَ نَذْكُرُ الأدلةَ على النوعِ الثالثِ ، وهو توحيدُ الأسماءِ والصفاتِ .

فإليك شيئًا من أدلةِ الكتابِ والسنةِ :

فمن أدلةِ الكتابِ : قولُه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

أثْبَتَ اللهُ سبحانَه فى هذه الآيةِ لنفسِه الأسماءَ ، وأخْبَرَ أنها حُسْنَى ، وأمَرَ بدعائِه ، بأن يُقالَ : يا اللهُ ، يا رحمنُ ، يا رحيمُ ، يا حيُّ ، يا قيومُ ، يا ربَّ العالمين .

وتوَعَّد الذين يُلْحِدُون فى أسمائِه ، بمعنى أنهم يَمِيلُون بها عن الحقِّ ؛ إما بنفيِها عن اللهِ ، أو تأويلِها بغيرِ معناها الصحيحِ ، أو غيرِ ذلك من أنواعِ الإلحادِ ، توَعَّدَهم بأنه سيُجازِيهم بعملِهم السيِّئِ .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [طه : ٨] ،

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢: ٢٤].

فدلَّتْ هذه الآياتُ على إثباتِ الأسماءِ للهِ.

٢- ومن الأدلةِ على ثُبوتِ أسماءِ اللهِ من سنةِ الرسولِ ﷺ : ما رواه أبو هُريرةَ رضِى اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: « إن للهِ تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، مَن أحْصَاها دخَلَ الجنةَ »[1].

وليست أسماءُ اللهِ مُنْحَصِرةً فى هذا العددِ، بدليلِ ما رواه عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضِى اللهُ عنه، أنَّ النبىَّ ﷺ قال: « أَسْأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هو لكَ، سمَّيْتَ به نفسَك، أو أنْزَلْتَهُ فى كتابِكَ، أو علَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِك، أو اسْتَأْثَرْتَ به فى علمِ الغيبِ عندَك، أن تَجْعَلَ القُرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبى ... » الحديثَ[2].

---

(١) البخارى (٦٤١٠)، ومسلم ٤/٢٠٦٣ (٢٦٧٧)، الحديث رقم (٦) من كتاب الذكر والدعاء.

(٢) رواه أحمد ١/٣٩١ (٣٧١٢)، وأبو يعلى فى مسنده ٩/١٩٩ (٥٢٩٧)، والحاكم فى المستدرك ١/ ٥٠٩، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٣٤٢)، والبزار فى مسنده، وانظر كشف الأستار ٤/٣١ (٣١٢٢).

وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٦: ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح، غير أبى سلمة الجُهَنى، وقد وثقه ابن حبان. =

وكلُّ اسمٍ من أسماءِ اللهِ ، فإنه يَتَضَمَّنُ صفةً من صفاتِه ؛ فالعليمُ يَدُلُّ على العلمِ ، والحكيمُ يَدُلُّ على الحكمةِ ، والسميعُ البصيرُ يَدُلان على السمعِ والبصرِ ، وهكذا كلُّ اسمٍ يَدُلُّ على صفةٍ من صفاتِ اللهِ تعالى ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١ : ٤] .

عن أنسٍ رضِى اللهُ عنه قال : كان رجلٌ من الأنصارِ يَؤُمُّهم فى مسجدِ قُباءٍ ، فكان كُلَّما افْتَتَح سورةً يَقْرَأُ بها لهم فى الصلاةِ مما يَقْرَأُ به ؛ افْتَتَح بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، حتى يَفْرُغَ منها ، ثم كان يَقْرَأُ سورةً أخرى معَها ، وكان يَصْنَعُ ذلك فى كلِّ ركعةٍ .

فكلَّمه أصحابُه ، فقالوا : إنك تَفْتَتِحُ بهذه السورةِ ، ثم لا تَرَى أنها تُجْزِئُك حتى تَقْرَأَ بالأخرى ! فإمَّا أن تَقْرَأَ بها ، وإما أن تَدَعَها ، وتَقْرَأَ بالأخرى .

فقال : ما أنا بتارِكِها ، إن أحْبَبْتُم أن أَؤُمَّكم بذلك فعَلْتُ ، وإن كرِهْتُم ترَكْتُكم . وكانوا يَرَوْنَ أنه من أفضلِهم ، وكرِهوا أن يَؤُمَّهم غيرُه .

فلمَّا أتاهم النبىُّ ﷺ أخْبَروه الخبرَ ، فقال : « يا فلانُ ، ما يَمْنَعُك أن تَفْعَلَ ما يَأْمُرُك به أصحابُك ؟ وما حمَلَك على لُزومِ هذه السورةِ فى كلِّ ركعةٍ ؟ » .

= وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى شرح المسند : إسناده صحيح . اهـ
وقد دلَّ على عدم حصر أسماء الله فى تسعة وتسعين ، فيكون المراد بالحديث - والله أعلم - أن مَن تعلَّم هذه الأسماء التسعة والتسعين ، ودعا الله بها ، وعبده بها دخل الجنة ، ويكون ذلك خاصية لها .

قال : إنّي أُحِبُّها .

قال : « حُبُّك إياها أَدْخَلَكَ الجنةَ »[(١)] .

وعن عائشةَ رضِى اللهُ عنها ، أنَّ النبيَّ ﷺ بعَثَ رجلًا على سَرِيَّةٍ ، وكان يَقْرَأُ لأصحابِه فى صلاتِهم ، فيَخْتِمُ بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، فلمَّا رَجَعوا ذكَرُوا ذلك للنبيِّ ﷺ فقال : « سَلُوه : لأىِّ شىءٍ يَفْعَلُ ذلك ؟ » فسأَلُوه ، فقال : لأنها صفةُ الرحمنِ ، وأنا أُحِبُّ أن أَقْرَأَ بها .

فقال النبيُّ ﷺ : « أَخْبِرُوه أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّه »[(٢)] .

يعنى : أنها اشْتَمَلَت على صفاتِ الرحمنِ .

وقد أخْبَر سبحانَه أنَّ له وجهًا ، فقال : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

وأن له يَدَيْنِ ، فقال : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص : ٧٥] ، ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وأنه يَرْضَى ويُحِبُّ ويَغْضَبُ ويَسْخَطُ ، إلى غيرِ ذلك مما وَصَفَ اللهُ به نفسَه ، أو وَصَفَه به رسولُه ﷺ .

ب – وأما الدليلُ العقلىُّ على ثُبوتِ الأسماءِ والصفاتِ التى دلَّ عليها الشرعُ فهو أن يُقالَ :

١ – هذه المخلوقاتُ العظيمةُ على تَنَوُّعِها ، واختلافِها ، وانْتِظامِها فى

---

(١) البخارى (٧٧٤) .

(٢) رواه البخارى (٧٣٧٥) ، ومسلم ١/٥٥٧ (٨١٣) ، وابن حبان ٣/٧٣ (٧٩٣) .

أداءِ مصالحِها ، وسَيْرِها فى خُطَطِها المرسومةِ لها ، تَدُلُّ على عظمةِ اللهِ وقدرتِه ، وعلمِه وحكمتِه ، وإرادتِه ومشيئتِه .

٢- الإنعامُ والإحسانُ ، وكشفُ الضُّرِّ ، وتَفْريجُ الكُرُباتِ ؛ هذه الأشياءُ تَدُلُّ على الرحمةِ والكرمِ والجُودِ .

٣- والعقابُ والانتقامُ من العُصاةِ يَدُلانِ على غَضَبِ اللهِ عليهم وكراهِيَتِه لهم .

٤- وإكرامُ الطائعين وإثابتُهم يَدُلان على رضا اللهِ عنهم ، ومحبتِه لهم .

* * *

ثانيًا : منهجُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى أسماءِ اللهِ وصفاتِه :

منهجُ أهلِ السنةِ والجماعةِ ؛ من السلفِ الصالحِ وأتباعِهم : إثباتُ أسماءِ اللهِ وصفاتِه ، كما وَرَدَت فى الكتابِ والسنةِ ، ويَنْبَنِى منهجُهم على القواعدِ التاليةِ :

١- أنهم يُثْبِتُون أسماءَ اللهِ وصفاتِه ، كما وَرَدَت فى الكتابِ والسنةِ على ظاهرِها ، وما تَدُلُّ عليه ألفاظُها من المعانى ، ولا يُؤَوِّلُونها عن ظاهِرِها ، ولا يُحَرِّفُونَ ألفاظَها ودَلالتَها عن مواضعِها .

٢- يَنْفُون عنها مُشابَهَةَ صفاتِ المخلوقين ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

٣- لا يَتَجاوَزُون ما ورَدَ فى الكتابِ والسنةِ فى إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه ، فما أثْبَتَه اللهُ ورسولُه من ذلك أثْبَتُوه ، وما نفاه اللهُ ورسولُه نفَوْه ، وما سَكَت عنه اللهُ ورسولُه سَكَتُوا عنه .

٤- يَعْتَقِدون أنَّ نصوصَ الأسماءِ والصفاتِ من المُحْكَمِ الذى يُفْهَمُ معناه ويُفَسَّرُ ، وليست من المُتَشابِهِ ؛ فلا يُفَوِّضُون معناها ، كما يَنْسُبُ ذلك إليهم مَن كذَبَ عليهم ، أو لم يَعْرِفْ منهجَهم ، من بعضِ المؤلِّفين والكُتَّابِ المعاصِرين .

٥- يُفَوِّضون كيفيةَ الصفاتِ إلى اللهِ تعالى ، ولا يَبْحَثون عنها .

* * *

ثالثًا : الردُّ على مَن أنْكَر الأسماءَ والصفاتِ، أو أنْكَر بعضَها :

الذين يُنْكِرون الأسماءَ والصفاتِ ثلاثةُ أصنافٍ :

١- الجهميةُ(١) : وهم أتباعُ الجَهْمِ بنِ صَفْوانَ ، وهؤلاء يُنْكِرون الأسماءَ والصفاتِ جميعًا .

٢- المعتزلةُ(٢) : وهم أتباعُ واصلِ بنِ عطاءٍ ، الذى اعْتَزَل مجلسَ الحسنِ البصرىِّ ، وهؤلاء يُثْبِتون الأسماءَ على أنها ألفاظٌ مُجَرَّدةٌ عن المعانى ، ويَنْفُون الصفاتِ كلَّها .

٣- الأشاعرةُ(٣) والماتوريديةُ ، ومَن تَبِعَهم : وهؤلاء يُثْبِتون الأسماءَ وبعضَ الصفاتِ ، ويَنْفُون بعضَها .

والشُّبْهةُ التى بَنَوْا عليها جميعًا مذاهبَهم : هى الفرارُ من تشبيهِ اللهِ بخلقِه بزعمِهم ؛ لأنَّ المخلوقين يُسَمَّوْنَ ببعضِ تلك الأسماءِ ، ويُوصَفُونَ بتلك الصفاتِ ، فيَلْزَمُ مِن الاشتراكِ فى لفظِ الاسمِ والصفةِ ومعناهما : الاشتراكُ فى حقيقتِهما ، وهذا يَلْزَمُ منه تشبيهُ المخلوقِ بالخالقِ فى نظرِهم . **والْتَزَمُوا حِيالَ ذلك أحدَ أمْرَيْنِ :**

أ - إما تأويلُ نصوصِ الأسماءِ والصفاتِ عن ظاهرِها ؛ كتأويلِ الوجهِ بالذاتِ ، واليدِ بالنعمةِ .

---

(١) تقدمت ترجمة الجهمية ص ٣٦، ٣٧ .

(٢) تقدمت ترجمة المعتزلة ص١٤٢ .

(٣) تقدمت ترجمة الأشاعرة ص٥٩ .

ب – وإما تفويضُ معانى هذه النصوصِ إلى اللهِ ، فيقولون : اللهُ أعلمُ بمرادِه منها ، مع اعتقادِهم أنها ليست على ظاهرِها .

وأولُ مَن عُرِف عنه إنكارُ الأسماءِ والصفاتِ بعضُ مشركى العربِ ، الذين أنْزَل اللهُ فيهم قولَه تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد : ٣٠] .

وسببُ نزولِ هذه الآيةِ : أن قريشًا لمَّا سمِعَتْ رسولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرحمنَ ، أنْكَروا ذلك ، فأنْزَلَ اللهُ فيهم : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ .

وذكَر ابنُ جَريرٍ أنَّ ذلك كان فى صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ ، حينَ كتَب الكاتبُ فى قضيةِ الصُّلْحِ الذى جَرَى بينَهم وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فقالت قريشٌ : أمَّا الرحمنُ فلا نَعْرِفُهُ[1] .

وروَى ابنُ جَريرٍ أيضًا ، عن ابنِ عباسٍ : كان رسولُ اللهِ ﷺ يَدْعُو ساجدًا يقولُ : « يا رحمنُ يا رحيمُ » . فقال المشرِكون : هذا يَزْعُمُ أنه يَدْعُو واحدًا ، وهو يَدْعُو مُثَنًّى ، فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[2] [الإسراء : ١١٠] .

وقال تعالى فى سورةِ الفُرْقانِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان : ٦٠] .

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره ١٣/ ١٥٠، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ٦٥٠ إلى ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ .

(٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره ١٥/ ١٨٢ .

فهؤلاء المشركون هم سَلَفُ الجَهْمِيةِ ، والمعتزلةِ ، والأشاعرةِ ، وكلِّ مَن نَفَى عن اللهِ ما أثْبَتَه لنفسِه ، أو أثْبَتَه له رسولُه ﷺ من أسماءِ اللهِ وصفاتِه ، وبِئْسَ السَّلَفُ لِبِئْسَ الخَلَفُ[1] .

والردُّ عليهم من وجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى أثْبَتَ لنفسِه الأسماءَ والصفاتِ ، وأثْبَتَها له رسولُه ﷺ ، فنَفْيُها عن اللهِ ، أو نَفْيُ بعضِها نفيٌ لما أَثْبَتَه اللهُ ورسولُه ، وهذا مُحادَّةٌ للهِ ورسولِه .

الوجهُ الثاني : أنه لا يَلْزَمُ من وجودِ هذه الصفاتِ في المخلوقِينَ ، أو مِن تَسَمِّي بعضِ المخلوقين بشيءٍ من تلك الأسماءِ ، المُشابَهةُ بينَ اللهِ وخلقِه ؛ فإنَّ للهِ سبحانَه أسماءً وصفاتٍ تَخُصُّه ، وللمخلوقين أسماءٌ وصفاتٌ تَخُصُّهم .

---

(١) أدخل الشيخ حفظه الله هنا حرف الجر « اللام » على « بئس » وهى فعل ، والقاعدة عند النحاة أن حرف الجر لا يدخل إلا على الأسماء .
ويمكن أن يجاب على ذلك بأحد جوابين :
الجواب الأول : أن يقال : إن مذهب الشيخ حفظه الله أن « بئس » اسم ، وليست فعلًا ، وهذا هو مذهب الفراء وجماعة من الكوفيين ، واستدلوا على ذلك بدخول حرف الجر على « بئس » فى قول بعضهم ، وقد سار إلى محبوبته على حمار بطيء السير : نعم السَّيْرُ على بئسَ العَيْرُ . وهذا القول مرجوح ، فالراجح أن « بئس » فعل ، وليست اسمًا ؛ بدليل اتصال تاء التأنيث الساكنة بها ، تقول : بئست المرأةُ حَمَّالة الحطب .
الجواب الثانى : أن يُؤَوَّلَ كلام الشيخ على حذف الموصوف وصفته ، وإقامة معمول الصفة مقامهما ، والتقدير : بئس السَّلفُ لخَلَفٍ مَقُولٍ فيهم بِئْسَ الخَلَفُ . فحرَف الجر فى الحقيقة إنما دخل على اسم محذوف كما بينا . وانظر شرح قطر الندى ص١٩ .

فكما أنَّ للهِ سبحانَه وتعالى ذاتًا لا تُشْبِهُ ذواتِ المخلوقين ، فله أسماءٌ وصفاتٌ لا تُشْبِهُ أسماءَ المخلوقين وصفاتِهم ، والاشتراكُ فى الاسمِ والمعنى العامِّ لا يُوجِبُ الاشتراكَ فى الحقيقةِ ، فقد سَمَّى اللهُ نفسَه عليمًا ، حليمًا ، وسَمَّى بعضَ عبادِه عليمًا ، فقال : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] ، يعنى : إسحاقَ .

وسَمَّى آخرَ حَلِيمًا ، فقال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] ، يعنى : إسماعيلَ ، وليس العليمُ كالعليمِ ، ولا الحليمُ كالحليمِ .

وسَمَّى نفسَه ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] ، وسمَّى بعضَ عبادِه سميعًا بصيرًا ، فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢] ، وليس السميعُ كالسميعِ ، ولا البصيرُ كالبصيرِ .

وسمَّى نفسَه بالرؤوفِ الرحيمِ فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وسمَّى بعضَ عبادِه رؤوفًا رحيمًا ، فقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وليس الرؤوفُ كالرؤوفِ ، ولا الرحيمُ كالرحيمِ .

وكذلك وصَفَ نفسَه بصفاتٍ ، ووصَفَ عبادَه بنظيرِ ذلك ، مثلَ قولِه : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] فوصَفَ نفسَه بالعلمِ ، ووصَفَ عبادَه بالعلمِ ، فقال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وقال : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [القصص : ٨٠] .

ووصَفَ نفسَه بالقوةِ ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

ووصَفَ عبادَه بالقوةِ فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : ٥٤] ، إلى غيرِ ذلك .

ومعلومٌ أنَّ أسماءَ اللهِ وصفاتِه تَخُصُّه ، وتَلِيقُ به ، وأسماءَ المخلوقين تَخُصُّهم وتَلِيقُ بهم ، ولا يَلْزَمُ من الاشتراكِ فى الاسمِ والمعنى الاشتراكُ فى الحقيقةِ ؛ وذلك لعدمِ التماثُلِ بينَ المُسَمَّيَيْنِ والموصوفَيْنِ ، وهذا ظاهرٌ ، والحمدُ للهِ .

الوجهُ الثالثُ : أنَّ الذى ليس له صفاتُ كمالٍ ، لا يَصْلُحُ أن يكونَ إلهًا ؛ ولهذا قال إبراهيمُ لأبيه : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ [مريم : ٤٢] .

وقال تعالى فى الردِّ على الذين عبَدُوا العِجْلَ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

الوجهُ الرابعُ : أنَّ إثباتَ الصفاتِ كمالٌ ، ونَفْيَها نَقْصٌ ، فالذى ليس له صفاتٌ ، إما معدومٌ وإما ناقصٌ ، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن ذلك .

الوجهُ الخامسُ : أنَّ تأويلَ الصفاتِ عن ظاهرِها لا دليلَ عليه ، فهو باطلٌ ، وتفويضُ معناها يَلْزَمُ منه أنَّ اللهَ خاطَبَنا فى القرآنِ بما لا نَفْهَمُ

معناه ، مع أنه أمَرَنا أن نَدْعُوَه بأسمائِه ، فكيف نَدْعُوه بما لا نَفْهَمُ معناه ؟ وأمَرَنا بتدبُّرِ القرآنِ كلِّه ، فكيف يَأْمُرُنا بتدبُّرِ ما لا يُفْهَمُ معناه ؟

فتبيَّنَ مِن هذا أنه لا بدَّ مِن إثباتِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه على الوجهِ اللائقِ باللهِ ، مع نَفْيِ مُشابَهةِ المخلوقين ، كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

فنَفَى عن نفسِه مُماثَلةَ الأشياءِ ، وأثْبَتَ له السمعَ والبصرَ ، فدلَّ على أنَّ إثباتَ الصفاتِ لا يَلْزَمُ منه التشبيهُ ، وعلى وُجوبِ إثباتِ الصفاتِ مع نفيِ المشابهةِ ، وهذا معنى قولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى النفيِ والإثباتِ فى الأسماءِ والصفاتِ : إثباتٌ بلا تمثيلٍ ، وتَنْزيهٌ بلا تعطيلٍ[1] .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّهُ فى مجموع الفتاوى ٤٨/٣ - ٥٢ : إن كثيرًا من الناس يتوهم فى بعض الصفات أو كثير منها ، أو أكثرها ، أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين ، ثم يريد أن ينفى ذلك الذى فهمه ، فيقع فى أربعة أنواع من المحاذير :

أحدها : كونه مثَّل ما فهِمه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل .

الثانى : أنه إذا جعل ذلك هو مفهومَها ، وعطَّله بَقِيت النصوص مُعَطَّلة عما دلَّت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله .

فيبقى مع جنايته على النصوص وظنه السيئ الذى ظنه باللَّه ورسوله ، قد عطَّل ما أودع الله ورسوله فى كلامهما من إثبات الصفات لله ، والمعانى الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى .

الثالث : أنه ينفى تلك الصفات عن الله عز وجل بغير علم ، فيكون مُعَطِّلًا لما يستحقه الرب .

الرابع : أنه يصفُ الربَّ بنقيضِ تلك الصفاتِ ، من صفات الأموات والجمادات ، أو صفات المعدومات ، فيكون قد عطَّل به صفات الكمال التى يستحقها الرب ، ومثَّله بالمنقوصات والمعدومات ، وعطَّل النصوص عمَّا دلَّت عليه من الصفات ، وجعل =

....

= مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات ، فيجمع فى كلام الله وفى الله بين التعطيل والتمثيل ، فيكون مُلْحِدًا فى أسماء الله وآياته .

مثال ذلك : أن النصوص كلها دلت على وصف الإله بالعلو والفوقية على المخلوقات ، واستوائه على العرش .

فأما علوه ومباينته للمخلوقات فيُعْلَم بالعقل الموافق للسمع ، وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع ، وليس فى الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخلَ العالمِ ، ولا خارجه ، ولا مُباينه ، ولا مُداخلَه .

فيظن المتوهِّم أنه إذا وُصِف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام ؛ كقوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ .

فيُخَيَّلُ له أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه ، كحاجة المستوى على الفلك والأنعام ، فلو غَرِقَت السفينة لسقط المستوى عليها ، ولو عَثَرَت الدابة لخَرَّ المستوى عليها ، فقياس هذا أنه لو عُدِم العرش لسقَط الربُّ سبحانه وتعالى .

ثم يريد بزعمه أن ينفى هذا ، فيقول : ليس استواؤه بقعود ، ولا استقرار ، ولا يعلم أن مسمى القعود والاستقرار يقال فيه ما يقال فى مسمى الاستواء ، فإن كانت الحاجة داخلة فى ذلك فلا فرق بين الاستواء ، والقعود ، والاستقرار ، وليس هو بهذا المعنى مستويًا ، ولا مستقرًا ، ولا قاعدًا ، وإن لم يدخل فى مسمى ذلك إلا ما يدخل فى مسمى الاستواء ، فإثبات أحدهما ، ونفى الآخر تحكم .

وقد عُلِم أن بين مُسَمَّى الاستواء والاستقرار والقعود فروقًا معروفة ، ولكنَّ المقصود هنا أن يُعْلَمَ خطأُ مَن ينفى الشىء ، مع إثبات نظيره ، وكأنَّ هذا الخطأ من خطئه فى مفهوم استوائه على العرش ، حيث ظن أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك ، وليس فى هذا اللفظ ما يدل على ذلك ؛ لأنه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة ، كما أضاف إليه سائر أفعاله وصفاته .

فذكر أنه خلق ، ثم استوى ، كما ذكر أنه قدَّر فهدى ، وأنه بنى السماء بأيدٍ ، وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى ، وأمثال ذلك ، فلم يذكر استواء مطلقًا يصلح =

....

= للمخلوق ، ولا عامًّا يتناول المخلوق ، كما لم يذكر مثل ذلك فى سائر صفاته ، وإنما ذكر استواء أضافه إلى نفسه الكريمة .
فلو قُدِّر – على وجه الفرض الممتنع – أنه هو مثل خلقه – تعالى عن ذلك – لكان استواؤه مثل استواء خلقه ، أمَّا إذا كان هو ليس مماثلًا لخلقه ، بل قد عُلِم أنه الغنى عن الخلق ، وأنه الخالق للعرش ولغيره ، وأنَّ كلَّ ما سواه مفتقر إليه ، وهو الغنى عن كل ما سواه ، وهو لم يذكر إلا استواء يخصه ، لم يذكر استواء يتناول غيره ، ولا يصلح له – كما لم يذكر فى علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختص به – فكيف يجوز أن يُتَوَهَّم أنه إذا كان مستويًا على العرش كان مُحتاجًا إليه ، وأنه لو سقط العرش لَخَرَّ مَن عليه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرًا .
هل هذا إلا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه ، أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله ، أو جوَّز ذلك على ربِّ العالمين الغنيِّ عن الخلق ؟ بل لو قُدِّر أن جاهلًا فهم مثل هذا وتوهمه لَبُيِّن له أن هذا لا يجوز ، وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلًا ، كما لم يدل على نظائره فى سائر ما وصف به الرب نفسه .
فلما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ . فهل يتوهم متوهِّم أن بناءه مثل بناء الآدمى المحتاج ، الذى يحتاج إلى زِنْبِيل(*) ، ومَجَارِف(**) وضَرْب لَبِن ، وجبل طين ، وأعوان ؟
ثم قد عُلِم أن اللَّه تعالى خلق العالم بعضه فوق بعض ، ولم يجعل عاليَه مفتقرًا إلى سافله ، فالصواء فوق الأرض ، وليست مفتقرًا إلى أن تحمله الأرض ، والسحاب أيضًا فوق الأرض ، وليس مفتقرًا إلى أن تحمله ، والسماوات فوق الأرض ، وليست مفتقرة إلى حمل الأرض لها ، فالعلى الأعلى رب كل شىء ومَلِيكه إذا كان فوق جميع خلقه كيف يجب أن يكون محتاجًا إلى خلقه أو عرشه ؟ ! أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار ، وهو ليس بمسْتَلْزَم فى المخلوقات ؟ وقد علم أن ما ثبت لمخلوق من الغِنَى عن غيره فالخالق =

(*) الزِّنْبِيل : كـ« قِنْدِيل » ، وقد يُفْتَح : القُفَّة ، أو الجِراب ، أو الوعاء . القاموس المحيط (ز ب ل) .
(**) مَجارِف : جمعُ مِجْرَف ، وهو أداة الجَرْف . المعجم الوسيط (ج ر ف) .

....

= سبحانه وتعالى أحق به وأولى . اهـ

وقال الشيخ عمر بن سليمان الأشقر في كتابه العقيدة فى الله ص ٢٤٦: القاعدة السادسة : التعطيل سببه اعتقاد التشبيه أولًا :

وقد وضَّح هذه القاعدة العَلَّامة الشيخ محمد الأمين الشّنْقِيطى رحمه اللّه تعالى ، وبيَّن أن أصل البلاء وأُسَّه هو تنجس القلب وتلطُّخُه وتدنُّسه بأقذار التشبيه ، فإذا سمع ذو القلب المتنجس بأقذار التشبيه صفة من صفات الكمال ، التى أثْنَى اللّهُ بها على نفسه ؛ كنزوله إلى سماء الدنيا فى ثلث الليل الأخير ، وكاستوائه على عرشه ، وكمجيئه يوم القيامة ، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال فإن أول ما يَخْطُر فى ذهنه أن هذه الصفة تشبه صفة الخلق ، فيكون قلبه متنجسًا بأقذار التشبيه ، لا يَقْدُرُ الله حق قدره ، ولا يعظم الله حق عظمته ، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق ، فيكون أولًا نجس القلب ، متقذرًا بأقذار التشبيه ، فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفى صفة الخالق جل وعلا عنه ، بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق ، فيكون أولًا مُشَبِّهًا ، وثانيًا مُعَطِّلًا ، فصار ابتداءً وانتهاءً مُتَهَجِّمًا على رب العالمين ، ينفى صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق به .

وذكر الشيخ(*) رحمه اللّه تعالى قاعدة أصولية أطبق عليها من يُعْتَدُّ به من أهل العلم ، وهى أن النبى ﷺ لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ولا سيما فى العقائد .

ولو مشينا على فرضهم الباطل أن ظاهر آيات الصفات الكفر(**) ، فالنبى ﷺ لم يؤول الاستواء بالاستيلاء ، ولم يؤول شيئًا من هذه التأويلات ، ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبى ﷺ إلى بيانها ؛ لأنه لا يجوز فى حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة .

وبيَّن الشيخ(*) رحمه اللّهُ تعالى أن الواجب على المسلم إذا سمع وصفًا وصَف به خالقُ السماوات والأرض نفسَه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، أن يملأ صدره من التعظيم ، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والشرف والعلو ما يقطع جميعَ =

(*) أى : الشنقيطى رحمه الله تعالى .

(**) لأن ظاهرها – على زعمهم – هو التمثيل ، وتمثيل الله بخلقه كفر ، كما ورد ذلك عن نعيم بن حماد الخزاعى .

....

* * *

= علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ، فيكون القلب مُنَزِّهًا معظِّمًا له جَلَّ وعلا ، غير متنجس بأقذار التشبيه ، فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدَّح بها ، وأثنى عليه بها نبيه ﷺ ، على غِرَار قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

والشر كل الشر في عدم تعظيم اللّه ، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق ، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الخائنة . اهـ



البابُ الثالثُ :

فى بيانِ الشركِ ، والانحرافِ فى حياةِ البشريَّةِ ولمحةٌ تاريخيَّةٌ عن الكفرِ والإلحادِ والشركِ والنفاقِ

ويَتَضَمَّنُ الفصولَ التالِيَةَ :

الفصلُ الأولُ : الانحرافُ فى حياةِ البشريـةِ .

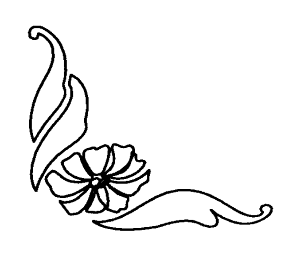
الفصلُ الثانِى : الشركُ ؛ تعريفُه وأنواعُه .

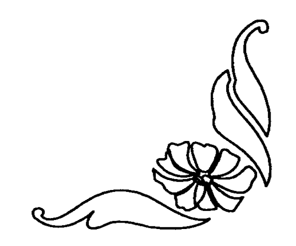
الفصلُ الثالثُ : الكفرُ ؛ تعريفُهُ وأنواعُه .

الفصلُ الرابعُ : النفاقُ ؛ تعريفُه وأنواعُه .

الفصلُ الخامسُ : بيانُ حقيقةِ كلٍّ من :

الجاهليـةِ ، الفِسْقِ ، الضلالِ ، الرِّدَّةِ ؛ أقسامِها وأحكامِها .





الفصلُ الأولُ :

الانحرافُ فى حياةِ البشريَّةِ

خلَق اللَّهُ الخلقَ لعبادتِهِ ، وهَيَّأَ لهم ما يُعِينُهم عليها من رزقِهِ . قال تعالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨] .

والنفسُ بفِطرتِها إذَا تُرِكَتْ كانَتْ مُقِرَّةً للَّهِ بالإلهيةِ ، مُحِبَّةً للَّهِ ، تَعْبُدُهُ، لا تُشْرِكُ به شَيْئًا ، ولكِنْ يُفْسِدُهَا ويَنحَرِفُ بِها عن ذلك ما يُزَيِّنُ لها شَياطينُ الإنسِ والجِنِّ بمَا يُوحِى بَعْضُهم إلى بَعْضٍ زُخْرفَ القولِ غُرورًا .

فالتَّوْحِيدُ مَركوزٌ فى الفِطَرِ ، والشِّرْكُ طارِئٌ ودَخيلٌ عليهَا .

قال تعالَى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] .

وقال ﷺ : « كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ ، فأَبواهُ يُهَوِّدَانِه ، أو يُنَصِّرَانِه ، أو يُمَجِّسانِه »[1] . فالأصلُ فى بنى آدمَ التَّوحيدُ .

والدينُ : هو الإسلامُ من عهدِ آدمَ عليه السلامُ ، ومَن جاء بعدَه من ذريتِه قرونًا طويلةً ، قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

وأولَ ما حدَث الشركُ والانحرافُ عن العقيدةِ الصحيحةِ فى قومِ نوحٍ ، فكان عليه السلامُ أولَ رسولٍ إلى البشريةِ ، بعدَ حدوثِ الشركِ فيها :

(١) تقدم تخريجه ص ١٤٤ .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ [النساء: ١٦٣].

قال ابنُ عباسٍ : كانَ بينَ آدمَ ونوحٍ عليهما السلامُ عشرةُ قرونٍ ، كلُّهم على الإسلامِ[١] .

قال ابنُ القيِّم : وهذا القولُ هو الصوابُ قطعًا ؛ فإنَّ قراءةَ أُبَيِّ بنِ كعبٍ – يَعنى : فى آيةِ البقرةِ – : « فاخْتَلَفُوا فبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ »[٢] .

ويشهدُ لهذه القراءةِ قولُه تعالى فى سورةِ يونُسَ : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ [يونس: ١٩].

يُرِيدُ رحِمَه اللَّهُ أن بِعْثَةَ النَّبِيِّينَ سببُها الاختلافُ عمَّا كانوا عليه من الدينِ الصحيحِ ، كما كانت العربُ بعدَ ذلك على دينِ إبراهيمَ عليه السلامُ حتَّى جاءَ عمرُو بنُ لُحَيٍّ الخُزاعيُّ ، فغَيَّرَ دينَ إبراهيمَ ، وجلَب الأصنامَ إلى أرضِ العربِ ، وإلى أرضِ الحجازِ بصفةٍ خاصةٍ ، فعُبِدَتْ من دونِ اللَّهِ[٣].

وانتَشَر الشركُ فى هذهِ البلادِ المقدسةِ ، وما جاورها ، إلى أنْ بعَث اللَّهُ

---

(١) رواه الطبرانى فى تفسيره ٢/ ٣٣٤، والحاكم في مستدركه ٢/ ٤٨٠، ٥٩٦، كلاهما عن ابن عباس ، ولكن بلفظ : كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخارى ، ولم يُخرِّجاه .

ورواه الطبرى أيضًا فى تفسيره ٢٩/ ٩٩، عن عكرمة ، ولفظه : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام .

(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٠٢.

(٣) انظر أخبار مكة للأزرقى ٥/ ١٦١، ومعجم البلدان ٥/ ٣٦٨.

نَبِيَّه محمدًا خاتَمَ النَّبِيِّينَ ، فدعَا الناسَ إلى التوحيدِ واتباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ ، وجاهَدَ فى اللَّهِ حقَّ جهادِه ، حتى عادَتْ عقيدةُ التوحيدِ ، وملةُ إبراهيمَ .

وكسَّرَ الأصنامَ[(١)]، وأكمَل اللَّهُ به الدِّينَ ، وأتَمَّ به النعمةَ على العالَمِين ، وسارَتْ على نهجِه القرونُ المُفَضَّلةُ من صدرِ هذه الأمةِ ، إلى أن فشَا الجهلُ فى القرونِ المُتأخِّرةِ ، ودخَلها الدخيلُ من الدِّياناتِ الأخرَى .

فعاد الشركُ إلى كثيرٍ من هذه الأمةِ بسببِ دُعاةِ الضلالةِ ، وبسببِ البناءِ على القبورِ مُتَمَثِّلًا بتعظيمِ الأولياءِ والصَّالِحِينَ وادِّعاءِ المحَبَّةِ لهم ، حتَّى بُنِيَت الأضرحةُ على قبورِهم ، واتُّخِذَتْ أوثانًا تُعْبَدُ من دونِ اللَّهِ بأنواعِ القُرُباتِ من دعاءٍ واستغاثةٍ وذبحٍ ونذرٍ لمقامِتهم .

وسمَّوْا هذا الشركَ توسُّلًا بالصالحين وإظهارًا لمحبتِهم ، وليس عبادةً

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه اللَّه فى تعليقه على كشف الشبهات ص٧٨ بتحقيقنا :
فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علِقَت متى تزول وتَنْمَحى ؛ فإن هذه الأصنام بقِيَت من يومَ[(*)] عُبِدَت من دون الله ، حتى بُعِث محمد ﷺ ، وكسَّرها .
فالشرك إذا وقع عظيمٌ رفعُه ، وشديد ؛ فإن نوحًا مع كمال بيانه ونصحه ودعوته إياهم ليلًا ونهارًا ، سِرًّا وجِهارًا ، أخذ ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ما أجابه إلا قليل ، ومع ذلك أغرق الله أهل الأرض كلهم من أجله ، ومع ذلك تلك الأصنام الخمسة ما زالت حتى بُعِث محمد ﷺ ، وكسَّرها .
فيُفِيدُك عِظَمَ الشرك إذا خالَطَ القلوبَ صعُب زوالُه ، كيف أن أصنامًا عُبِدَت على وقت أول الرسل ، وما كسَّرها إلا آخِرُهم . اهـ

(*) كذا مفتوحة ، بالبناء على الفتح ، وانظر شرح شذور الذهب ص٧٩ .

لهم بزعمِهم ، ونَسُوا أنَّ هذا هو قولُ المشركينَ الأَوَّلِينَ حيثُ يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣] .

ومع هذا الشركِ الذى وقَع فى البشريةِ قديمًا وحديثًا فالأكثريَّةُ منهم يؤمنون بتوحيدِ الربوبيةِ ، وإنَّما يُشْرِكُون فى العبادةِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] .

ولم يَجْحَدْ وجودَ الرَّبِّ إلَّا نَزْرٌ يَسيرٌ من البشرِ كفِرْعونَ والملاحدةِ الدَّهْرِيِّينَ والشُّيُوعِيِّينَ فى هذا الزمانِ ، وجحودُهم به من بابِ المُكابرَةِ ، وإلا فهم مُضْطَرُّونَ للإقرارِ به فى باطنِهِم وقَرَارَةِ أنفسِهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] .

وعقولُهم تَعرِفُ أنَّ كلَّ مخلوقٍ لابدَّ له من خالقٍ ، وكلَّ موجودٍ لابدَّ له من مُوجِدٍ ، وأنَّ نظامَ هذا الكونِ المُنْضَبِطَ الدقيقَ لابدَّ له من مُدَبِّرٍ حكيمٍ قديرٍ عليمٍ .

مَن أنكَرَه فهو : إمَّا فاقدٌ لعقلِه ، أو مُكابِرٌ قَدْ ألغَى عقلَه ، وسَفَّه نفسَه ، وهذا لا عِبْرةَ به .

* * *

الفصلُ الثانى :
الشركُ : تعريفُه ، أنواعُه

(أ) تعريفُه :

الشركُ هو جَعْلُ شريكٍ للَّهِ تعالى فى رُبُوبيتِه وإلهيتِه ، والغالبُ الإشراكُ فى الأُلُوهيةِ بأن يَدْعُوَ مع اللَّهِ غيرَه ، أو يَصْرِفَ له شيئًا من أنواعِ العبادةِ كالذبحِ والنذرِ والخوفِ والرجاءِ والمحبةِ .

والشركُ أعظمُ الذنوبِ ، وذلك لأمورٍ :

١- لأنَّه تَشْبيهٌ للمخلوقِ بالخالقِ فى خصائصِ الإلهيةِ ، فمَن أشْرَك مع اللَّهِ أحدًا فقَدْ شَبَّهَهُ به .

وهذا أعظمُ الظلمِ ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] . والظلمُ هو وَضْعُ الشيءِ فى غيرِ مَوضعِه ، فمَن عبَد غيرَ اللَّهِ فقَدْ وضَع العبادةَ فى غيرِ مَوضعِها ، وصرَفَها لغيرِ مُسْتَحِقِّهَا ، وذلك أعظمُ الظلمِ .

٢- أنَّ اللَّهَ أخبَر أنَّه لا يَغفِرُه لمَن لم يَتُبْ منه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨] .

٣- أنَّ اللَّهَ أخبَر أنَّه حرَّم الجنةَ على المشركِ ، وأنَّه خالدٌ مُخَلَّدٌ فى نارِ جَهَنَّمَ ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢] .

٤- أنَّ الشركَ يُحْبِطُ جميعَ الأعمالِ ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٨٨] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ

إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

٥- أنَّ المشركَ حلالُ الدمِ والمالِ ، قال تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة : ٥] .

وقال النبيُّ ﷺ : « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَقولوا : لا إلهَ إلَّا اللهُ ، فإذَا قالوها عصَمُوا مِنِّى دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحقِّها »[١] .

٦- أنَّ الشركَ أكبرُ الكبائرِ ، قال ﷺ : « ألا أُنَبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ ؟ »

قلْنَا : بلى يَا رسولَ اللَّهِ .

قال : « الإشراكُ باللَّهِ ، وعقوقُ الوالدَيْنِ » الحديثَ[٢] .

قال العلامةُ ابنُ القيمِ : أخبرَ سبحانَه أنَّ القصدَ بالخَلْقِ والأمرِ أنْ يُعْرَفَ بأسمائِه وصفاتِه ، ويُعْبَدَ وحدَه ، لا يُشْرَكُ به ، وأن يقومَ الناسُ بالقسطِ ، وهو العَدلُ الذى قامَتْ به السماواتُ والأرضُ ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فأخبرَ سبحانَه أنَّه أرسَل رُسُلَه ، وأنزَل كُتُبَه ؛ ليقومَ الناسُ بالقسطِ ، وهو العدلُ ، ومِن أعظمِ القسطِ التوحيدُ ، وهو رأسُ العدلِ وقِوامُه ، وإنَّ

(١) تقدم تخريجه ص ١٢٠.

(٢) رواه البخارى (٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣، ٦٩١٩)، ومسلم ٩١/١ (٨٧).

الشركَ ظلمٌ ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فالشركُ أظلمُ الظُّلمِ ، والتوحيدُ أعدلُ العدلِ ، فما كان أشدَّ منافاةً لهذا المقصودِ فهو أكبرُ الكبائرِ .

إلى أنْ قال : فلمَّا كان الشركُ منافيًا بالذاتِ لهذا المقصودِ كان أكبرَ الكبائرِ على الإطلاقِ ، وحرَّم اللَّهُ الجنةَ على كلِّ مشركٍ ، وأباح دمَه ومالَه وأهلَه لأهلِ التوحيدِ ، وأن يتَّخِذُوهم عبيدًا لهم لمَّا ترَكوا القيامَ بعُبوديتِه .

وأبَى اللهُ سبحانَه أنْ يَقْبَلَ لمشركٍ عملًا ، أو يَقْبَلَ فيه شفاعةً ، أو يُجِيبَ له فى الآخرةِ دعوةً ، أو يَقْبَلَ له فيها رجاءً ؛ فإنَّ المشركَ أجهلُ الجاهِلين باللَّهِ ؛ حيثُ جعَل له من خَلْقِه ندًّا ، وذلك غايةُ الجهلِ به ، كما أنَّه غايةُ الظلمِ منه ، وإنْ كان المشركُ فى الواقعِ لم يَظْلِمْ ربَّه ، وإنَّما ظلَم نفسَه . انتهى[1] .

٧- أنَّ الشركَ تَنَقُّصٌ وعيبٌ ، نزَّه الربُّ سبحانَه نفسَه عنهما ، فمَن أشرَك باللَّهِ فقدْ أثبَت للَّهِ ما نَزَّهَ نفسَه عَنْهُ ، وهذا غايةُ المُحادَّةِ للَّهِ تعالى ، وغايةُ المُعاندةِ ، والمُشَاقَّةِ للَّهِ .

* * *

(ب) أنواعُ الشركِ : الشركُ نوعان :

النوعُ الأولُ : شركٌ أكبرُ يُخرِجُ من المِلَّةِ ، ويُخَلِّدُ صاحبَه فى النارِ إذَا مات ، ولم يَتُبْ منه ، وهو صرفُ شيءٍ من أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللهِ ؛ كدُعاءِ

---

(١) الجواب الكافى ص ١٠٩.

غيرِ اللهِ ، والتَّقرُّبِ بالذبائحِ والنذورِ لغيرِ اللهِ من القبورِ والجنِّ والشياطينِ ، والخوفِ من الموتَى ، أو الجنِّ ، أو الشياطينِ أن يَضُرُّوه ، أو يُمْرِضُوه ، ورجاءِ غيرِ اللهِ فيما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ من قضاءِ الحاجاتِ ، وتَفريجِ الكُرُباتِ ممَّا يُمارَسُ الآنَ حولَ الأضرحةِ المَبْنِيَّةِ على قبورِ الأولياءِ والصالحينَ .

قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨] .

النوعُ الثاني : شركٌ أصغرُ لا يُخْرِجُ من المِلَّةِ ، لكنه يُنْقِصُ التوحيدَ ، وهو وسيلةٌ إلى الشركِ الأكبرِ ، وهو قسمانِ :

القسمُ الأولُ : شركٌ ظاهرٌ على اللسانِ والجوارحِ ، وهو ألفاظٌ وأفعالٌ ، فالألفاظُ كالحلفِ بغيرِ اللَّهِ ، قال ﷺ : « مَن حلَف بغيرِ اللهِ فقَدْ كفَر أو أشرَك »[١] .

وقولِه : ما شاء اللَّهُ وشِئْتَ . قال ﷺ لمَّا قال رجلٌ : ما شاء اللَّهُ وشِئْتَ . فقال : « أجعَلْتَنِي للَّهِ نِدًّا ؟! قل : مَا شاء اللَّهُ وحدَه »[٢] .

---

(١) رواه الترمذى (١٥٣٥) بهذا اللفظ ، ورواه أحمد ٣٤/٢ (٤٩٠٤) ، وأبو داود (٣٢٥١) بلفظ : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .
وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى شرح المسند : إسناده صحيح .
وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى تعليقه على سنن أبى داود : صحيح .

(٢) رواه أحمد ٢١٤/١ (١٨٣٩) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٩٨٨) .
قال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده صحيح .

وقولِ : لولا اللّهُ وفلانٌ . والصوابُ أنْ يُقالَ : ما شاء اللّهُ ، ثمَّ شاءَ فلانٌ ، ولولا اللّهُ ، ثمَّ فلانٌ ؛ لأنَّ « ثمَّ » للترتيبِ مع التَّراخِي ، تَجْعَلُ مشيئةَ العبدِ تابعةً لمشيئةِ اللّهِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] .

وأمَّا الواوُ فهى لمُطْلَقِ الجمعِ والاشتراكِ ، لا تَقْتَضِى ترتيبًا ، ولا تعقيبًا .

ومثلُه قولُ : ما لى إلاَّ اللّهُ وأنت ، وهذا من بركاتِ اللّهِ وبركاتِك .

وأمَّا الأفعالُ : فمِثلُ لُبْسِ الحَلَقَةِ والخَيْطِ لرفعِ البلاءِ أو دفعِه ، ومثلُ تعليقِ التمائمِ ؛ خوفًا من العينِ وغيرِها .

إذَا اعتقَد أن هذه أسبابٌ لرفعِ البلاءِ أو دفعِه ، فهذا شركٌ أصغرُ ؛ لأنَّ اللّهَ لم يَجْعَلْ هذه أسبابًا .

أمَّا إنْ اعتقَد أنَّها تَدْفَعُ أو تَرْفَعُ البلاءَ بنفسِها فهذا شركٌ أكبرُ ؛ لأنَّه تَعَلُّقٌ بغيرِ اللّهِ .

القسمُ الثانى من الشركِ الأصغرِ : شركٌ خَفِيٌّ ، وهو الشركُ فى الإراداتِ والنِّيَّاتِ ، كالرياءِ والسُّمْعةِ ، كأنْ يَعْمَلَ عملًا مما يُتَقَرَّبُ به إلى اللّهِ ، يُرِيدُ به ثناءَ الناسِ عليه ، كأنْ يُحْسِنَ صلاتَه ، أو يَتَصَدَّقَ لأجلِ أنْ يُمدَحَ ويُثْنَى عليه ، أو يَتَلَفَّظَ بالذكرِ ويُحَسِّنَ صوتَه بالتلاوةِ ؛ لأجلِ أن يَسْمَعَه الناسُ فيُثْنُوا عليه ويَمْدَحُوه .

والرياءُ إذَا خالَط العملَ أبطَله ، قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وقال النبيُّ ﷺ : « أخوفُ مَا أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ » .قالُوا :

يَا رسولَ اللَّهِ ! وما الشركُ الأصغرُ ؟

قال : « الرياءُ »[١] .

ومنه العملُ لأجلِ الطمعِ الدُّنْيَوِيِّ ؛ كمَن يَحُجُّ ، أو يُؤَذِّنُ ، أو يَؤُمُّ الناسَ لأجلِ المالِ ، أو يَتَعَلَّمُ العلمَ الشرعِيَّ ، أو يُجاهِدُ لأجلِ المالِ .

قال النبيُّ ﷺ : « تَعِسَ عبدُ الدينارِ ، تَعِسَ عبدُ الدرهمِ ، تَعِسَ عبدُ الخَمِيصةِ[٢] ، تَعِسَ عبدُ الخَمِيلةِ[٣] ، إن أُعطِيَ رَضِيَ ، وإن لم يُعْطَ سَخِطَ »[٤] .

قال الإمامُ ابنُ القيمِ رحِمه اللَّهُ : وأمَّا الشركُ فى الإراداتِ والنياتِ فذلك البحرُ الذى لا ساحلَ له ، وقلَّ مَن يَنجُو منه ، فمَن أرادَ بعملِهِ غيرَ وجهِ اللَّهِ ، ونوَى شيئًا غيرَ التقربِ إلَيْه ، وطلَبِ الجزاءِ منه فقَدْ أشرَك فى نِيَّتِه وإرادتِه ، والإخلاصُ أن يُخلِصَ للَّهِ فى أفعالِه وأقوالِه وإرادتِه ونِيَّتِه .

وهذه هى الحنيفيةُ ملةُ إبراهيمَ التى أمَرَ اللَّهُ بها عبادَه كلَّهم ، ولا يَقْبَلُ

---

(١) رواه أحمد ٤٢٨/٥، ٤٢٩ (٢٣٥٢١، ٢٣٥٢٦) ، والطبرانى فى المعجم الكبير ٢٥٣/٤ (٤٣٠١) .

قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ٦٩/١: رواه أحمد بإسناد جيد ، وابن أبى الدنيا ، والبيهقى فى الزهد وغيره . اهـ

وقال الهيثمى فى المجمع ١٠٢/١ : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) الخَمِيصَة : هى ثَوْبُ خَزٍّ ، أو صُوف مُعْلَم ، وقيل : لا تُسَمَّى خَمِيصةً إلا أن تكون سَوْدَاء مُعْلَمة ، وكانت من لباس الناس قديمًا ، وجَمْعُها الخَمَائِص . النهاية لابن الأثير (خ م ص).

(٣) الخَمِيلة : القَطِيفَة ، وهى كل ثَوْب له خَمْل ، من أى شىء كان ، وقيل : الخَمِيلُ الأسود من الثياب . النهاية لابن الأثير (خ م ل) .

(٤) البخارى (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) ، وابن ماجه (٤١٣٥، ٤١٣٦) .

من أحدٍ غيرَها ، وهى حقيقةُ الإسلامِ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وهى ملةُ إبراهيمَ عليه السلامُ التى مَنْ رغِب عَنْهَا فهو من أسفهِ السفهاءِ . انتهى[1]

يتلخَّصُ مـمَّا مرَّ أنَّ هناك فروقًا بينَ الشركِ الأكبرِ والأصغرِ ، وهى :

١- الشركُ الأكبرُ يُخْرِجُ من الملةِ ، والشركُ الأصغرُ لا يُخْرِجُ من الملةِ ، لكنه يُنْقِصُ التوحيدَ .

٢- الشركُ الأكبرُ يُخَلِّدُ صاحبَه فى النارِ ، والشركُ الأصغرُ لا يُخَلِّدُ صاحبَه فيها ، إنْ دخَلها .

٣- الشركُ الأكبرُ يُحْبِطُ جميعَ الأعمالِ ، والشركُ الأصغرُ لا يُحْبِطُ جميعَ الأعمالِ ، وإنَّما يُحْبِطُ الرياءُ والعملُ لأجلِ الدنيا العملَ الذى خالَطَاه فقط .

٤- الشركُ الأكبرُ يُبِيحُ الدمَ والمالَ ، والشركُ الأصغرُ لا يُبِيحُهما .

* * *

(١) الجواب الكافى ص١١٥ .

الفصلُ الثالثُ :

الكفرُ : تعريفُه ، أنواعُه

(أ) تعريفُه :

الكفرُ في اللغةِ : التغطيةُ والسّترُ .

والكفرُ شرعًا : ضدُّ الإيمانِ ؛ فإنَّ الكفرَ عدمُ الإيمانِ باللَّهِ ورسلِه ، سواءٌ كان معَه تكذيبٌ ، أو لم يَكُنْ معَه تكذيبٌ ، بل شكٌّ ورَيْبٌ ، أو إعراضٌ ، أو حسدٌ ، أو كِبرٌ ، أو اتِّباعٌ لبعضِ الأهواءِ الصادَّةِ عن اتباعِ الرسالةِ .

وإنْ كان المُكَذِّبُ أعظمَ كفرًا ، وكذلك الجاحِدُ والمُكَذِّبُ حسدًا مع استيقانِ صدقِ الرسلِ[1] .

(ب) أنواعُه : الكفرُ نوعان :

النوعُ الأولُ : كفرٌ أكبرُ يُخرِجُ من الملةِ ، وهو خمسةُ أقسامٍ :

القسمُ الأولُ : كفرُ التكذيبِ ، والدليلُ قولُه تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

القسمُ الثاني : كفرُ الإباءِ والاستكبارِ مع التصديقِ ، والدليلُ قولُه تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] .

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٢/٣٣٥ .

القسمُ الثالثُ : كفرُ الشكِّ – وهو كفرُ الظَّنِّ – والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٣٥- ٣٨] .

القسمُ الرابعُ : كفرُ الإعراضِ ، والدليلُ قولُه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣] .

القسمُ الخامسُ : كفرُ النفاقِ ، والدليلُ قولُه تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : ٣] .

النوعُ الثانى : كفرٌ أصغرُ لا يُخْرِجُ من الملةِ ، وهو الكفرُ العَمَلِيُّ ، وهو الذنوبُ التى ورَدَتْ تَسْمِيَتُها فى الكتابِ والسنةِ كفرًا ، وهى لا تَصِلُ إلى حدِّ الكفرِ الأكبرِ .

مثلُ كفرِ النعمةِ المذكورِ فى قولِه تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ [النحل : ١١٢] .

ومثلُ قتالِ المسلمِ المذكورِ فى قولِه ﷺ : « سِبابُ المسلمِ فسوقٌ ، وقتالُه كفرٌ »[١] .

وفى قولِه ﷺ : « لا تَرْجِعوا بعدى كفارًا ، يَضرِبُ بَعْضُكم رقابَ بَعْضٍ »[٢] .

---

(١) رواه البخارى (٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦) ، ومسلم ٨١/١ (٦٤) .

(٢) رواه البخارى (١٢١، ٤٤٠٥، ٦٨٦٩، ٧٠٨٠) ، ومسلم ٨١/١، ٨٢ (٦٥) .

ومثلُ الحلفِ بغيرِ اللَّهِ ، قال ﷺ : « مَن حلَف بغيرِ اللهِ فقدْ كفَر أو أشرَك »[١] .

فقد جعَل اللَّهُ مُرتَكِبَ الكبيرةِ مؤمنًا ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، فلم يُخرِجِ القاتلَ من الذين آمنوا ، وجعَله أخًا لوَليِّ القِصاصِ ، فقال : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

والمرادُ أُخُوَّةُ الدِّينِ بلا ريبٍ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : ٩] إلى قولِه تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] . انتهى من شرحِ الطحاويةِ باختصارٍ[٢] .

ومُلَخَّصُ الفروقِ بينَ الكفرِ الأكبرِ والكفرِ الأصغرِ :

١- أنَّ الكفرَ الأكبرَ يُخرِجُ من الملةِ ، ويُحبِطُ الأعمالَ ، والكفرَ الأصغرَ لا يُخْرِجُ من الملةِ ، ولا يُحْبِطُ الأعمالَ ، لكن يُنْقِصُها بحَسَبِه ، ويُعَرِّضُ صاحبَها للوعيدِ .

٢- أنَّ الكفرَ الأكبرَ يُخَلِّدُ صاحبَه في النارِ ، والكفرَ الأصغرَ إذَا دخَل صاحبُه النارَ فإنَّه لا يُخَلَّدُ فيها ، وقَدْ يَتُوبُ اللهُ على صاحبِه فلا يُدْخِلُه النارَ أصلًا .

٣- أنَّ الكفرَ الأكبرَ يُبِيحُ الدمَ والمالَ ، والكفرَ الأصغرَ لا يُبِيحُ

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٢٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص٣٢١ .

الدمَ والمالَ .

٤- أنَّ الكفرَ الأكبرَ يُوجِبُ العداوةَ الخالِصَةَ بينَ صاحبِه وبينَ المؤمنين ، فلا يَجوزُ للمؤمنين مَحَبَّتُه ومُوالاتُه ، ولو كان أقربَ قريبٍ .

وأمَّا الكفرُ الأصغرُ فإنَّه لا يَمْنَعُ الموالاةَ مطلقًا ، بل صاحبُه يُحَبُّ ويُوالَى بقدرِ ما فيه من الإيمانِ ، ويُبغَضُ ويُعادَى بقدرِ ما فيه من العصيانِ .

* * *

الفصلُ الرابعُ :
النفاقُ : تعريفُه ، أنواعُه

(أ) تعريفُه :

النفاقُ لغةً : مَصْدَرُ نافَقَ ، يقالُ : نافَقَ يُنافِقُ نِفاقًا ومُنافَقَةً ، وهو مأخوذٌ من النَّافِقاءِ ؛ أحدِ مخارجِ اليَرْبُوعِ من جُحْرِه ، فإنَّه إذَا طُلِبَ من واحدٍ هَرَب إلى الآخَرِ ، وخرَجَ منه .

وقيلَ : هو من النَّفَقِ ، وهو السَّرَبُ الذى يَسْتَتِرُ فيه[1] .

أما النِّفاقُ فى الشَّرْعِ فمعناه إظهارُ الإسلامِ ، وإبطانُ الكفرِ والشركِ ؛ سُمِّىَ بذلك ؛ لأنَّه يَدْخُلُ فى الشرعِ من بابٍ ، ويَخرُجُ منه من بابٍ آخرَ .

وعلى ذلك نبَّه اللَّهُ تعالى بقولِه : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة : ٦٧] ؛ أى الخارِجُون من الشَّرْعِ . وجعَل اللَّهُ المنافقينَ شرًّا من الكافرين ، فقال : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء : ١٤٥] . وقال تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] . ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة : ٩- ١٠].

(ب) أنواعُ النفاقِ : النفاقُ نوعان :

النوعُ الأولُ : النفاقُ الاعتقادِىُّ : وهو النفاقُ الأكبرُ الذى يُظْهِرُ

---

(١) انظر النهاية لابن الأثير (ن ف ق) .

صاحبُه الإسلامَ ، ويُبْطِنُ الكفرَ ، وهذا النوعُ مُخرِجٌ من الدِّينِ بالكليَّةِ ، وصاحبُه فى الدركِ الأسفلِ من النارِ .

وقد وصَف اللَّهُ أهلَه بصفاتِ الشرِّ كلِّها ، من الكفرِ وعدمِ الإيمانِ ، والاستهزاء بالدينِ وأهلِه ، والسُّخْرِيَةِ منهم ، والمَيلِ بالكليةِ إلى أعداءِ الدينِ لمشاركتِهم لهم فى عداوةِ الإسلامِ .

وهؤلاء مَوجودون فى كلِّ زمانٍ ، ولا سِيَّمَا عندَما تَظْهَرُ قوةُ الإسلامِ ، ولا يَستطيعونَ مقاومتَه فى الظاهرِ ، فإنَّهم يُظهِرُونَ الدخولَ فيه ؛ لأجلِ الكيدِ له ولأهلِه فى الباطنِ ، ولأجلِ أن يَعِيشُوا مع المسلمينَ ، ويَأْمَنوا على دمائِهم وأموالِهم .

فيُظْهِرُ المنافقُ إيمانَه باللهِ وملائكتِه وكُتُبِه ورسلِه واليومِ الآخِرِ ، وهو فى الباطنِ مُنْسَلِخٌ من ذلك كلِّه مُكَذِّبٌ به ، لا يُؤمِنُ باللهِ ، ولا يُؤْمِنُ بأنَّ اللَّهَ تكَلَّمَ بكلامٍ أنزَله على بشرٍ جعَله رسولًا للناسِ يَهْدِيهم بإذنِه ، ويُنذِرُهم بأْسَه ، ويُخَوِّفُهم عقابَه .

وقد هتَك اللهُ أستارَ هؤلاء المنافقين ، وكشَف أسرارَهم فى القرآنِ الكريمِ ، وجلَّى لعبادِه أمورَهم ؛ ليَكونُوا منها ومن أهلِها على حَذَرٍ ، وذكَر طوائفَ العالَمِ الثلاثةَ فى أولِ البقرةِ ؛ المؤمنينَ والكفَّارَ والمنافقينَ ، فذكَر فى المؤمنينَ أربعَ آياتٍ ، وفى الكفارِ آيَتَيْنِ ، وفى المنافقينَ ثلاثَ عشرةَ آيةً ؛ لكثرتِهم ، وعمومِ الابتلاءِ بهم ، وشِدَّةِ فِتْنَتِهم على الإسلامِ وأهلِه .

فإنَّ بَلِيَّةَ الإسلامِ بهم شديدةٌ جدًّا ؛ لأنَّهم مَنْسُوبُون إليه ، وإلى نصرتِه وموالاتِه ، وهم أعداؤُه فى الحقيقةِ ، يُخْرِجُون عداوتَه فى كلِّ قالبٍ ،

يَظُنُّ الجاهلُ أنَّه عِلْمٌ وإصلاحٌ ، وهو غايةُ الجهلِ والإفسادِ[١] .

وهذا النفاقُ ستةُ أنواعٍ[٢]:

١- تكذيبُ الرسولِ ﷺ .

٢- تكذيبُ بَعْضِ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ .

٣- بُغْضُ الرسولِ ﷺ .

٤- بُغْضُ بَعْضِ ما جاء به الرسولُ ﷺ .

٥- المَسَرَّةُ بانخفاضِ دِينِ الرسولِ ﷺ .

٦- الكراهيَةُ لانتصارِ دينِ الرسولِ ﷺ .

النوعُ الثاني : النفاقُ العَمَليُّ ، وهو عملُ شيءٍ من أعمالِ المنافقين مع بقاءِ الإيمانِ في القلبِ ، وهذا لا يُخْرِجُ من الملةِ ، لكنَّه وسيلةٌ إلى ذلك .

وصاحبُه يكونُ فيه إيمانٌ ونفاقٌ ، وإذَا كثُر صار بسببِه منافقًا خالصًا ، والدليلُ عليه قولُه ﷺ : « أربعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ منافقًا خالصًا ، ومَن كانت فيه خَصْلةٌ منهن كانت فيه خَصْلةٌ من النفاقِ حتى يَدَعَها : إذَا اؤْتُمِنَ خانَ ، وإذَا حدَّث كذَب ، وإذَا عاهَد غدَر ، وإذَا خاصَمَ فجَر »[٣] .

فمَن اجْتَمَعَتْ فيه هذه الخصالُ الأربعُ فقَدْ اجتَمَع فيه الشرُّ ، وخَلَصَتْ فيه نعوتُ المنافقين ، ومَن كانت فيه واحدةٌ منها صار فيه خَصلةٌ من النفاقِ ؛ فإنَّهُ قَدْ يَجْتَمِعُ في العبدِ خِصالُ خيرٍ ، وخصالُ شرٍّ ،

---

(١) من رسالة ابن القيم (صفات المنافقين) ص٦ .

(٢) مجموعة التوحيد النجدية ص٩ .

(٣) البخاري (٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨) ، ومسلم ٧٨/١ (٥٨) .

وخصالُ إيمانٍ ، وخصالُ كفرٍ ونفاقٍ ، ويَسْتَحِقُّ من الثوابِ والعقابِ بحسَبِ ما قام به من موجِباتِ ذلك .

ومنه التكاسُلُ عن الصلاةِ مع الجماعةِ فى المسجدِ ؛ فإِنَّهُ من صفاتِ المنافقين ، فالنفاقُ شرٌّ ، وخطيرٌ جدًّا ، وكانَ الصحابةُ يَتَخَوَّفُون من الوقوعِ فيه .

قال ابنُ أبى مُلَيْكَةَ : أدركتُ ثلاثينَ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، كلُّهم يَخافُ النفاقَ على نفسِه(١) .

الفروقُ بينَ النفاقِ الأكبرِ والنفاقِ الأصغرِ :

١– أنَّ النفاقَ الأكبرَ يُخرِجُ من الملةِ ، والنفاقَ الأصغرَ لا يُخْرِجُ من الملةِ .

٢– أنَّ النفاقَ الأكبرَ اختلافُ السرِّ والعلانيَةِ فى الاعتقادِ ، والنفاقَ الأصغرَ اختلافُ السرِّ والعلانيَةِ فى الأعمالِ دونَ الاعتقادِ .

٣– أنَّ النفاقَ الأكبرَ لا يَصْدُرُ من مؤمنٍ ، وأمَّا النفاقُ الأصغرُ فقَدْ يَصْدُرُ من المؤمنِ .

---

(١) رواه البخارى تعليقًا فى كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ، وهو لا يشعر ، الفتح ١/١٠٩ ، ووصله ابن حجر رحمه الله فى تغليق التعليق ٢/٥١ ، والمَرْوَزى فى الإيمان ، وفى تعظيم قدر الصلاة ص٤١٤ (٦٨٨) ، وابن أبى خَيْثَمة فى تاريخه ، كما فى الفتح ١/١١٠ ، ورواه البخارى أيضًا فى التاريخ الكبير ٥/١٣٧ .
وابن أبى مُلَيْكة هو عبد الله بن عبيد الله التَّيْمى المَدَنى ، ثقة فقيه ، أدرك ثلاثين من الصحابة ، من أجلِّهم : علىٌّ ، وسعد ، وعائشة ، وأختها أسماء ، وأم سلمة ، والعبادلة الأربعة ، وأبو هريرة .

٤- أنَّ النفاقَ الأكبرَ في الغالبِ لا يَتُوبُ صاحبُه ، ولو تاب فقَدْ اختُلِفَ في قَبولِ توبتِه عندَ الحاكمِ ، بخلافِ النفاقِ الأصغرِ فإنَّ صاحبَه قَدْ يَتوبُ إلى اللهِ فيتوبُ اللَّهُ عليه .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ : وكثيرًا ما تَعْرِضُ للمؤمنِ شعبةٌ من شُعَبِ النفاقِ ، ثمَّ يتوبُ اللهُ عليه ، وقَدْ يَرِدُ على قلبِه بَعْضُ ما يُوجِبُ النفاقَ ، ويَدفَعُه اللَّهُ عنه .

والمُؤمنُ يُبتَلَى بوَساوسِ الشيطانِ ، وبوَساوسِ الكفرِ التي يَضِيقُ بها صدرُه ، كما قال الصحابةُ : يا رسولَ اللهِ ، إنَّ أحدَنا ليَجِدُ في نفسِه ما لئن يَخِرَّ من السماءِ إلى الأرضِ أحَبُّ إليه من أنْ يَتَكَلَّمَ به . فقال : « الحمدُ للَّهِ الذي رَدَّ كيدَه إلى الوَسْوَسَةِ »[(١)] . وفي روايةٍ : ما يَتَعَاظَمُ أن يَتَكَلَّمَ به ، فقال : « ذلك صَرِيحُ الإيمانِ »[(٢)] . أي : حصولُ هذا الوَسْواسِ مع هذه الكراهةِ العظيمةِ ، ودَفْعُه عن القلبِ هو من صريحِ الإيمانِ . انتهى[(٣)] .

وأمَّا أهلُ النفاقِ الأكبرِ فقال اللَّهُ فيهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٨] . أيْ : إلى الإسلامِ في الباطنِ ، وقال تعالى فيهم :

(١) رواه أحمد ١/٢٣٥ (٢٠٩٧) ، وأبو داود (٥١١٢) ، وابن أبي عاصم في السنة ١/٢٩٦ (٦٥٨) .

قال الشيخ أحمد شاكر في شرح المسند : إسناده صحيح .

(٢) رواه مسلم ١/١١٩ (١٣٢) ، وأبو داود (٥١١١) ، وابن أبي عاصم في السنة (٦٥٤، ٦٥٧، ٦٦٢) .

(٣) مجموع الفتاوى ٧/٢٨٢ .

﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ : وقَدْ اختلَف العلماءُ فى قبولِ توبتِهم فى الظاهرِ ؛ لكونِ ذلك لا يُعلَمُ ؛ إذ هم دائمًا يُظْهِرُون الإسلامَ[١] . اهـ

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٤٣٤، ٤٣٥ .

الفصلُ الخامسُ :
بيانُ حقيقةِ كلٍّ مِن :
الجاهليـةِ - الفسقِ - الضَّلالِ - الرِّدَّةِ : أقسامُها ، أحكامُها

١- الجاهليةُ : هى الحالُ التى كانت عليها العربُ قبلَ الإسلامِ من : الجهلِ باللَّهِ ورسلِه وشرائعِ الدينِ ، والمفاخرةِ بالأنسابِ ، والكبرِ ، والتَّجَبُّرِ ، وغيرِ ذلك[1] ؛ نسبةً إلى الجهلِ الذى هو عَدمُ العلمِ ، أو عدمُ اتباعِ العلمِ .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية : فإنَّ مَن لم يَعْلَمِ الحقَّ فهو جاهلٌ جهلًا بسيطًا ، فإنِ اعتقَدَ خلافَه فهو جاهلٌ جهلًا مُرَكَّبًا ، فإنْ قال خلافَ الحقِّ عالمًا بالحقِّ ، أو غيرَ عالمٍ فهو جاهلٌ أيضًا .

فإنْ تَبَيَّنَ ذلك فالناسُ قبلَ مَبْعَثِ الرسولِ ﷺ كانوا فى جاهليةٍ منسوبةٍ إلى الجهلِ ؛ فإنَّ ما كانوا عليه من الأقوالِ والأعمالِ إنَّما أحدَثَه لهم جاهلٌ ، وإنَّما يَفْعَلُه جاهلٌ .

وكذلك كلُّ ما يُخالِفُ ما جاء به المُرْسَلون من يَهُوديَّةٍ ونَصرانيَّةٍ فهو جاهليةٌ ، وتلك كانت الجاهليةَ العامةَ .

فأمَّا بعدَ مبعثِ الرسولِ ﷺ قَدْ تكونُ فى مِصرٍ دونَ مصرٍ ، كما هى فى دارِ الكفَّارِ ، وقَدْ تكونُ فى شخصٍ دونَ شخصٍ ؛ كالرجلِ قبلَ أن يُسْلِمَ فإنَّهُ فى جاهليةٍ ، وإن كان فى دارِ الإسلامِ .

---

(١) النهاية لابن الأثير (ج هـ ل) .

فأمَّا فى زمانٍ مطلقٍ فلا جاهليةَ بعدَ مبعثِ محمدٍ ﷺ ؛ فإنَّه لا تزالُ من أمَّتِه طائفةٌ ظاهِرين على الحقِّ إلى قيامِ الساعةِ[١].

والجاهليةُ المُقَيَّدَةُ قَدْ تُوجَدُ فى بَعْضِ ديارِ المسلمين ، وفى كثيرٍ من الأشخاصِ المسلمينَ ، كما قال ﷺ : « أربعٌ فى أمَّتى من أمرِ الجاهليةِ »[٢]. وقال لأبى ذَرٍّ : « إنَّكَ امرُؤٌ[٣] فيكَ جاهليةٌ »[٤]، ونحوَ ذلك . انتهى[٥].

ومُلَخَّصُ ذلك : أن الجاهليةَ نسبةٌ إلى الجهلِ ، وهو عدمُ العلمِ ، وأنَّها تَنقَسِمُ إلى قسمين :

١- جاهليةٌ عامةٌ : وهى ما كان قبلَ مَبْعَثِ الرسولِ محمدٍ ﷺ ، وقَدْ انْتَهَتْ ببِعْثتِه .

٢- جاهليةٌ خاصَّةٌ ببعضِ الدولِ ، وبعضِ البلدانِ ، وبعضِ

(١) روى البخارى (٧٣١١) ، ومسلم ٣/١٥٢٣، ١٥٢٤ (١٩٢٠ - ١٩٢٣، ١٠٣٧) أن النبى ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتى ، يقاتلون على الحق ، ظاهرين إلى يوم القيامة » .

(٢) رواه البخارى (٣٨٥٠) ، ومسلم ٢/٦٤٤ (٩٣٤) ، واللفظ لمسلم .

(٣) ذكر ابن هشام رحمه الله فى كتابه « شرح شذور الذهب » ص٦٠ : أن كلمة « امرؤ » ، ومعها كلمة « ابنم » ، إذا دخل عليها الرافع ضُمَّ آخِرُهما ، وما قبلَ آخِرِهما ، فتقول : هذا امرُؤٌ وابنُمٌ ، وإذا دخل عليهما الناصب فتحهما ، فتقول : رأيْتُ امرَأً وابنَمًا ، وإذا دخل عليهما الخافض كسرهما ، فتقول : مرَرْتُ بامرِئٍ وابنِمٍ ، قال الله تعالى : ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ ، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ ، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ . ومذهب البصريين أن هذا التغيُّر الذى يحدث فى الحرف قبل الآخِر من هاتين الكلمتين ليس بسبب تغيُّر العوامل ، بل للإتباع للحرف الأخير .

(٤) رواه البخارى (٣٠، ٦٠٥٠) ، ومسلم ٣/١٢٨٢، ١٢٨٣ (١٦٦١) .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٥٦، ١٥٨ .

الأشخاصِ ، وهذه لا تزالُ باقيةً .

وبهذا يَتَّضِحُ خطأُ مَن يُعَمِّمُون الجاهليةَ فى هذا الزمانِ ، فيقولون : جاهليةُ هذا القرنِ ، أو جاهليةُ القرنِ العشرينِ ، وما شابه ذلك ، والصوابُ أن يقالَ : جاهليةُ بَعْضِ أهلِ هذا القرنِ ، أو غالبِ أهلِ هذا القرنِ .

وأمَّا التعميمُ فلا يَصِحُّ ولا يجوزُ ؛ لأنَّه ببعثةِ النبيِّ ﷺ زالتِ الجاهليةُ العامَّةُ .

* * *

٢- الفسقُ :

الفسقُ لغةً : الخروجُ ، والمرادُ به شرعًا : الخروجُ عن طاعةِ اللَّهِ ، وهو يَشْمَلُ الخروجَ الكُلِّيَّ ، فيقالُ للكافرِ : فاسقٌ ، والخُروجَ الجُزْئِيَّ فيقالُ للمؤمنِ المُرتَكِبِ لكبيرةٍ من كبائرِ الذنوبِ : فاسقٌ .

فالفسقُ فِسقانِ : فسقٌ يَنْقُلُ عن الملةِ ، وهو الكفرُ ، فيُسَمَّى الكافرُ فاسقًا ، فقد ذكَر اللهُ إبليسَ فقال : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : ٥٠] ، وكان ذلك الفسقُ منه كفرًا .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ [السجدة : ٢٠] يريدُ الكفارَ . دلَّ على ذلك قولُه : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : ٢٠] .

ويُسَمَّى مُرْتَكِبُ الكبيرةِ من المسلمينَ فاسقًا ، ولم يُخْرِجه فسقُه من الإسلامِ ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٩٧] .

وقال العلماءُ في تفسيرِ الفسوقِ هنا : هو المعاصِى[١] .

* * *

٣- الضلالُ :

الضلالُ : العُدولُ عن الطريقِ المستقيمِ ، وهو ضِدُّ الهدايةِ ، قال تعالى : ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء: ١٥] .

والضلالُ يُطْلَقُ على عِدَّةِ معانٍ :

١- فتارةً يُطْلَقُ على الكفرِ ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦] .

٢- وتارةً يُطْلَقُ على الشركِ ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

٣- وتارةً يُطْلَقُ على الـمُخالَفةِ التي هي دونَ الكفرِ ، كما يقالُ : الفِرَقُ الضالَّةُ ؛ أي : المُخالِفةُ .

٤- وتارةً يُطْلَقُ على الخطأِ ، ومنه قولُ موسَى عليه السلامُ : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠] .

٥- وتارةً يُطْلَقُ على النِّسيانِ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٧٨ .

إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٦- **ويُطْلَقُ الضلالُ على الضَّيَاعِ والغَيْبَةِ**، ومنه: ضالةُ الإبلِ[1].

* * *

٤- الرِّدَّةُ وأقسامُها وأحكامُها:

الردةُ لغةً: الرجوعُ. قال تعالى: ﴿ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ ﴾ [المائدة: ٢١]. أي: لا ترجعُوا.

والردةُ في الاصطلاحِ الفقهيِّ: هي الكفرُ بعدَ الإسلامِ، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أقسامُها: الردةُ تَحْصُلُ بارتكابِ ناقضٍ من نواقضِ الإسلامِ، ونواقضُ الإسلامِ كثيرةٌ تَرجِعُ إلى أربعةِ أقسامٍ، هي:

١- الردةُ بالقولِ: كَسَبِّ اللَّهِ تعالى، أو رسولِه ﷺ، أو ملائكتِه، أو أحدٍ من رُسُلِه، أو ادِّعاءِ علمِ الغيبِ، أو ادِّعاءِ النبوةِ، أو تَصديقِ مَن يَدَّعِيها، أو دُعاءِ غيرِ اللَّهِ، أو الاستعانةِ بغيرِ اللهِ فيما لا يَقْدِرُ عليه إلاَّ اللَّهُ، أو الاستعاذةِ به في ذلك.

٢- الردةُ بالفعلِ: كالسجودِ للصَّنَمِ والشجرِ والحجرِ والقبورِ والذبحِ لها، وإلقاءِ المصحفِ في المواطنِ القَذِرةِ، وعملِ السحرِ، وتعلُّمِه، وتعليمِه، والحكمِ بغيرِ ما أنزَل اللهُ مُعتَقِدًا حلَّه.

٣- الردةُ بالاعتقادِ: كاعتقادِ الشريكِ للَّهِ، أو أنَّ الزِّنَى والخمرَ والربا

---

(١) انظر المفردات للراغب ص٢٩٧، ٢٩٨.

حلالٌ ، أو أنَّ الخبزَ حرامٌ ، أو أنَّ الصلاةَ غيرُ واجبةٍ ، ونحوِ ذلك مما أُجْمِعَ على حِلِّه ، أو حُرمَتِه ، أو وجوبِه إجماعًا قطعيًّا ، ومثلُه لا يَجْهَلُه .

٤- الردةُ بالشكِّ فى شيءٍ مَّا سبَق : كمَن شكَّ فى تحريمِ الشركِ ، أو تحريمِ الزِّنَى والخمرِ ، أو فى حِلِّ الخبزِ ، أو شكَّ فى رسالةِ النبىِّ ﷺ ، أو رسالةِ غيرِه من الأنبياءِ ، أو فى صدقِه ، أو فى دينِ الإسلامِ ، أو فى صلاحيَتِه لهذا الزمانِ .

٥- الرِّدَّةُ بالتركِ ؛ كمَن ترَكَ الصلاةَ متعمِّدًا ؛ لقولِ النبىِّ ﷺ : « بينَ العبدِ وبينَ الكفرِ والشركِ تركُ الصلاةِ »[1] . وغيرِه من الأدلةِ على كفرِ تاركِ الصلاةِ .

وأحكامُها التى تَتَرَتَّبُ عليها بعدَ ثبوتِها ، وهى :

١- اسْتِتَابةُ المُرْتَدِّ ، فإنْ تاب ورجَع إلى الإسلامِ فى خلالِ ثلاثةِ أيامٍ قُبِلَ منه ذلك ، وتُرِكَ .

٢- إذَا أبَى أن يَتُوبَ وجَب قتلُه ؛ لقولِه ﷺ : « مَن بدَّلَ دينَه فاقْتُلُوه »[2] .

٣- يُمْنَعُ من التصرُّفِ فى مالِه فى مدةِ اسْتِتابتِه ، فإن أسلَم فهو له ،

(١) رواه أحمد ٣٧٠/٣ (١٤٩١٩) ، ومسلم ٨٨/١ (٨٢) ، وأبو داود (٤٦٧٨) ، والترمذى (٢٦١٨) ، وابن ماجه (١٠٧٨) .

(٢) رواه أحمد ٢١٧/١، ٢٨٢ (١٨٧١، ٢٥٥١) ، والبخارى (٣٠١٧، ٦٩٢٢) ، وأبو داود (٤٣٥١) ، والنسائى (٤٠٦٠- ٤٠٦٥) ، وابن ماجه (٢٥٣٥) ، والترمذى (١٤٥٨) ، والحُمَيْدى فى مسنده ٢٤٤/١ (٥٣٣) ، وابن حبان (٤٤٧٦، ٥٦٠٦) ، والحاكم فى مستدركه ٥٣٨/٣ .

وإلَّا صارَ فَيْئًا لبيتِ المالِ من حينِ قَتْلِه ، أو موتِه على الردةِ .

وقيل : من حينِ ارتِدَادِه يُصْرَفُ فى مصالحِ المسلمين .

٤- انقطاعُ التوارُثِ فيما بينَه وبينَ أقاربه ، فلا يَرِثُهم ، ولا يَرِثُونَه .

٥- إذا مات أو قُتِل على رِدَّتِه فإنَّهُ لا يُغَسَّلُ ، ولا يُصَلَّى عليه ، ولا يُدْفَنُ فى مقابرِ المسلمين ، وإنَّما يُدْفَنُ فى مقابرِ الكفارِ ، أو يُوارَى فى الترابِ فى أيِّ مكانٍ غيرِ مقابرِ المسلمينَ .

* * *

البابُ الرابعُ

أقوالٌ وأفعالٌ تُنافِي التوحيدَ أو تَنْقُضُه

وفيه فصولٌ .

الفصلُ الأولُ : ادِّعاءُ علمِ الغيبِ فى قراءةِ الكفِّ والفِنْجانِ والتنجيمِ .. إلخ .

الفصلُ الثانى : السِّحرُ والكَهانةُ والعِرافةُ .

الفصلُ الثالثُ : تَقديمُ القَرابِينِ والنُّذورِ والهدايا للمَزاراتِ والقبورِ ، وتعظيمُها .

الفصلُ الرابعُ : تَعظيمُ التماثيلِ والنُّصْبِ التَّذْكاريَّةِ .

الفصلُ الخامسُ : الاستهزاءُ بالدينِ والاستهانةُ بحُرُماتِه .

الفصلُ السادسُ : الحكمُ بغيرِ مَا أنزَل اللهُ .

الفصلُ السابعُ : ادِّعاءُ حقِّ التشريعِ والتحليلِ والتحريمِ .

الفصلُ الثامنُ : الانتماءُ إلى المذاهبِ الإلحاديَّةِ والأحزابِ الجاهليةِ .

الفصلُ التاسعُ : النظرةُ الماديَّةُ للحياةِ .

الفصلُ العاشرُ : التَّمائمُ والرُّقَى .

الفصلُ الحادِى عشرَ : الحَلِفُ بغيرِ اللهِ ، والتَّوَسُّلُ والاستعانةُ بالمخلوقِ دونَ اللَّهِ .

* * *

الفصلُ الأولُ :

ادّعاءُ علمِ الغيبِ في قراءةِ الكفّ والفِنْجانِ وغيرِهما

المرادُ بالغيبِ :

ما غابَ عن الناسِ من الأمورِ المُسْتَقْبَلَةِ والماضيةِ ، وما لا يَرَوْنَه وقَدْ اختصَّ اللَّهُ تعالَى بعلمِه ، وقال تعالى : ﴿ قُل لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] .

فلا يَعْلَمُ الغيبَ إلَّا اللهُ سبحانَه وحدَه ، وقَدْ يُطْلِعُ رسلَه على ما شاء من غيبِه لحكمةٍ ومصلحةٍ ، قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦- ٢٧] .

أي : لا يُطلِعُ على شيءٍ من الغيبِ إلَّا مَن اصطَفَاه لرسالتِه ، فيُظْهِرُه على ما يشاءُ من الغيبِ .

لأنَّه يُسْتَدَلُّ على نبوتِه بالمعجزاتِ التي منها الإخبارُ عن الغيبِ الذي يُطْلِعُه اللهُ عليه .

وهذا يَعُمُّ الرسولَ المَلَكِيَّ والبشرِيَّ ، ولا يُطْلِعُ غيرَهما لدليلِ الحصرِ .

فمَن ادَّعَى علمَ الغيبِ بأيِّ وسيلةٍ من الوسائلِ غيرَ مَن استَثْناه اللهُ من رُسُلِه فهو كاذبٌ كافرٌ ، سواءٌ ادَّعَى ذلك بواسطةِ قراءةِ الكفِّ ، أو الفِنْجانِ ، أو الكَهانةِ ، أو السحرِ ، أو التنجيمِ ، أو غيرِ ذلك .

وهذا الذي يَحْصُلُ من بَعْضِ المُشَعْوِذِينَ والدَّجَّالينَ من الإخبارِ عن

مكانِ الأشياءِ المفقودةِ والأشياءِ الغائبةِ ، وعن أسبابِ بَعْضِ الأمراضِ ، فيقولون : فلانٌ عمِل لك كذا وكذا ، فمرِضْتَ بسببِه ، إنَّما هو لاستخدامِ الجنِّ والشياطينِ ، ويُظْهِرُون للناسِ أنَّ هذا يَحصُلُ لهم عن طريقِ عملِ هذه الأشياءِ من بابِ الخِداعِ والتلبيسِ .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ : والكُهَّانُ كأن يكونَ لأحدِهم القرينُ من الشياطينِ يُخْبِرُه بكثيرٍ من المُغَيَّباتِ بما يَسْتَرِقُه من السمعِ ، وكانوا يَخْلِطُون الصِّدقَ بالكذبِ[1] .

إلى أنْ قال : ومن هؤلاءِ من يَأتِيه الشيطانُ بأطعمةٍ : فواكهَ وحَلْوَى ، وغيرِ ذلك ممَّا لا يكونُ في ذلك الموضعِ ، ومنهم مَن يَطِيرُ به الجِنِّيُّ إلى مكةَ ، أو بيتِ المقدسِ ، أو غيرِهما . انتهى[2]

---

(١) روى البخارى (٥٧٦٢) ، ومسلم ٤/١٧٥٠ (٢٢٢٨) ، عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : سأل أُناسٌ رسولَ اللَّه ﷺ عن الكُهَّان ؟ فقال لهم رسولُ اللَّه ﷺ : « ليسوا بشىء » . قالوا : يا رسول اللَّه ، فإنهم يُحَدِّثون أحيانًا الشىءَ يكون حقًّا . قال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الجِنِّى ، يَخْطَفها الجنى ، فيَقُرُّها فى أُذُن وليِّه قَرَّ الدَّجاجة ، فيَخْلِطون فيها أكثرَ من مائة كَذْبة » .

قال النووى رحمه اللَّه فى شرح مسلم ٧/٤٨٦ : وأما قوله : فيَقُرُّها . فهو بفتح الياء ، وضم القاف ، وتشديد الراء ، قَرَّ الدَّجاجة : بفتح القاف ، والدَّجاجة - بالدال -: الدجاجة المعروفة .

قال أهل اللغة والغريب : القَرُّ تَرْدِيد الكلام فى أذن المخاطَب ؛ حتى يَفْهَمه ، يقول : قَرَرْتُه فيه أَقُرُّه قَرًّا ، وقَرُّ الدَّجاجة : صوتُها إذا قطعته ، يقال : قَرَّت تَقُرُّ قَرًّا وقَرِيرًا ، فإن ردَّدَتْها قلْتَ : قَرْقَرَتْ قَرْقَرَةً ، قال الخطابى وغيره : معناه أن الجنى يَقْذِف الكلمة إلى وليه الكاهن ، فتَسَمَّعُها الشياطين ، كما تُؤْذِن الدَّجاجة بصوتها صواحبَها فتتجاوب . اهـ

(٢) مجموع التوحيد ٧٩٧، ٨٠١ .

وقد يكونُ إخبارُهم عن ذلك عن طريقِ التنجيم ، وهو الاستدلالُ بالأحوالِ الفلكيةِ على الحوادثِ الأرضيةِ ؛ كأوقاتِ هبوبِ الرياحِ ، ومجيءِ المطرِ ، وتَغَيُّرِ الأسعارِ ، وغيرِ ذلك من الأمورِ التى يَزعُمُون أنَّها تُدْرَكُ معرفتُها بسيرِ الكواكبِ فى مجاريها واجتماعِها وافتراقِها .

ويقولون : مَن تَزَوَّجَ بنجمِ كذا وكذا حصَل له كذا وكذا ، ومَن سافر بنجمِ كذا حصَل له كذا ، ومَن وُلِد بنجمِ كذا وكذا حصَل له كذا من السُّعودِ أو النُّحوسِ .

كما يُعْلَنُ فى بَعْضِ المَجَلَّاتِ الساقطةِ من الخُزَعْبَلاتِ حولَ البُروجِ ، وما يَجْرِى فيها من الحُظوظِ .

وقد يَذْهَبُ بَعْضُ الجهالِ وضعافُ الإيمانِ إلى هؤلاءِ المُنَجِّمِين فيَسْأَلُهم عن مستقبلِ حياتِه ، وما يجرِى عليه فيه ، وعن زواجِه ، وغيرِ ذلك ، ومَن ادَّعَى علمَ الغيبِ ، أو صدَّق مَن يَدَّعِيه فهو مشركٌ كافرٌ ؛ لأنَّه يَدَّعِى مشاركةَ اللهِ فيمَا هو من خصائصِه .

والنجومُ مُسَخَّرَةٌ مخلوقةٌ ليس لها من الأمرِ شيءٌ ، ولا تَدُلُّ على نُحوسٍ ، ولا سُعودٍ ، ولا موتٍ ، ولا حياةٍ ، وإنَّما هذا كلُّه من أعمالِ الشياطينِ الذين يَسْتَرِقون السمعَ .

* * *

الفصلُ الثانى :
السحرُ والكهانةُ والعِرافةُ

كلُّ هذه الأمورِ أعمالٌ شيطانيةٌ مُحَرَّمةٌ ، تُخِلُّ بالعقيدةِ أو تُناقِضُها ؛ لأنَّها لا تَحْصُلُ إلَّا بأمورٍ شركيةٍ .

١ – فالسحرُ : عبارةٌ عمَّا خَفِىَ ، ولَطُفَ سببُه :

سُمِّى سحرًا ؛ لأنَّه يَحصُلُ بأمورٍ خفيةٍ لا تُدْرَكُ بالأبصارِ ، وهو عزائمُ ورُقًى وكلامٌ يُتَكَلَّمُ به ، وأدويةٌ وتَدْخِيناتٌ ، وله حقيقةٌ ، ومنه ما يُؤَثِّرُ فى القلوبِ والأبدانِ فيُمْرِضُ ، ويَقْتُلُ ، ويُفَرِّقُ بينَ الزوجِ وزوجِه .

وتأثيرُه بإذنِ اللهِ الكونيِّ القَدَرِيِّ ، وهو عملٌ شيطانيٌّ ، وكثيرٌ منه لا يُتَوَصَّلُ إلَيْه إلَّا بالشركِ والتقربِ إلى الأرواحِ الخبيثةِ بما تُحِبُّ ، والتَّوَصُّلُ إلى استخدامِها بالإشراكِ بها ، ولهذا قرَنَه الشارعُ بالشركِ حيثُ يقولُ النبىُّ ﷺ : « اجْتَنِبُوا السبعَ المُوبِقَاتِ » . قالُوا : وما هى ؟ قال : « الإشراكُ باللهِ ، والسحرُ ». الحديثَ[1] .

فهو داخلٌ فى الشركِ من ناحِيَتَيْنِ :

الناحيةُ الأولَى : ما فيه من استخدامِ الشياطينِ ، والتَّعَلُّقِ بهم ، والتَّقرُّبِ إلَيْهم بما يُحِبُّونَه ليَقُوموا بخدمةِ الساحرِ .

فالسحرُ من تعليمِ الشياطينِ ، قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

---

(١) البخارى (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧) ، ومسلم ٩٢/١ (٨٩) .

الناحيةُ الثانيةُ : ما فيه من دعوَى علمِ الغيبِ ، ودعوَى مشاركةِ اللهِ فى ذلك ، وهذا كفرٌ وضلالٌ ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] . أى : نصيبٌ .

وإذَا كان كذلك فلا شكَّ أنَّه كفرٌ وشركٌ يُناقِضُ العقيدةَ ، ويَجِبُ قتلُ مُتَعاطِيه ، كما قتَل جماعةٌ من أكابرِ الصحابةِ رضِى اللَّهُ عنهم السحرةَ[١] .

وقَدْ تَساهَل الناسُ فى شأنِ الساحرِ والسحرِ ، ورُبَّما عَدُّوا ذلك فنًّا من الفنونِ التى يَفْتَخِرون بها ، ويَمْنَحون أصحابَها الجوائزَ والتشجيعَ ، ويُقِيمونَ النوادِىَ والحَفَلاتِ والمسابقاتِ للسحرةِ .

---

(١) فمما ورد فى ذلك من الآثار عن الصحابة .

١- ما رواه أحمد ١/١٩٠، ١٩١ (١٦٥٧) ، والشافعى فى مسنده ٢/٨٩ (٢٩٠) ، عن بَجَالة بن عَبَدة يقول : كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اقْتُلوا كل ساحر وساحرة ، قال : فقتلنا ثلاثة سواحر .

قال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده صحيح .

٢- وما رواه مالك فى الموطأ ٢/٨٧١، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زُرَارةَ أنه بلغه أن حفصة زَوْجَ النبى ﷺ قتلت جارية لها ، سَحَرَتْها .

٣- وما رواه البخارى فى التاريخ ٢/٢٢٢، وذكره ابن كثير فى تفسيره ١/١٤٩، قال : قال الإمام أبو بكر الخَلَّال : أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنى أبى ، أخبرنا يحيى ابن سعيد ، حدثنى أبو إسحاق ، عن حارثة قال : كان عند بعض الأمراء رجل يلعب ، فجاء جُنْدُبٌ مُشْتَمِلًا على سيفه ، فقتله ، قال : أُراه كان ساحرًا .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن فى فتح المجيد ٢/١٦ : قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ . اهـ

قوله : « عن ثلاثة » : أى : صح قتل الساحر عن ثلاثة ، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ ، يعنى : عمر ، وحفصة ، وجندبًا ، واللَّه أعلم . اهـ

ويَحضُرُها آلافُ المتفرِّجين والمُشَجِّعين ، أو يُسَمُّونَه بالسيركِ ، وهذا من الجهلِ بالدينِ والتهاونِ بشأنِ العقيدةِ ، وتمكينٌ للعابثين بها .

٢- الكَهانةُ والعِرافةُ : وهما ادِّعاءُ علمِ الغيبِ ، ومعرفةِ الأمورِ الغائبةِ ؛ كالإخبارِ بما سيَقَعُ في الأرضِ وما سيَحصُلُ ، وأين مكانُ الشيءِ المفقودِ .

وذلك عن طريقِ استخدامِ الشياطينِ الذين يَسْتَرِقون السمعَ من السماءِ ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢١- ٢٢٣] .

وذلك أنَّ الشيطانَ يَسْتَرِقُ الكلمةَ من كلامِ الملائكةِ ، فيُلْقِيها في أُذُنِ الكاهنِ ، ويَكْذِبُ الكاهنُ مع هذه الكلمةِ مائةَ كَذْبةٍ ، فيُصَدِّقُه الناسُ بسببِ تلك الكلمةِ التي سُمِعَتْ من السماءِ .

واللَّهُ المُنْفَرِدُ بعلمِ الغيبِ ، فمَن ادَّعى مشاركتَه في شيءٍ من ذلك بكهانةٍ ، أو غيرِها ، أو صدَّقَ مَن يَدَّعِي ذلك فقَدْ جعَل للَّهِ شريكًا فيما هو من خصائصِه .

والكهانةُ لا تَخْلُو من الشركِ ؛ لأنَّها تَقَرُّبٌ إلى الشياطينِ بما يُحِبُّون ، فهي شركٌ في الربوبيةِ من حيثُ ادِّعاءُ مشاركةِ اللهِ في علمِه ، وشركٌ في الألوهيةِ من حيثُ التَّقَرُّبُ إلى غيرِ اللهِ بشيءٍ من العبادةِ .

وعن أبي هريرةَ رضِي اللَّهُ عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : « مَن أتَى كاهنًا ، فصَدَّقَه بما يَقولُ فقَدْ كفَر بما أُنْزِلَ على محمدٍ ﷺ »[1]

(١) رواه أحمد ٤٢٨/٢ (٩٥٠٢) ، وأبو داود (٣٩٠٤) ، والترمذي (١٣٥) ، وابن ماجه (٦٣٩). =

وممَّا يَجِبُ التنبيهُ عليه ، والتَّنَبُّهُ له : أنَّ السَّحَرَةَ والكُهَّانَ والعَرَّافِينَ يَعْبَثُون بعقائدِ الناسِ بحيثُ يَظْهَرُون بمظهرِ الأطباءِ ، فيَأمُرون المرضَى بالذبحِ لغيرِ اللهِ ، بأنْ يَذْبَحُوا خروفًا ، صِفَتُه كذا وكذا ، أو دجاجةً .

أو يَكْتُبُون لهم الطَّلاسِمَ الشركيةَ والتَّعاويذَ الشيطانيةَ بصفةِ حُرُوزٍ ، يُعَلِّقُونها فى رقابِهم ، أو يَضَعُونها فى صناديقِهم ، أو فى بيوتِهم .

والبعضُ الآخرُ يَظهَرُ بمظهرِ المُخْبِرِ عن المُغَيَّباتِ وأماكنِ الأشياءِ المفقودةِ ، بحيثُ يأتِيه الجُهَّالُ ، فيَسْأَلُونَه عن الأشياءِ الضائعةِ ، فيُخْبِرُهم بها ، أو يُحْضِرُها لهم بواسطةِ عُمَلائِه من الشياطينِ .

وبعضُهم يَظهَرُ بمظهرِ الوَلِيِّ الذى له خوارقُ وكراماتٌ ، أو بمظهرِ الفَنَّانِ ؛ كدخولِ النارِ ، ولا تُؤَثِّرُ فيه ، وضربِ نفسِه بالسلاحِ ، أو وضعِ نفسِه تحتَ عَجَلاتِ السيارةِ ، ولا تُؤَثِّرُ فيه ، أو غيرِ ذلك من الشَّعْوَذاتِ التى هى فى حقيقتِها سحرٌ من عملِ الشيطانِ ، يَجْرِى على أيدِى هؤلاءِ للفتنةِ ، أو هى أمورٌ تَخْيِلِيَّةٌ ، لا حقيقةَ لها ، بل هى حِيَلٌ خَفِيَّةٌ يَتعاطَوْنَها أمامَ الأنظارِ ، كعملِ سَحَرَةِ فرعونَ بالحِبالِ والعِصِىِّ .

قال شيخُ الإسلامِ فى مناظرته للسَّحَرَةِ البطائحيَّةِ الأحمديَّةِ (الرفاعيـةِ) : قال - يعنى : شيخُ البطائحيةِ - ورفَع صوتَه : نحنُ لنا أحوالٌ وكذا وكذا . وادَّعى الأحوالَ الخارقةَ كالنارِ ، وغيرِها واختصاصَهم بها ، وأنَّهم يَستَحِقُّون تَسليمَ الحالِ إلَيْهم لأجلِها .

قالَ شيخُ الإسلامِ : فقلتُ ، ورفَعْتُ صوتى وغَضِبْتُ : أنا أُخاطِبُ

قال الشيخ الألبانى رحمه الله فى تعليقه على السنن : صحيح .

كلَّ أحمدِيٌّ من مشرقِ الأرضِ إلى مغربِها : أيَّ شيءٍ تفعَلوه في النارِ ، فأنَا أصنعُ مثلَ ما تَصنعُون ، ومَن احترَق فهو مغلوبٌ ، وربَّما قلتُ : فعليه لعنةُ اللهِ ، ولكن بعدَ أن تُغْسَلَ جُسومُنا بالخلِّ والماءِ الحارِّ .

فسأَلَني الأمراءُ والناسُ عن ذلك ، فقلتُ : لأنَّ لهم حِيَلًا في الاتصالِ بالنارِ يَصْنَعُونها من أشياءَ من دُهْنِ الضَّفَادِعِ ، وقِشرِ النَّارَنْجِ ، وحَجَرِ الطَّلْقِ ، فضَجَّ الناسُ بذلك ، فأخَذ يُظْهِرُ القدرةَ على ذلك ، فقال : أنا وأنت نُلَفُّ في بارِيَّةٍ[1] بعدَ أن تُطْلَى جُسومُنا بالكِبْريتِ .

فقلتُ : فقُمْ . وأخَذْتُ أُكَرِّرُ عليه في القيامِ إلى ذلك ، فمدَّ يدَه يُظْهِرُ خلعَ القميصِ ، قلتُ : لا ، حتَّى تَغْتَسِلَ بالماءِ الحارِّ والخَلِّ . فأظْهَرَ الوَهْمَ على عادتِهم ، فقال : مَن كان يُحِبُّ الأميرَ فليُحْضِرْ خشبًا ، أو قال : حُزْمَةَ حطبٍ ، فقلتُ : هذا تَطويلٌ وتفريقٌ للجمعِ ، ولا يَحصُلُ به مقصودٌ ، بل قِنْدِيلٌ يُوقَدُ ، وأُدْخِلُ أُصبُعِي وأصبُعَك فيه بعدَ الغَسلِ ، ومَن احترَقَتْ أصبعُه فعليه لعنةُ اللَّهِ ، أو قُلتُ : فهو مغلوبٌ ، فلمَّا قلتُ ذلك تَغَيَّرَ وذَلَّ . انتهى[2] .

والمقصودُ منه بيانُ أنَّ هؤلاءِ الدَّجَّالينَ يَكْذِبُون على الناسِ بمثلِ هذه الحِيَلِ الخفيةِ ؛ كجرِّهم السيارةَ بشعرةٍ ، وإلقائِهم أنفسَهم تحتَ عجلاتِها ، وإدخالِ أسياخِ الحديدِ في أعينِهم ، إلى غيرِ من الشَّعْوَذاتِ الشيطانيةِ .

* * *

---

(١) البارِيَّة : الحَصِير . (فارسي مُعَرَّب) ، المعجم الوسيط (ب و ر) .

(٢) مجموع الفتاوى ١١/٤٦٥، ٤٦٦، وانظر بداية ذكر أحوال الشيخ مع هؤلاء البطائحية الرفاعية ص٤٤٦ من نفس المجلد .

الفصلُ الثالثُ :

تقديمُ القَرابينِ والنذورِ والهدايا للمَزاراتِ والقبورِ ، وتعظيمُها

لقد سَدَّ النبيُّ ﷺ كلَّ الطرقِ المُفْضِيَةِ إلى الشركِ ، وحذَّر منها غايةَ التحذيرِ ، ومن ذلك مسألةُ القبورِ ، فقَدْ وضَع الضوابطَ الواقيةَ من عبادتِها ، والغُلُوِّ فى أصحابِها ، ومن ذلك :

١- أنَّه حذَّر ﷺ من الغُلُوِّ فى الأولياءِ والصالحين ؛ لأنَّ ذلك يُؤَدِّى إلى عبادتِهم ، فقال : « إيَّاكُم والغُلُوَّ فإنَّما أهلَك مَن كان قبلَكم الغُلُوُّ »(١) . وقال : « لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النصارَى ابنَ مريمَ ، إنَّما أنا عبدُ اللَّهِ ورسولُه »(٢) .

٢- وحذَّر ﷺ من البناءِ على القبورِ ، كما روَى أبو الهَيَّاجِ الأَسَدِىُّ قال : قال لى علىُّ بنُ أبى طالبٍ رضِى اللَّهُ عنه : « ألَا أَبْعَثُك على مَا بَعَثَنِي عليه رسولُ اللهِ ﷺ ، أنْ لَا تَدَعَ تِمْثالًا إلَّا طَمَسْتَه ، ولا قبرًا مُشْرِفًا إلَّا سَوَّيْتَه »(٣) .

---

(١) رواه أحمد ٢١٥/١، ٣٤٧ (١٨٥١، ٣٢٤٨) ، وابن ماجه (٣٠٢٩) ، والبيهقى ١٦٥/٥ .
قال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده صحيح .
وقال الشيخ الألبانى فى تعليقه على سنن ابن ماجه : صحيح .

(٢) رواه أحمد ٢٣/١، ٢٤، ٤٧، ٥٥ (١٥٤، ١٦٤، ٣٣١، ٣٩١) ، والبخارى (٣٤٤٥).
قال البغوى رحمه اللَّه فى شرح السنة ٢٤٦/١٣: قوله : « لا تُطْرُونى » ، الإطراء : مجاوزة الحد فى المدح ، والكذب فيه ، وذلك أن النصارى أفرطوا فى مدح عيسى وإطرائه بالباطل ، وجعلوه ولدًا لله ، فمنعهم النبى ﷺ من أن يُطْرُوه بالباطل . اهـ

(٣) رواه أحمد ٨٩/١، ٩٦، ١١١ (٦٨٣، ٧٤١، ٨٨٩) ، ومسلم ٦٦٦/٢ (٩٦٩) ، =

ونهَى عن تَجْصِيصِها والبناءِ عليها ، فعن جابرٍ رضِى اللّٰهُ عنه قال : نَهَى رسولُ اللّٰهِ ﷺ عن تَجْصِيصِ القبرِ ، وأنْ يُقْعَدَ عليه ، وأنْ يُبْنَى عليه بِناءٌ(١).

٣– وحذَّر ﷺ من الصلاةِ عندَ القبورِ : عن عائشةَ رضِى اللّٰهُ عنها قالت : لما نُزِلَ برسولِ اللّٰهِ ﷺ طَفِق يَطْرَحُ خَمِيصةً له على وجهِه ، فإذَا اغْتَمَّ بها كشَفها . فقال ، وهو كذلك : « لعنةُ اللّٰهِ على اليهودِ والنصارَى اتَّخَذُوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ » .

يُحَذِّرُ ما صنَعوا ، ولولا ذلك أُبْرِزَ قبرُه ، غيرَ أنَّه خُشِيَ أن يُتَّخَذَ مسجدًا(٢) .

وقال ﷺ : « ألا وإنَّ مَن كان قبلَكم كانوا يَتَّخِذُون قبورَ أنبيائِهم مساجدَ ، ألَا فلا تَتَّخِذُوا القبورَ مساجدَ ؛ فإنِّى أَنهاكم عن ذلك »(٣) .

واتِّخاذُها مساجدَ معناه الصلاةُ عندَها ، وإن لم يُبْنَ مسجدٌ عليها ، فكلُّ موضعٍ قُصِدَ للصلاةِ فيه اتُّخِذَ مسجدًا ، كما قال ﷺ : « جُعِلَتْ لِىَ الأرضُ مسجدًا وطَهورًا »(٤) . فإذَا بُنِى عليها مسجدٌ فالأمرُ أشدُّ .

وقد خالَف أكثرُ الناسِ هذه النواهِىَ، وارْتَكَبوا ما حذَّر منه النبىُّ ﷺ،

= وأبو داود (٣٢١٨) ، والترمذى (١٠٤٩) ، والنسائى (٢٠٣١) .

(١) رواه مسلم ٦٦٧/٢ (٩٧٠) ، وأبو داود (٣٢٢٥) ، والترمذى (١٠٥٢) .

(٢) رواه البخارى (٤٣٥، ٤٣٦، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٣٤٥٤، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٤٤٤٤، ٥٨١٥، ٥٨١٦) ، ومسلم ٣٧٦/١، ٣٧٧ (٥٢٩، ٥٣١) .

(٣) رواه مسلم ٣٧٦/١ (٥٣٢) .

(٤) رواه البخارى (٤٣٨) ، ومسلم ٣٧٠/١ (٥٢١) .

فوقَعوا بسببِ ذلك فى الشركِ الأكبرِ ، فبَنَوْا على القبورِ مساجدَ وأضرحةً ومقاماتٍ ، وجعَلوها مزاراتٍ ، تُمارَسُ عندَها كلُّ أنواعِ الشركِ الأكبرِ ؛ من الذَّبْحِ لها ، ودُعاءِ أصحابِها ، والاستغاثةِ بهم ، وصرفِ النذورِ لهم ، وغيرِ ذلك .

قال العلامةُ ابنُ القيمِ رحمه اللهُ : ومَن جمَع بينَ سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ فى القبورِ ، وما أمَر به ، ونهَى عنه ، وما كان عليه أصحابُه ، وبينَ ما عليه أكثرُ الناسِ اليومَ[1] ، رأَى أحدَهما مضادًّا للآخَرِ ، مُناقِضًا له بحيثُ لا يَجْتَمِعانِ أبدًا .

فنهَى رسولُ اللهِ ﷺ عن الصلاةِ إلى القبورِ[2] ، وهؤلاءِ يُصَلُّونَ عندَها .

ونهَى عن اتِّخاذِها مساجدَ[3] ، وهؤلاء يَبْنُون عليها المساجدَ ، ويُسَمُّونَها مشاهدَ ؛ مضاهاةً لبيوتِ اللهِ .

ونهَى عن إيقادِ السُّرُجِ عليها[4] ، وهؤلاء يُوقِفُون الوُقوفَ على إيقادِ

---

(١) يعنى : فى وقته رحمه اللّٰه ، وقد زاد الأمر على ما ذكر ، فالله المستعان .

(٢) روى مسلم ٦٦٨/٢ (٩٧٢) ، وأبو داود (٣٢٢٩) ، والترمذى (١٠٥٠) ، عن أبى مَرْثَد الغَنَوى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تُصَلُّوا إلى القبور ، ولا تجلسوا عليها » .

(٣) تقدم ذكر الدليل على ذلك فى كلام الشيخ حفظه الله ص٢٥٦ .

(٤) روى أبو داود (٣٢٣٦) ، والترمذى (٣٢٠) ، والنسائى (٢٠٤٣) ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمُتَّخِذِين عليها المساجد والسُّرُج .
قال الترمذى : حديث ابن عباس حديث حسن .
وحسَّنه أيضًا شيخ الإسلام رحمه اللّٰه تعالى ، كما فى مجموع الفتاوى ٣٤٨/٢٤ وما =

القَناديلِ عليها .

ونهَى عن أنْ تُتَّخذَ عيدًا[١] ، وهؤلاء يَتَّخِذُونها أعيادًا ومناسكَ ، ويَجْتَمِعُون لها كاجتماعِهم للعيدِ ، أو أكثرَ .

وأمَر بتَسْوِيَتِها ، كما روَى مسلمٌ فى صحيحِه عن أبِى الهَيَّاجِ الأَسَدىِّ : قال : قال لى علىُّ بنُ أبى طالبٍ رضِى اللَّهُ عنه : أَلَا أَبْعَثُك على ما بعَثَنى عليه رسولُ اللهِ ﷺ ؟ أن لا تَدَعَ صورةً إلَّا طَمَسْتَها ، ولا قبرًا مُشْرِفًا إلَّا سَوَّيْتَه[٢] .

وفى صحيحِه أيضًا عن ثُمامةَ بنِ شُفَىٍّ قال : كنا مع فَضَالةَ بنِ عبيدٍ بأرضِ الرومِ بِرُودِسَ ، فتُوُفِّىَ صاحبٌ لنا ، فأمَر فَضالةُ بقبرِه فسُوِّى ، ثمَّ قال : سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُ بتَسْوِيَتِها[٣] .

= بعدها ، وانظر بحث الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد فى هذا الحديث ، من كتابه الأجزاء الحديثية ص١١٣ وما بعدها .

(١) روى أحمد ٢/٣٦٧ (٨٧٩٠) ، وأبو داود (٢٠٤٢) ، وعبد الرزاق فى « مصنفه » ٢/ ٥٧٧ (٦٧٢٦) ، وابن أبى شيبة ٢/٣٧٥، عن أبى هريرة رضى اللَّه عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تتخذوا قبرى عيدًا ... » الحديث .

قال الشيخ الألبانى رحمه اللَّه فى تعليقه على سنن أبى داود : صحيح .

(٢) تقدم تخريجه ص٢٥٥ .

(٣) رواه أحمد ٦/١٨ (٢٣٨١٩، ٢٣٨٢٠) ، ومسلم ٢/٦٦٦ (٩٦٨) ، وأبو داود (٣٢١٩) ، والنسائى (٢٠٠٣) .

وقال النووى رحمه فى شرح مسلم ٤/٤٢ : قوله : كنا مع فضالة بأرض الروم برُودِس . هو براء مضمومة ، ثم واو ساكنة ، ثم دال مهملة مكسورة ، ثم سين مهملة ، كذا ضبطناه فى صحيح مسلم ، وكذا نقله القاضى عياض فى المشارق عن الأكثرين ، ونقَلَ عن بعضهم =

وهؤلاء يُبالِغونَ في مخالفةِ هذَيْن الحدِيثَين ، ويَرفَعُونها عن الأرضِ كالبيتِ ، ويَعْقِدُون عليها القِبابَ .

إلى أن قال : فانظُرْ إلى هذا التَّبايُنِ العظيم بينَ ما شرَعَه رسولُ اللهِ ﷺ ، وقصَده من النَّهْيِ عمَّا تَقَدَّمَ ذِكرُه في القبورِ ، وبينَ ما شرَعَه هؤلاء وقصَدُوه .

ولا ريبَ أنَّ في ذلك من المفاسدِ ما يَعْجِزُ العبدُ عن حَصرِه ، ثمَّ أخَذ يَذكُرُ تلكَ المفاسدَ ، إلى أن قال : ومنها أنَّ الذي شرَعَه النَّبيُّ ﷺ عندَ زيارةِ القبورِ إنَّما هو تذكُّرُ الآخرةِ ، والإحسانُ إلى المَزُورِ بالدعاءِ له ، والترحُّمِ عليه ، والاستغفارِ ، وسؤالِ العافيةِ له .

فيكونُ الزائرُ مُحْسِنًا إلى نفسِه وإلى المَيِّتِ ، فقلَب هؤلاء المشركونَ الأمرَ ، وعكَسوا الدِّينَ ، وجعَلوا المقصودَ بالزيارةِ الشركَ بالمَيِّتِ ودعاءَه ، والاستغاثةَ به ، وسؤالَ حوائجِهم ، واستنزالَ البركاتِ منه ، ونصرَه لهم على الأعداءِ ، ونحوَ ذلك .

فصاروا مُسيئِين إلى أنفسِهم وإلى المَيِّتِ ، ولو لم يَكُنْ إلَّا بحرمانِه بركةَ ما شرَعَه تعالى من الدُّعاءِ له ، والترحمِ عليه ، والاستغفارِ له . انتهى[١] .

وبهذا يَتَّضِحُ أن تَقديمَ النُّذورِ والقرابينِ للمَزاراتِ شِركٌ أكبرُ ، سببُه

= بفتح الراء ، وعن بعضهم بفتح الدال ، وعن بعضهم بالشين المعجمة ، وفي رواية أبي داود في السنن بذال معجمة ، وسين مهملة ، وقال : هي جزيرة بأرض الروم . اهـ

(١) إغاثة اللهفان ١/٢١٤ - ٢١٧ .

مخالفةُ هَدْيِ النَّبيِّ ﷺ فى الحالةِ التى يَجِبُ أن تَكونَ عليها القبورُ من عدمِ البناءِ عليها ، وإقامةِ المساجدِ عليها ؛ لأنَّها لمَّا بُنِيَتْ عليها القِبابُ ، وأُقِيمَتْ حولَها المساجدُ والمزاراتُ ظَنَّ الجُهَّالُ أنَّ المَدْفُونِينَ فيها يَنفَعُون أو يَضُرُّونَ .

وأنَّهم يُغِيثُون مَن استَغاثَ بهم ، ويَقْضُونَ حوائِجَ مَن التَجَأَ إلَيْهم ، فقَدَّمُوا لهم النذورَ والقرابينَ ، حتى صارَتْ قبورُهم أوثانًا تُعْبَدُ من دونِ اللهِ[1].

(١) قال الإمام الشوكانى رحمه الله فى نيل الأوطار ١٠١/٤، ١٠٢ : وكم قد سَرَى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام ، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعَظُم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ، فجعلوها مَقْصِدًا لطلب قضاء الحوائج ، ومَلْجَأً لنجاح المطالب ، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم ، وشَدُّوا إليها الرِّحال ، وتَمَسَّحوا بها ، واستغاثوا .

وبالجملة فإنهم لم يَدَعُوا شيئًا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد مَن يَغْضَبُ لله ، ويغار حَمِيَّةً للدين الحنيف ، لا عالمًا ، ولا مُتَعَلِّمًا ، ولا أميرًا ، ولا وزيرًا ، ولا مَلِكًا ، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يُشَكُّ معه أن كثيرًا من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خَصْمه حلف بالله فاجرًا ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك ومُعْتَقَدِك الولى الفلانى تَلَعْثَم ، وتَلَكَّأ ، وأبى ، واعترف بالحق .

وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : إنه تعالى ثانى اثنين ، أو ثالث ثلاثة .

فيما علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين ، أىُّ رُزْءٍ للإسلام أشدّ من الكفر ، وأى بلاءٍ لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟!

وقد قال ﷺ : « اللَّهمَّ لا تجْعَلْ قَبْرِى وثنًا يُعْبَدُ »[١].

وما دعا بهذا الدعاءِ إلَّا لأنَّه سيَحصُلُ شيءٌ من ذلك فى غيرِ قبرِه ﷺ، وقَدْ حصَل فى كثيرٍ من بلادِ الإسلامِ.

أمَّا قبرُه فقَدْ حمَاه اللهُ ببركةِ دعائِه ﷺ ، وإن كان قد يَحْصُلُ فى مسجدِه شيءٌ من المخالفاتِ من بَعْضِ الجهَّالِ أو الخُرافِيِّينَ.

ولكنَّهم لا يَقْدِرون على الوصولِ إلى قبرِه ﷺ ؛ لأنَّ قبرَه فى بيتِه ، وليسَ فى المسجدِ ، وهو مَحُوطٌ بالجدرانِ.

كما قال العلامةُ ابنُ القيمِ رحِمه اللهُ فى نونيتِه :

فأجابَ ربُّ العالمينَ دُعاءَه ۞ وأحاطَه بثلاثةِ الجُدْرانِ[٢]

* * *

= وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تَعْدِل هذه المصيبة ؟!

وأى منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبًا ؟!

لقد أسْمَعْتَ لو نادَيْتَ حيًّا ۞ ولكن لا حياةَ لِمَن تُنادِى

ولو نارًا نفَخْتَ بها أضَاءَتْ ۞ ولكن أنت تَنْفُخُ فى رَمادِ

(١) رواه مالك فى الموطأ (١٧٢) .

وقال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند ١٧٣/٧ : وهذا الحديث مرسل . اهـ

وهذا الحديث عند أحمد ٢٤٦/٢ (٧٣٥٢) ، ولكن بدون لفظة : « يعبد » .

قال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده صحيح .

(٢) القصيدة النونية لابن القيم ، بشرح الشيخ محمد خليل هراس ٢٣٢/٢ .

الفصلُ الرابعُ :

فى بيانِ حكمِ تعظيمِ التَّماثيلِ والنُّصبِ التَّذْكاريةِ

التماثيلُ : جَمْعُ تمثالٍ ، وهو الصورةُ المُجَسَّمَةُ على شكلِ إنسانٍ ، أو حيوانٍ ، أو غيرِهما ، ممَّا فيه رُوحٌ ، والنُّصْبُ فى الأصلِ : العَلَمُ وأحجارٌ كان المُشرِكونَ يَذْبَحون عندَها .

والنُّصْبُ التَّذْكاريَّةُ تَماثيلُ يُقيمُونَها فى الميادينِ ونحوِها ؛ لإحياءِ ذكرَى زعيمٍ ، أو مُعَظَّمٍ على صُوَرِهم .

ولقد حذَّر النَّبىُّ ﷺ من تصويرِ ذواتِ الأرواحِ[1] ، ولا سيَّما تَصويرُ المُعَظَّمِين من البشرِ ؛ كالعلماءِ والملوكِ والعُبَّادِ والقادةِ والرؤساءِ .

سواءٌ كان هذا التصويرُ عن طريقِ رَسْمِ الصورةِ على لَوْحةٍ ، أو ورقةٍ ، أو جدارٍ ، أو ثوبٍ ، أو عن طريقِ الالتقاطِ بالآلةِ الضَّوْئيةِ المعروفةِ فى هذا الزمانِ ، أو عن طريقِ النَّحتِ وبناءِ الصورةِ على هيئةِ التمثالِ .

ونهَى ﷺ عن تعليقِ الصورِ على الجدرانِ ونحوِها[2] ، وعن نَصْبِ

---

(١) ومن ذلك ما رواه مسلم ١٦٦٩/٣ (١٦٧٠) عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « الذين يصنعون الصور يُعَذَّبون يوم القيامة ، يُقال لهم : أَحْيُوا ما خلقتم » .

(٢) روى البخارى (٢٤٧٩، ٥٩٥٤، ٥٩٥٥، ٦١٠٩) ، ومسلم ١٦٦٨/٣ (٢١٠٦) ، الحديث رقم (٩٢) ، من كتاب اللباس والزينة ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علىَّ رسول الله ﷺ ، وقد سترْتُ سَهْوةً لى بقِرَام ، فيه تماثيل ، فلمَّا رآه هتَكَه ، وتلَوَّن وجهُه ، وقال : « يا عائشة ، أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة الذين يُضَاهُون بخلق الله » .

قال النووى رحمه الله فى شرح مسلم ٣٤٤/٧: القرام - بكسر القاف -: هو السِّتْر الرقيق ، والسَّهْوة - بفتح السين المهملة -: قال الأصمعى : هى شبيهة بالرَّفِّ ، أو =

التماثيلِ ، ومنها النُّصْبِ التَّذْكاريةِ ؛ لأنَّ ذلك وسيلةٌ إلى الشركِ ؛ فإنَّ أولَ شركٍ حدَث فى الأرضِ كان بسببِ التصويرِ ، ونَصْبِ الصُّوَرِ .

وذلك أنَّه كان فى قومِ نوحٍ رجالٌ صالحون ، فلمَّا ماتوا حزِن عليهم قومُهم ، فأوْحَى إليهم الشيطانُ أنِ انْصِبوا إلى مجالسِهم التى كانوا يَجلِسُون فيها أنصابًا ، وسَمُّوها بأسمائِهم ، ففعَلوا ، ولم تُعْبَدْ، حتى إذا هلَك أولئك ، ونُسِى العلمُ عُبِدَتْ[1] .

ولمَّا بعَث اللهُ نبِيَّه نوحًا عليه السلامُ يَنْهَى عن الشركِ الذى حصَل بسببِ تلك الصورِ التى نُصِبَت امتنَع قومُه من قَبولِ دعوتِه ، وأصَرُّوا على عبادةِ تلك الصورِ المنصوبةِ التى تَحَوَّلَتْ إلى أوثانٍ : ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح : ٢٣] .

وهذه أسماءُ الرجالِ الذين صُوِّرَتْ لهم تلك الصورُ على أشكالِهم ؛ إحياءً لذِكْرياتِهم ، وتعظيمًا لهم .

فانْظُرْ ما آلَ إليه الأمرُ بسببِ هذه الأنصابِ التَّذْكاريَّةِ من الشركِ باللهِ ، ومعاندةِ رسلِه ، ممَّا سبَّب إهلاكَهم بالطُّوفانِ ، ومَقْتَهم عندَ اللهِ وعندَ خلقِه ، ممَّا يَدُلُّ على خطورةِ التصويرِ ، ونَصْبِ الصورِ .

ولهذا لعَن النَّبىُّ ﷺ المُصَوِّرينَ[2] ، وأخبَر أنَّهم أشدُّ الناسِ عذابًا يومَ

= بالطاق ، يُوضَع عليه الشىء . اهـ

(١) رواه البخارى (٤٩٢٠) .

(٢) روى أحمد ٤/ ٣٠٨، ٣٠٩ (١٨٦٦٢، ١٨٦٧٤) ، والبخارى (٢٠٨٦، ٢٢٣٨، ٥٣٤٧، ٥٩٦٢) عن أبى جُحَيْفةَ رضى اللَّه عنه ، أن النبى ﷺ نهى عن ثمن الدم ، وثمن الكلب ، وكسب البَغِىّ ، ولعن آكل الربا ومُوكِلَه ، والواشمة والمُسْتَوْشِمة، والمُصَوِّر.

القيامةِ[١]، وأمَر بطَمْسِ الصورِ[٢]، وأخبرَ أنَّ الملائكةَ لا تَدْخُلُ بيتًا فيه صورةٌ[٣].

كلُّ ذلك من أجلِ مفاسدِها وشدَّةِ مخاطرِها على الأُمةِ فى عقيدتِها ؛ فإنَّ أولَ شركٍ حدَث فى الأرضِ كان بسببِ نَصْبِ الصورِ.

وسواءٌ كان هذا النصبُ للصورِ، والتماثيلِ فى المجالسِ، أو المَيادينِ، أو الحدائقِ ؛ فإنَّهُ مُحَرَّمٌ شرعًا ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى الشركِ وفسادِ العقيدةِ، وإذا كان الكفارُ اليومَ يَعْمَلُون هذا العملَ ؛ لأنَّهم ليس لهم عقيدةٌ يُحافِظون عليها، فإنَّه لا يَجوزُ للمسلمين أنْ يَتَشَبَّهوا بهم، ويُشارِكُوهم فى هذا العملِ ؛ حفاظًا على عقيدتِهم التى هى مصدرُ قُوَّتِهم وسعادتِهم .

ولا يقالُ : إنَّ الناسَ تَجاوَزُوا هذه المرحلةَ، وعرَفُوا التوحيدَ والشركَ ؛ لأنَّ الشيطانَ يَنْظُرُ للجيلِ المُسْتَقْبَلِ، حينَما يَظْهَرُ فيهم الجهلُ، كما عمِل مع قومِ نوحٍ، لَمَّا مات علماؤُهم، وفشا فيهم الجهلُ، ولأنَّ الحيَّ لا تُؤْمَنُ عليه الفتنةُ، كما قال إبراهيمُ عليه السلامُ : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] ، فخاف على نفسِه الفتنةَ، قال بعضُ السلفِ : ومَن يَأْمَنُ البلاءَ بعدَ إبراهيمَ[٤]؟!

---

(١) البخارى (٦١٠٩) ، ومسلم ٣/ ١٦٦٧، ١٦٦٨ (٢١٠٧) الحديث رقم (٩١، ٩٣) ، من كتاب اللباس والزينة .

(٢) تقدم ذكر الدليل على ذلك ص٢٥٥، ٢٥٨ .

(٣) البخارى (٥٩٤٩) ، ومسلم ٣/١٦٦٥ (٢١٠٦) .

(٤) قال فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحِمه اللَّهُ تعالى فى كتاب الشرح الممتع ٢/١٩٥ :

....

= التصوير محرم ، والتصوير أنواع ثلاثة :
النوع الأول : تصوير ما يصنعه الآدمى ، فهذا جائز ؛ مثل : صوَّر إنسان سيارة ، خطها بيده ، فإذا رأيتها قلت : هذه طبق الأصل ، فنقول : هذا جائز .
النوع الثانى : أن يصور ما لا روح فيه مما لا يخلقه إلا اللَّه ، ولكنه فيه حياة إلا أنها ليست نفسًا ؛ كتصوير الأشجار والزروع ، وما أشبه ذلك .
فجمهور أهل العلم : أن ذلك جائز ولا بأس به .
وقال مجاهد : إنه حرام ، فلا يجوز للإنسان أن يصور شجرة ، أو زرعًا ، أو بِرْسِيمًا ، أو غير ذلك من الأشياء التى فيها روح ، لا نفس .
النوع الثالث : أن يصور ما فيه نفس من الحيوان ، مثل : الإنسان والبعير والبقر والشاة والأرانب وغيرها ، فهذه اختلف السلف فيها ، فمنهم من قال : إنها حرام إن كانت ذات جسم ، وجائزة إن كانت بالتلوين ، ليست ذات جسم .
ومنهم من قال ، وهم الجمهور ، وهو الصحيح : إنها محرمة سواء كانت مُجَسَّمة ، أو ملونة ، فالذى يخط بيده ويصنع صورة كالذى يعملها ويصنعها بيده ، ولا فرق ، بل هى من كبائر الذنوب ، حتى قال الرسول ﷺ : « أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون الذين يضاهون بخلق الله » . ومع الأسف أصبح هذا فى عصرنا الحاضر فنًّا يُدَرَّس أو يُقَرّ ويمدح عليه الإنسان ، فإذا صور الإنسان بقرة أو بعيرًا أو إنسانًا قالوا : ما أحذقه ، وما أقدره ، وما أشبه ذلك ، ولا شك أن هذا رضا بشىء من كبائر الذنوب ، والنبى عليه الصلاة والسلام قال عن اللَّه سبحانه وتعالى : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى » ؛ أى : لا أحد أظلم ممن أراد أن يشارك الخالق فى صنعه ، هذا ظلم وافتراء على اللَّه عزَّ وجلَّ ، تريد أن تشبه نفسك ، وأنت مخلوق بالخالق ، ثم تحدَّاهم اللَّه ، فقال : « فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا شعيرة » ، تحداهم الله بأمرين : بما فيه روح ، وهو من أصغر المخلوقات ، وهو الذَّرُّ ، وبما لا روح فيه ، وهو الشعيرة ، فهم لا يقدرون على هذا لو اجتمعوا من آدم إلى يوم القيامة .
فإن قيل : الآن فيه أُرْز صناعى يشبه الحقيقى ؟
نقول : ليس هذا كالأرز الحقيقى ، لو ألقيته فى الأرض وصببت عليه الماء ليلًا ونهارًا ما نبت ولفسد ، لكن ما الذى ينبت ؟ الجواب : الذى ينبت هو صنع اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ ، فإذًا ليس هذا كسرًا للتحدى الذى تحدى اللَّه به الخلق ، =

....

= « فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا شعيرة » .

إذًا نقول : إن التصوير حرام ، سواء كان ذلك مُجَسَّمًا أو مُلَوَّنًا ، وهو من كبائر الذنوب ، وفاعله – ولو مرةً واحدةً ، يخرج به عن العدالة ، ويكون فاسقًا إلا أن يتوب .

وأما الصور بالطرق الحديثة فهى قسمان :

القسم الأول : لا يكون له منظر ، ولا مشهد ، ولا مظهر ، كما ذُكِر لى عن التصوير بأشرطة الفيديو ، فهذا لا حكم له إطلاقًا ، ولا يدخل فى التحريم مطلقًا ، ولهذا أجازه أهل العلم الذين يمنعون التصوير على الآلة الفوتوغرافية على الورق ، وقالوا : إن هذا لا بأس به ، حتى إنه قيل : هل يجوز أن تصور المحاضرات التى تلقى فى المساجد ؟ فكان الرأى ترك ذلك ؛ لأنَّه ربما يشوش على المصلين ، وربما يكون المنظر غير لائق ، وما أشبه ذلك .

القسم الثانى : التصوير الثابت على الورق . وهذا إذا كان بآلة فوتوغرافية فورية ، فلا يدخل فى التصوير ، ولا يستطيع الإنسان أن يقول : إن هذا ملعون ؛ لأنَّه لم يصور فى الواقع ؛ فإن التصوير مصدر صور يصور أى : جعل : هذا الشيء على صورة معينة ، كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، وقال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ فالمادة تقتضى أن يكون هناك فعل فى نفس الصورة ؛ لأنَّ « فعَّل » فى اللغة العربية هذا مقتضاه ، ومعلوم أن نقل الصورة بالآلة ليس على هذا الوجه ، وإذا كان ليس على هذا الوجه فلا نستطيع أن ندخله فى اللعن ، ونقول : إن هذا الرجل ملعون على لسان رسول اللَّه ﷺ ؛ لأنَّه كما يجب علينا التورع فى إدخال ما ظاهر اللفظ عدم دخوله فيه ، يجب علينا أيضًا التورع فى منع ما لا يتبين لنا دخوله فى اللفظ ؛ لأن هذا إيجاب ، وهذا سلب ، فكما نتورع فى الإيجاب نتورع أيضًا فى السلب ، وكذلك كما يجب أن نتورع فى السلب يجب أن نتورع فى الإيجاب ، فالمسألة ليست مجرد تحريم ، ولكن سيترتب عليها العقوبة ، فهل نشهد أن هذا معاقب باللعن وشدة الظلم ، وما أشبه ذلك ؟ لا نستطيع أن نجزم إلا بشيء واضح ؛ ولهذا يفرق بين رجل أخذ الكتاب الذى خطته يدى ، وألقاه فى الآلة الفوتوغرافية ، وحرك الآلة ، فانسحبت الصورة ، فيقال : إن هذا الذى خرج بهذا الورق رسم الأول ، ويقال : هذا خطه ، ويشهد الناس عليه ، وبين أن آتى بخطك أقلده بيدى ، أرسم مثل حروفه وكلماته ، فأنا الآن حاولت أن أقلدك ، وأن أكتب ما =

....

= كتبت ، وأصور كما صورت . أما المسألة الأولى فليس منى فعل إطلاقًا ، ولهذا يمكن أن أصور فى الليل ، ويمكن أن أصور إنسانًا ، وقد أغمض عينيه ، ويمكن أن يصور الرجل الأعمى ، فكيف نقول : إن هذا الرجل مصور ؟ فالذى أرى أن هذا لا يدخل تحت اللعنة ، ولا يكون تحت التصوير بناء على المادة التى اشتق منها « صور » .

ولكن يبقى النظر إذا أراد الإنسان أن يصور هذا التصوير المباح ، فإنه تجرى فيه الأحكام الخمسة بحسب القصد ، فإذا قصد به شيئًا محرمًا فهو حرام ، وإن قصد به شيئًا واجبًا كان واجبًا ، فقد يجب التصوير أحيانًا ، خصوصًا الصور المتحركة ، فإذا رأينا مثلًا إنسانًا مُتَلَبِّسًا بجريمة من الجرائم التى هى من حق العباد ؛ كمحاولة أن يقتل ، وما أشبه ذلك ، ولم نتوصل بإثباتها إلا بالتصوير ، كان التصوير حينئذ واجبًا ، خصوصًا فى المسائل التى تضبط القضية تمامًا ؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد ، إذا أجرينا هذا التصوير لإثبات شخصية الإنسان ؛ خوفًا من أن يتهم بالجريمة غيره ، فهذا أيضًا لا بأس به ، بل هو مطلوب .

وإذا صورنا هذه الصورة من أجل التمتع بالنظر إليها فهذا حرام بلا شك ، وكالصورة للذكرى ؛ لأننا لا نقول : إنها غير صورة ، هى صورة لا شك ، فإذا اقتناها فقد جاء الوعيد فيمن كان عنده صورة أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ، كما سيأتى إن شاء الله .

قوله : « واستعماله » : هذه الجملة فيها شىء من التجوز ؛ لأنَّنا لو أخذناها بظاهرها لكان المعنى واستعمال التصوير ؛ لأنَّ الضمير يعود على التصوير ، وليس هذا بمراده قطعًا ؛ لأنَّ المعنى يفسد ، لكن كما قال الشارح : واستعمال المصور « التصوير » : المراد به المصور ، فالضمير عاد على مصدر يراد به اسم المفعول ؛ يعنى : استعمال المصور هذا حرام ، وظاهر إطلاق المؤلف العموم ، أنه يحرم على أى وجه كان ، ولكن ينبغى أن نعلم التفصيل فى هذا .

فاستعمال المصوَّر ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يستعمله على سبيل التعظيم ، فهذا حرام ، سواء كان مجسمًا أو ملونًا ، وسواء كان التعظيم تعظيم سلطان ، أو تعظيم عبادة ، أو تعظيم علم ، أو تعظيم قرابة ، أو تعظيم صحبة ، أيًّا كان نوع التعظيم ، وفى الحقيقة إنه ليس فيه تعظيم ، فمثلًا إذا أراد أن يصور أباه ، فإن كان أبوه حيًّا فالتعظيم بإعطائه ما يلزمه من البر ، القولى والفعلى والمالى =

....

= والجاهي وغير ذلك ، وإن كان ميتًا فلا ينتفع بهذا التعظيم ، بل فيها كسب الإثم وتجديد الأحزان ، ولذلك يجب على من كان عنده صورة من هذا النوع أن يمزقها ، أو يُحْرِقها ، ولا يجوز له إبقاؤها ؛ لأن هذا فيه خطورتان :
الخطورة الأولى : تجنب الملائكة لدخول البيت .
والخطورة الثانية : أن الشيطان قد يدخل على الإنسان من هذا التعظيم حتى يستولى تعظيمه على قلبه ، ويسيطر عليه ، لا سيما فيما يتعلق بالعلم والعبادة ؛ فإن فتنة قوم نوح كانت فى الصور ، وهذا لا فرق فيه بين المُلَوَّن والمُجَسَّم ؛ أى : سواء كانت صورة على ورقة ، أو على خرقة ، أو كانت صورة مجسمة .
القسم الثاني : أن يتخذها على سبيل الإهانة ، مثل : أن يجعلها فراشًا ، أو مخدة ، أو وسادة ، أو ما أشبه ذلك ، فهذا فيه خلاف بين أهل العلم :
فأكثر أهل العلم على الجواز ، وأنه لا بأس به ؛ لأنَّ الرسول ﷺ اتخذ وسادة فيها صورة ، ولأن هذا ضد السبب الذى من أجله حرم استعمال الصور ؛ لأن هذا إهانة ، واستعمال الصور على سبيل التعظيم غير محقق .
وذهب بعض أهل العلم إلى التحريم ، واستدل هؤلاء بأن النبى ﷺ جاء إلى البيت ذات يوم ، فرأى نُمْرُقة فيها صور – نمرقة ؛ أى : مخدة – فوقف ولم يدخل ، قالت عائشة : فعرفت الكراهية فى وجهه ، فقلت : أتوب إلى الله ورسوله مما صنعت ؟ فقال : « إن أهل هذه الصور يعذبون ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » . قالوا : فنكرهها ؛ لأنَّ الرسول ﷺ كرهها ، وقال : « إن أهل هذه الصور يعذبون » . وقال : « إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة » . ويحمل ما ذُكِر عنه أنه اتكأ على مخدة فيها صورة بأن هذه الصورة قطع رأسها ، وإذا قُطِع رأسُ الصورة فهو جائز ، ولا شك أن هذا أورع وأحوط ، فلا تستعمل الصورة ، ولو على سبيل الامتهان كالفراش والمخدة ، والسلامة أسلم ، وشيء كره الرسول ﷺ أن يدخل البيت من أجله ، فلا ينبغى لك أن تدخله ، وينشرح صدرك ، فمن يستطيع أن ينشرح صدره فى مكان كره النبى ﷺ دخوله ، لهذا القولُ بالمنع إن لم يكن هو الصواب فإنه هو الاحتياط ، والبعد عنه أولى بلا شك .
القسم الثالث : ألا يكون تعظيم ، ولا امتهان : فذهب جمهور أهل العلم إلى تحريم استعمال الصور على هذا الوجه ، ونقل عن بعض السلف الإباحة ، حتى إن بعض =

....

= السلف كان عندهم فى بيوتهم الستائر يكون فيها صور الحيوان ، ولا ينكرون ذلك ، ولكن لا شك أن هؤلاء الذين فعلوه من السلف كالقاسم بن محمد رحمه اللَّهُ لا شك أنه يُعْتَذَر عنهم بأنهم تأوَّلوا ، ولا يعتد بقولهم ؛ لأنَّ الحجة قول اللَّه ورسوله ، أو لم يبلغهم الخبر ، أو ما أشبه ذلك من الأعذار .

مسألتان :

المسألة الأولى : ما عمت به البلوى الآن من وجود هذه الصور فى كل شيء إلا ما ندَرَ ، فتوجد فى أوانى الأكل ، وفى الكراتين الحافظة للأطعمة ، وفى الكتب ، وفى الصحف ، فتوجد فى كل شيء إلا ما شاء اللَّه .

ويوجد أيضًا صور مما يؤكل : بسكوت على صورة سمك أو أرنب ، نقول : إن اقتناء الإنسان للصور لا شك أنه محرم ؛ أى : لو وجد صورة فى هذه الجريدة فأعجبته ، فهذا حرام لا شك ، أو كان يشترى المجلات التى تنشر فيها الصور للصور فهذا حرام ، أما إذا كانت للعلم والفائدة والاطلاع على الأخبار ، فهذه أرجو ألا يكون بها بأس ؛ نظرًا للحرج والمشقة ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، فهذه الصور ليست مقصودة للإنسان ، لا حال الشراء ، ولا حال القراءة ، ولا تهمه ، لكن لو فرض أن الإنسان عنده أهل ، ويخشى أن يكون فى هذه الصور من هو وسيم وجميل تفتتن به النساء ، فحينئذ لا يجوز أن تكون هذه المجلة أو الصحيفة فى بيته ، لكن هذا تحريم عارض ، كما أن مسألة الأوانى والكراتين التى فيها أطعمة وشبه ذلك قد يقال : إن فيها شيئًا من الامتهان ، فلا تكون من القسم المحرم .

المسألة الثانية : وهى الصور التى يلعب بها الأطفال : وهذه تنقسم إلى قسمين :

الأولى : قسم من الخرق والعِهْن وما أشبه ذلك ، فهذه لا بأس بها ؛ لأنَّ عائشة رضى اللَّه عنها كانت تلعب بالبنات على عهد النبى ﷺ ، ولم ينكر عليها .

الثانى : قسم من البلاستيك ، وتكون على صورة الإنسان الطبيعى إلا أنها صغيرة ، يكون لها حركة ، وقد يكون لها صوت ، فقد يقول القائل : إنها حرام ؛ لأنها دقيقة التصوير ، وعلى صورة الإنسان تمامًا ؛ أى : ليست صورة إجمالية ، ولكن صورة تفصيلية ، ولها أعين تُحرِّك ، وقد نقول : إنها مباحة ؛ لأنَّ عائشة كانت تلعب بالبنات ، ولم ينكر عليها =

....

* * *

= النبي ﷺ ، ولكن إذا استدللنا بحديث عائشة فقد يقول القائل : بأن الصور التى عند عائشة ليست بهذه الصور الموجودة الآن ، بينهما فرق عظيم ، فمن نظر إلى عموم الرخصة ، وأنه قد يرخص للصغار ما لا يرخص للكبار ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحِمه اللَّهُ فى باب السبق لـمَّا ذكر بعض آلات اللهو قال : إنه يرخص للصغار ما لا يرخص للكبار ؛ لأن طبيعة الصغار اللهو ، ولهذا تجد هذه الصور عند البنات الصغار كالبنات حقيقة ، كأنها ولدتها ، وربما تكون وسيلة لها لتربى أولادها فى المستقبل ، وتجدها تسميها أيضًا هذه فلانة وهذه فلانة ، فقد يقول قائل : إنه يرخص لها فيها ، فأنا أتوقف فى تحريمها فى الواقع ، لكن يمكن التخلص من الشبهة بأن يُطْمَس وجهُها بالنار . اهـ

الفصلُ الخامسُ :

فى بيانِ حكمِ الاستهزاءِ بالدينِ والاستهانةِ بحُرماتِه

الاستهزاءُ بالدينِ رِدَّةٌ عن الإسلامِ ، وخروجٌ عن الدينِ بالكليةِ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُون * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٥، ٦٦] .

هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ كفرٌ ، وأنَّ الاستهزاءَ بالرسولِ كفرٌ ، وأن الاستهزاءَ بآياتِ اللهِ كفرٌ ، فمَن استَهْزَأ بواحدٍ من هذه الأمورِ ، فهو مُسْتَهْزِئٌ بجميعِها .

والذى حصَل من هؤلاءِ المنافقين أنَّهم استَهْزَءُوا بالرسولِ وصَحابتِه ، فنزَلَتِ الآيةُ(١)، فالاستهزاءُ بهذهِ الأمورِ متلازمٌ .

فالذين يَسْتَخِفُّون بتوحيدِ اللهِ تعالى ، ويُعَظِّمُون دعاءَ غيرِه من الأمواتِ ، وإذَا أُمِرُوا بالتوحيدِ ، ونُهُوا عن الشركِ استَخَفُّوا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان : ٤١، ٤٢] .

فاستهزءوا بالرسولِ ﷺ لمَّا نهاهم عن الشركِ ، وما زالَ المشركون يُعِيبونَ الأنبياءَ ، ويَصِفُونهم بالسَّفاهةِ والضلالِ والجنونِ إذَا دعَوْهم إلى

---

(١) روى ابن جرير فى تفسيره ١٠/ ١٧٢، أن المنافقين فى غزوة تبوك قالوا : ما رأينا مثل قُرَّائِنا هؤلاء أرغب بطونًا ، وأكذبَ ألسنًا ، وأجبن عندَ اللقاء .

وعزاها السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ٢٣٠ إلى ابن جرير وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه .

التوحيدِ ؛ لما فى أنفسِهم من تعظيمِ الشركِ .

وهكذا تَجِدُ مَن فيه شَبَهٌ منهم إذَا رأَى مَن يَدْعُو إلى التوحيدِ استَهْزَأَ بذلك لما عندَه من الشركِ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فمَن أحَبَّ مخلوقًا مثلَ ما يُحِبُّ اللهَ فهو مشركٌ ، ويَجِبُ الفرقُ بينَ الحبِّ فى اللهِ ، والحبِّ مع اللهِ ، فهؤلاء الذين اتَّخَذُوا القبورَ أوثانًا تَجِدُهم يَسْتَهْزِئُون بما هو من توحيدِ اللهِ وعبادتِه ، ويُعَظِّمُون ما اتَّخَذُوه من دونِ اللهِ شفعاءَ ، ويَحْلِفُ أحدُهم اليمينَ الغَموسَ باللهِ كاذبًا ، ولا يَجْتَرِئُ أن يَحْلِفَ بشيخِه كاذبًا .

وكثيرٌ من طوائفَ متعددةٍ ترَى أحدَهم يَرَى أنَّ استغاثتَه بالشيخِ إمَّا عندَ قبرِه ، أو غيرِ قبرِه أنفَعُ له من أنْ يَدْعُوَ اللهَ فى المسجدِ عندَ السَّحَرِ ، ويَستَهْزِئُ بمَن يَعْدِلُ عن طريقتِه إلى التوحيدِ .

وكثيرٌ منهم يُخَرِّبُون المساجدَ ، ويَعْمُرُون المشاهدَ ، فهل هذا إلَّا من استخفافِهم باللهِ وبآياتِه ورسولِه وتعظيمِهم للشركِ[1] ، وهذا كثيرٌ وقوعُه فى القُبُورِيِّينَ اليومَ .

والاستهزاءُ على نوعين :

أحدُهما : الاستهزاءُ الصريحُ ؛ كالذى نزَلَت الآيةُ فيه ، وهو قولُهم : ما رأَيْنا مثلَ قُرَّائِنا هؤلاء أرْغَبَ بطونًا ، ولا أكذبَ ألْسُنًا ، ولا أجبَنَ عندَ

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/٤٩ .

اللقاءِ[١] .

أو نحوِ ذلك من أقوالِ المُستَهْزِئين ؛ كقولِ بعضِهم : دِينُكم هذا دينٌ خامسٌ .

وقولُ الآخرِ : دِينُكم أَخْرَقُ .

وقولُ الآخرِ إِذَا رأى الآمِرين بالمعروفِ والناهِين عن المنكرِ : جاءَكم أهلُ الدينِ ! من بابِ السُّخْرِيَّةِ بهم .

وما أشبَه ذلك ممَّا لا يُحْصَى إلَّا بكُلْفَةٍ ممَّا هو أعظمُ من قولِ الذين نزَلت فيهم الآيةُ .

النوعُ الثانى : غيرُ الصريحِ ، وهو البحرُ الذى لا ساحلَ له ؛ مثلَ : الرَّمْزِ بالعينِ ، وإخراجِ اللِّسانِ ، ومدِّ الشَّفَةِ ، والغَمْزِ باليدِ عندَ تلاوةِ كتابِ اللهِ ، أو سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، أو عندَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكرِ[٢] .

ومثلُ هذا ما يقولُه بَعْضُهم : إنَّ الإسلامَ لا يَصْلُحُ للقرنِ العشرين ، وإنَّما يَصْلُحُ للقرونِ الوُسْطَى ، وإنَّه تَأَخُّرٌ ورجعيَّةٌ ، وإنَّ فيه قسوةً ووَحْشِيَّةً فى عقوباتِ الحدودِ والتعازيرِ ، وأنَّه ظلَم المرأةَ حقوقَها ، حيثُ أباحَ الطلاقَ وتَعَدُّدَ الزوجاتِ .

وقولُهم : الحكمُ بالقوانينِ الوضعيةِ أحسنُ للناسِ من الحكمِ بالإسلامِ ، ويَقولون فى الذى يَدعُو إلى التوحيدِ ، ويُنكِرُ عبادةَ القبورِ

(١) تقدم تخريج هذه القصة ص٢٧٠ .

(٢) مجموعة التوحيد النجدية ص٤٠٩ .

والأضرحةِ : هذا مُتَطَرِّفٌ ، أو يُريدُ أن يُفَرِّقَ جماعةَ المسلمين ، أو هذا وَهَّابِيٌّ ، أو مذهبٌ خامسٌ .

وما أشبَهَ هذه الأقوالَ التى كلُّها سبٌّ للدينِ وأهلِه ، واستهزاءٌ بالعقيدةِ الصحيحةِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ ، ومن ذلك استهزاؤُهم بمَن تَمَسَّكَ بسنةٍ من سُنَنِ الرسولِ ﷺ فيقولون : الدينُ ليس فى الشَّعْرِ ؛ استهزاءً بإعفاءِ اللحيةِ ، وما أشبَهَ هذه الألفاظَ الوَقِحَةَ .

* * *

الفصلُ السادسُ :

الحكمُ بغيرِ ما أنزَلَ اللهُ

من مُقْتَضَى الإيمانِ باللهِ تعالَى وعبادتِه الخضوعُ لحكمِه ، والرِّضَا بشرعِه ، والرجوعُ إلى كتابِه وسنةِ رسولِه عندَ الاختلافِ فى الأقوالِ ، وفى الأصولِ ، وفى الخصوماتِ ، وفى الدماءِ والأموالِ وسائرِ الحقوقِ ؛ فإنَّ اللهَ هو الحَكَمُ وإليه الحُكْمُ .

فيَجِبُ على الحُكَّامِ أنْ يَحْكُموا بما أنزَلَ اللهُ ، ويَجِبُ على الرَّعِيَّةِ أن يَتحاكَمُوا إلى ما أنزَلَ اللهُ فى كتابِه وسنةِ رسولِه .

قال تعالى فى حقِّ الوُلاةِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨] .

وقال فى حقِّ الرعيـةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] .

ثمَّ بَيَّنَ أنَّه لا يَجْتَمِعُ الإيمانُ مع التَّحاكُمِ إلى غيرِ ما أنزَلَ اللهُ ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠] .

إلى قولِه تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُون حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

فنفَى سبحانَه نفيًا مُؤَكَّدًا بالقَسَمِ الإيمانَ عمَّن لم يَتَحاكَمْ إلى الرسولِ ﷺ ، ويَرْضَ بحكمِهِ ، ويُسَلِّمْ له ، كما أنَّه حكَم بكفرِ الولاةِ الذين لا يَحْكُمُون بما أنزَل اللهُ ، وبظلمِهم ، وفسقِهم .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] .

ولابدَّ من الحكمِ بما أنزَل اللهُ ، والتحاكُمِ إليه في جميعِ مواردِ النزاعِ في الأقوالِ الاجتهاديةِ بينَ العلماءِ ، فلا يُقْبَلُ منها إلَّا ما دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ من غيرِ تَعَصُّبٍ لمذهبٍ ، ولا تَحَيُّزٍ لإمامٍ ، وفي المرافعاتِ والخصوماتِ في سائرِ الحقوقِ ، لا في الأحوالِ الشخصيةِ فقط ، كما في بَعْضِ الدولِ التي تَنْتَسِبُ إلى الإسلامِ ؛ فإنَّ الإسلامَ كلٌّ لا يَتَجَزَّأُ .

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : ٨٥] .

وكذلك يَجِبُ على أتْباعِ المذاهبِ والمناهجِ المعاصِرةِ أن يَرُدُّوا أقوالَ أئمتِهم إلى الكتابِ والسنةِ ، فما وافَقَهما أخَذُوا به ، وما خالَفَهما ردُّوه دونَ تعصُّبٍ أو تَحَيُّزٍ ، ولا سيَّما في أمورِ العقيدةِ ؛ فإن الأئمةَ رحِمهم اللهُ

يُوصُون بذلك ، وهذا مذهبُهم جميعًا ، فمَن خالَف ذلك فليس مُتَّبِعًا لهم ، وإنِ انتَسَب إليهم(١) .

وهو ممَّن قال اللهُ فيهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] ، فليستِ الآيةُ خاصَّةً بالنصارَى ، بلْ تَتَناولُ كلَّ مَن فعَل مثلَ فعلِهم ، فمَن خالَف ما أمَر اللهُ به ورسولُه ﷺ

(١) وهؤلاء الأئمة أنفسهم كانوا يأمرون إذا خالف قولُهم قولَ النبى ﷺ ، كانوا يأمرون بترك قولهم والأخذ بقول النبى ﷺ .

قال أبو حنيفة رحمه اللَّهُ تعالى : إذا جاء الحديث عن رسول اللَّه ﷺ فعلى الرأس والعين .

وقال أيضًا رحمه اللَّهُ : إذا صح الحديث فهو مذهبى .

وقال مالك رحمه اللَّهُ : ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر . وأشار إلى قبر النبى ﷺ .

وقال أيضًا رحمه اللَّهُ : السنة سفينة نوح ، فمن ركبها فقد نجا ، ومن تركها فقد هلك .

وقال الشافعى رحمه اللَّهُ : متى روَيْتُ عن رسول اللَّه ﷺ حديثًا صحيحًا فلم آخذ به ، فأشهدكم أن عقلى قد ذهب .

وقال أيضًا رحمه اللَّهُ : إذا قلت قولًا ، وجاء الحديث عن رسول اللَّه ﷺ بخلافه فاضربوا بقولى الحائط .

وقال الإمام أحمد رحمه اللَّهُ لبعض أصحابه : لا تُقَلِّدْنى ، ولا تقلد مالكًا ، ولا الشافعى ، وخذ من حيث أخذنا .

وقال أيضًا رحمه اللَّهُ : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته عن رسول اللَّه ﷺ يذهبون إلى رأى سفيان ، واللَّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، ثم قال : أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا ردَّ بعض قوله عليه الصلاة والسلام أن يقع فى قلبه شىء من الزَّيْغ فيَهْلِك .

وأخرج البيهقى ، عن الزهرى رحمه اللَّهُ أنه قال : كان مَن مَضَى من علمائنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة .

بأنْ حكَم بينَ الناسِ بغيرِ ما أنزَل اللهُ ، أو طلَب ذلك اتِّباعًا لما يَهْواه ويُرِيدُه ، فقَدْ خلَع رِبْقَةَ[1] الإسلامِ والإيمانِ من عنقِه ، وإن زعَم أنَّه مؤمنٌ .

فإنَّ اللهَ تعالى أنكَر على مَن أرادَ ذلك ، وأَكْذَبَهم في زعمِهم الإيمانَ ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] ؛ لِمَا في ضِمْنِ قولِه : ﴿ يَزْعُمُونَ ﴾ من نَفْيِ إيمانِهم ؛ فإنَّ ﴿ يَزْعُمُونَ ﴾ إنَّما يُقالُ غالبًا لِمَن ادَّعى دَعْوَى هو فيها كاذبٌ ؛ لمخالفتِه لمُوجَبِها وعملِه بما يُنافِيها .

يُحَقِّقُ هذا قولُه تعالى : ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ [النساء : ٦٠] ؛ لأنَّ الكفرَ بالطاغوتِ رُكْنُ التوحيدِ ، كما في آيةِ البقرةِ[2] ، فإذَا لم يَحصُلْ هذا الركنُ لم يَكُنْ مُوَحِّدًا ، والتوحيدُ هو أساسُ الإيمانِ الذى تَصلُحُ به جميعُ الأعمالِ ، وتَفْسُدُ بعدمِه ، كما أنَّ ذلك بُيِّنَ في قولِه : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وذلك أن التحاكُمَ إلى الطاغوتِ إيمانٌ به[3] .

---

(١) قال ابن الأثير رحِمه اللّٰهُ في النهاية : الرِّبْقة في الأصل : عُرْوة في حَبْل ، تُجْعل في عُنُق البهيمة ، أو يدها ، تُمْسِكها ، فاستعارها للإسلام ؛ يعنى : ما يَشُدُّ به المسلم نفسه من عُرَى الإسلام ؛ أى : حدوده ، وأحكامه ، وأوامره ، ونواهيه .

وتُجْمَع الرِّبْقة على رِبَق ؛ مثل : كِسْرة وكِسَر ، ويقال للحَبْل الذى تكون فيه الرِّبْقة : رِبْق . وتُجْمَع على أَرْبَاق ، ورِبَاق . اهـ

(٢) يعنى : قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ .

(٣) فتح المجيد ص٣٨١ .

ونَفْيُ الإيمانِ عمَّن لم يَحْكُمْ بما أنزَل اللهُ يَدُلُّ على أنَّ تَحكيمَ شرعِ اللهِ إيمانٌ وعقيدةٌ وعبادةٌ للهِ يَجِبُ أن يَدِينَ بها المسلمُ ، فلا يُحَكِّمُ شرعَ اللهِ من أجلِ أنَّ تَحكيمَه أصلحُ للناسِ ، وأضبطُ للأمنِ فقط ؛ فإنَّ بَعْضَ الناسِ يُرَكِّزُ على هذا الجانبِ ، ويَنسَى الجانبَ الأولَ .

واللهُ سبحانَه قَدْ عاب على مَن يُحَكِّمُ شرعَ الله لأجلِ مصلحةِ نفسِه من دونِ تَعَبُّدٍ للهِ تعالى بذلك ، فقال سبحانَه : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ [النور: ٤٨، ٤٩] .

فهم لا يَهْتَمُّون إلَّا بما يَهْوَوْن ، وما خالَف هواهم أعرَضوا عنه ؛ لأنَّهم لا يَتَعَبَّدون للهِ بالتحاكمِ إلى رسولِه ﷺ .

* * *

حكمُ مَن حكَم بغيرِ ما أنزَل اللهُ :

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] . نَرَى في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ الحكمَ بغيرِ ما أنزَل اللهُ كفرٌ ، وهذا الكفرُ تارةً يَكونُ كفرًا أكبرَ يَنقُلُ عن الملةِ ، وتارةً يكونُ كفرًا أصغرَ لا يُخرِجُ عن الملةِ .

وذلك بحسَبِ حالِ الحاكمِ ، فإنَّهُ إن اعتقَد أن الحكمَ بما أنزَل اللهُ غيرُ واجبٍ ، وأنَّه مخيَّرٌ فيه ، أو استهانَ بحكمِ اللهِ ، واعتقَد أنَّ غيرَه من القوانينِ والنُّظُمِ الوضعيةِ أحسنُ منه ، أو مُساوٍ له ، وأنَّه لا يَصْلُحُ لهذا الزمانِ ، أو أرادَ بالحكمِ بغيرِ ما أنزَل اللهُ استرضاءَ الكفارِ والمنافقين فهذا كفرٌ أكبرُ .

وإنِ اعتقَد وجوبَ الحكمِ بما أنزَل اللهُ ، وعَلِمَه فى هذه الواقعةِ ، وعدَل عنه مع اعترافِه بأنَّه مُسْتَحِقٌّ للعقوبةِ فهذا عاصٍ ، ويُسَمَّى كافرًا كفرًا أصغرَ .

وإن جهِل حكمَ اللهِ فيه مع بذلِ جهدِه واستفراغِ وُسْعِه فى معرفةِ الحكمِ ، وأخطَأه فهذا مُخْطِئٌ له أجرٌ على اجتهادِه ، وخطؤُه مغفورٌ[(١)] .

وهذا فى الحكمِ فى القضيةِ الخاصَّةِ ، وأمَّا الحكمُ فى القضايا العامَّةِ فإنَّهُ يَخْتَلِفُ .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية : فإنَّ الحاكمَ إذَا كان دَيِّنًا ، لكنَّه حكَم بغيرِ علمٍ كان من أهلِ النارِ ، وإن كان عالمًا ، لكنَّه حكَم بخلافِ الحقِّ الذى يَعْلَمُه كان من أهلِ النارِ ، وإذَا حكَم بلا عدلٍ ولا علمٍ أولَى أن يكونَ من أهلِ النارِ ، وهذا إذا حكَم فى قضيةٍ لشخصٍ ، وأمَّا إذَا حكَم حكمًا عامًّا فى دينِ المسلمين ، فجعَل الحقَّ باطلًا ، والباطلَ حقًّا ، والسنةَ بدعةً ، والبدعةَ سنةً ، والمعروفَ منكرًا ، والمنكرَ معروفًا ، ونهَى عمَّا أمَر اللهُ به ورسولُه ، وأمَر بما نهَى اللهُ عنه ورسولُه ، فهذا لونٌ آخرُ يَحْكُمُ فيه ربُّ العالمينَ ، وإلهُ المُرسَلِين ، مالكُ يومِ الدينِ ، الذى له الحمدُ فى الأُولَى والآخرةِ .

﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] ، ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : ٢٨][(٢)] .

(١) شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٣٢٣، ٣٢٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥/٣٨٨ .

وقال أيضًا : ولا ريبَ أنَّ مَن لم يَعتَقِدْ وجوبَ الحكمِ بما أنزَل اللهُ على رسولِه فهو كافرٌ ، فمَن استحَلَّ أن يَحْكُمَ بينَ الناسِ بما يراه هو عدلًا من غيرِ اتباعٍ لما أنزَل اللهُ فهو كافرٌ ؛ فإنَّه ما من أُمَّةٍ إلَّا وهى تَأمُرُ بالحكمِ بالعدلِ ، وقَدْ يكونُ العدلُ فى دينِها ما يَراه أكابرُهم ، بل كثيرٌ من المُنْتَسِبين إلى الإسلامِ يَحكُمون بعاداتِهم التى لم يُنْزِلْها اللهُ كسوالفِ الباديةِ ؛ أى : عاداتِ مَن سلَفَهم ، وكانوا الأمراءَ المُطاعِينَ .

ويَرَوْن أنَّ هذا هو الذى يَنبغِى الحكمُ به دونَ الكتابِ والسنةِ ، وهذا هو الكفرُ ؛ فإنَّ كثيرًا من الناسِ أسْلَموا ، ولكن لا يَحْكُمون إلَّا بالعاداتِ الجاريةِ التى يَأمُرُ بها المُطاعُون ، فهؤلاء إذا عرَفوا أنَّه لا يَجوزُ لهم الحكمُ إلَّا بما أنزَل اللهُ فلم يَلتزِمُوا ذلك ، بل استَحَلُّوا أن يَحْكُمُوا بخلافِ ما أنزَل اللهُ فهم كفارٌ . انتهى[1] .

وقال الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ : وأمَّا الذى قيلَ فيه إنَّه كفرٌ دونَ كفرٍ إذَا حاكَمَ إلى غيرِ اللهِ مع اعتقادِه أنَّه عاصٍ ، وأنَّ حكمَ اللهِ هو الحقُّ ، فهذا الذى يَصْدُرُ منه المرةُ ونحوُها .

أما الذى جعَل قوانينَ بترتيبٍ وتخضيعٍ فهو كفرٌ ، وإن قالُوا : أخطَأْنا ، وحكمُ الشرعِ أعدلُ ، فهذا كفرٌ ناقلٌ عن الملةِ[2] .

ففَرَّقَ رحِمه اللهُ بينَ الحكمِ الجُزْئِيِّ الذى لا يَتَكَرَّرُ ، وبينَ الحكمِ العامِّ الذى هو المَرجِعُ فى جميعِ الأحكامِ أو غالبِها ، وقرَّر أنَّ هذا الكفرَ ناقلٌ

---

(١) منهاج السنة النبوية ٥/١٣٠ .

(٢) مجموع فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ١٢/٢٨٠ .

عن الملةِ مُطْلَقًا ؛ وذلك لأنَّ مَن نَحَّى الشريعةَ الإسلاميةَ ، وجعَل القانونَ الوَضعِيَّ بديلًا منها فهذا دليلٌ على أنَّه يرَى أن القانونَ أحسنُ وأصلحُ من الشريعةِ ، وهذا لا شكَّ أنَّه كفرٌ أكبرُ يُخْرِجُ من الملةِ ، ويُناقِضُ التوحيدَ .

* * *

الفصلُ السابعُ :

ادعّاءُ حقِّ التشريعِ والتحليلِ والتحريمِ

تشريعُ الأحكامِ التى يَسِيرُ عليها العبادُ فى عباداتِهم ومعاملاتِهم وسائرِ شئونِهم ، والتى تَفصِلُ النزاعَ بينَهم ، وتُنْهِى الخُصوماتِ ، حقٌّ للهِ تعالى ربِّ الناسِ ، وخالقِ الخلقِ : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهو الذى يَعْلَمُ ما يُصْلِحُ عبادَه ، فيَشْرَعُه لهم ، فبحكمِ رُبوبيَّتِه لهم يُشَرِّعُ لهم ، وبحكمِ عُبُودِيَّتِهم له يَقبَلون أحكامَه ، والمصلحةُ فى ذلك عائدةٌ إليهم .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى ﴾ [الشورى : ١٠] ، واسْتَنْكَر سبحانَه أن يَتَّخِذَ العبادُ مُشَرِّعًا غيرَه فقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] .

فمَن قَبِل تشريعًا غيرَ تشريعِ اللهِ فقد أشرَك باللهِ تعالى ، وما لم يُشَرِّعْه اللهُ ورسولُه من العباداتِ فهو بدعةٌ ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ ، قال ﷺ : « مَن أحْدَث فى أمرِنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ »[1].

---

(١) رواه البخارى (٢٦٩٧) ، ومسلم ٣/١٣٤٣ (١٧١٨) ، وأبو داود (٤٦٠٦) ، وابن ماجه (١٤) .

وفي رواية : « مَن عمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ »[(١)].

وما لم يُشَرِّعه اللهُ ، ولا رسولُه في السياسةِ والحكمِ بينَ الناسِ فهو حكمُ الطاغوتِ ، وحكمُ الجاهليةِ : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

وكذلك التحليلُ والتحريمُ حقٌّ للهِ تعالى لا يَجوزُ لأحدٍ أن يُشارِكَه فيه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

فجعَل سبحانَه طاعةَ الشياطينِ وأوليائِهم في تحليلِ ما حرَّم اللهُ شركًا به سبحانَه ، وكذلك مَن أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحريمِ ما أحلَّ اللهُ ، أو تحليلِ ما حرَّم اللهُ فقد اتَّخذهم أربابًا من دونِ اللهِ ؛ لقولِ اللهِ تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

وعندَ الترمذيِّ وغيرِه ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا هذه الآيةَ على عَدِيِّ بنِ حاتمٍ الطائيِّ رضِي اللهُ عنه فقال : يا رسولَ اللهِ ، لسْنا نعبُدُهم ! قال : « أليس يُحِلُّون لكم ما حرَّم اللهُ فتُحِلُّونَه ، ويُحَرِّمُون ما أحلَّ اللهُ فتُحَرِّمُونَه ؟ » قال : بلى . قال النَّبيُّ ﷺ : « فتلك عِبادتُهم »[(٢)].

(١) تقدم تخريجه ص١٩٣ .

(٢) تقدم تخريجه ص١٨٩ .

فصارت طاعتُهم فى التحليلِ والتحريمِ من دونِ اللهِ عبادةً لهم وشركًا ، وهو شركٌ أكبرُ يُنافِى التوحيدَ الذى هو مَدلولُ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ[1]؛ فإنَّ من مدلولِها أنَّ التحليلَ والتحريمَ حقٌّ له تعالَى ، وإذا كان هذا فيمَن أطاعَ العلماءَ والعبادَ فى التحليلِ والتحريمِ الذى يُخالِفُ شرعَ اللهِ ، وهو يَعْلَمُ هذه المخالفةَ ، مع أنَّهم أقربُ إلى العلمِ والدينِ ، وقد يكونُ خطؤُهم عن اجتهادٍ لم يُصِيبُوا فيه الحقَّ ، وهم مَأجُورون عليه ، فكيف بمَن يُطِيعُ أحكامَ القوانينِ الوضعيةِ التى هى من صنعِ الكفارِ والمُلْحِدِينَ ، يَجْلُبُها إلى بلادِ المسلمينَ ، ويَحْكُمُ بها بينَهم ، فلا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ .

إنَّ هذا قد اتَّخذ الكفارَ أربابًا من دونِ اللهِ يُشَرِّعُون له الأحكامَ ، ويُبِيحونَ له الحرامَ ، ويَحْكُمون بينَ الأنامِ .

* * *

(١) فتح المجيد ص ٩٦، ٩٧ .

الفصلُ الثامنُ :

حكمُ الانتماءِ إلى المذاهبِ الإلحاديةِ والأحزابِ الجاهليةِ

١- الانتماءُ إلى المذاهبِ الإلحاديةِ : كالشيوعيةِ والعِلْمَانيةِ والرَّأْسماليةِ وغيرِها من مذاهبِ الكفرِ ردَّةٌ عن دينِ الإسلامِ ؛ فإنْ كان المُنتمِي إلى تلك المذاهبِ يَدَّعِي الإسلامَ فهذا من النفاقِ الأكبرِ ؛ فإنَّ المنافقين يَنتمون إلى الإسلامِ في الظاهرِ ، وهم مع الكفارِ في الباطنِ ، كما قال تعالى فيهم : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لكمُ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَان لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينِ ﴾ [النساء : ١٤١] .

فهؤلاءِ المنافقون المُخادِعُون : لكلٍّ منهم وجهانِ : وجهٌ يَلْقَى به المؤمنينَ ، ووجهٌ يَنقلِبُ به إلى إخوانِه المُلْحِدين . وله لسانان : أحدُهما يَقْبَلُهُ بظاهرِه المسلمون ، والآخرُ يُتَرْجِمُ عن سرِّه المكنونِ : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] .

قَدْ أَعَرَضوا عن الكتابِ والسنةِ استهزاءً بأهلِها واستحقارًا ، وأَبَوْا أن يَنْقادُوا لحكمِ الوَحْيَيْنِ ؛ فرحًا بما عندَهم من العلمِ الذى لا يَنْفَعُ الاستكثارُ منه إلَّا شرًّا واستكبارًا .

فتراهم أبدًا بالمُتَمَسِّكِينَ بصريح الوَحْيِ يَستَهْزِءون : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(1) [البقرة : ١٥] .

وقَدْ أمَرَ اللهُ بالانتماءِ إلى المؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وهذه المذاهبُ الإلحاديةُ مذاهبُ مُتناحِرَةٌ ؛ لأنَّها مُؤَسَّسَةٌ على الباطلِ ، فالشيوعيةُ تُنْكِرُ وجودَ الخالقِ سبحانَه وتعالى ، وتُحارِبُ الأديانَ السماويةَ ، ومَن يَرْضَى لعقلِه أن يَعِيشَ بلا عقيدةٍ ، ويُنْكِرُ البَدِيهيَّاتِ اليقينيةَ ، فيكونَ مُلْغِيًا لعقلِه ، والعِلْمانيةُ تُنْكِرُ الأديانَ ، وتَعتَمِدُ على المادياتِ التى لا مُوَجِّهَ لها ، ولا غايةَ لها فى هذه الحياةِ إلَّا الحياةُ البهيميةُ .

الرأسماليةُ هَمُّها جمعُ المالِ من أىِّ وجهٍ ، ولا تُقَيَّدُ بحلالْ ، ولا حرامٍ ، ولا عطفٍ ، ولا شفقةٍ على الفقراءِ والمساكينِ ، وقِوامُ اقتصادِها على الرِّبَا الذى هو مُحارَبَةٌ للهِ ولرسولِه ، والذى هو دمارُ الدولِ والأفرادِ ، وامتصاصُ دماءِ الشعوبِ الفقيرةِ .

وأىُّ عاقلٍ - فضلًا عمَّن فيه ذرةٌ من إيمانٍ - يَرْضَى أن يَعِيشَ على هذه المذاهبِ بلا عقلٍ ، ولا دينٍ ، ولا غايةٍ صحيحةٍ من حياتِه يَهْدِفُ إليها ، ويُناضِلُ من أجلِها .

إنَّما غَزَتْ هذه المذاهبُ بلادَ المسلمينَ لمَّا غاب عن أكثريتِها الدِّينُ الصحيحُ ، وتَرَبَّتْ على الضَّياعِ ، وعاشَتْ على التَّبَعِيَّةِ .

٢- والانتماءُ للأحزابِ الجاهليةِ والقومياتِ العُنْصُريةِ هو الآخرُ كفرٌ

(١) من رسالة صفات المنافقين لابن القيم ص ١٠، ١١ .

وردَّةٌ عن دينِ الإسلامِ ؛ لأنَّ الإسلامَ يَرْفُضُ العَصَبيَّاتِ والنُّعَرَاتِ الجاهليةَ ، يقولُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ويقولُ النبيُّ ﷺ : « ليس منَّا مَن دعا إلى عَصَبِيَّةٍ ، وليس منَّا مَن قاتَل على عصبيةٍ ، وليس منَّا مَن غضِب لعصبيةٍ »[١] .

وقال ﷺ : « إنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليةِ[٢] وفخرَها بالآباءِ ، إنَّما هو مؤمنٌ تَقِيٌّ ، أو فاجرٌ شَقِيٌّ ، الناسُ بنو آدمَ ، وآدمُ خُلِقَ من ترابٍ ، ولا فضلَ لعربيٍّ على عَجَمِيٍّ إلَّا بالتقوَى »[٣] .

وهذه الحِزْبِيَّاتُ تُفَرِّقُ المسلمينَ ، واللهُ قد أمَر بالاجتماعِ والتعاونِ

---

(١) رواه أبو داود (٥١٢١) .
قال الشيخ الألبانى فى تعليقه على سنن أبى داود : ضعيف .
وعند مسلم فى صحيحه ١٤٧٧/٣ (١٨٤٨) ، الحديث رقم (٥٤) من كتاب الإمارة ، لفظ يقارب لفظ هذا الحديث ، ويدل على نفس المعنى المراد منه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، وفيه : « ومن قُتِل تحت راية عُمِّيَّةٍ ، يَغْضَب لِلْعَصَبَة ، ويقاتل لِلْعَصَبَة ، فليس من أمتى ...» .
قال النووى فى شرح مسلم ٦/ ٤٨٢ : ومعناه : إنما يقاتل عصبية لقومه وهواه . اهـ

(٢) العُبِّيَّةُ ؛ يعنى : الكِبْر ، وتُضَم عينُها وتُكْسَر ، وهى فُعُّولة ، أو فُعِّيلة ، فإن كانت فُعُّولة فهى من التَّعْبِية ؛ لأنَّ المُتَكَبِّر ذو تكلُّف وتَعْبِيَة ، خلاف مَن يَسْتَرْسِل على سَجِيَّته ، وإن كانت فُعِّيلة فهى من عُباب الماء ، وهو أوله وارتفاعه . النهاية لابن الأثير (ع ب ب) .

(٣) رواه أحمد ٣٦١/٢ (٨٧٢١) ، وأبو داود (٥١١٦) ، والترمذى (٣٩٥٥، ٣٥٥٦) ، والبيهقى فى سننه الكبرى ٢٣٢/١٠ .
قال الشيخ أحمد شاكر فى المسند : إسناده صحيح .
وقال الشيخ الألبانى فى تعليقه على سنن أبى داود : حسن .

على البرِّ والتقوَى ، ونهَى عن التَّفرُّقِ والاختلافِ ، قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إنَّ اللهَ سبحانَه يُرِيدُ منا أنْ نكونَ حزبًا واحدًا ، هم حزبُ اللهِ المُفْلِحون ، ولكنَّ العالَمَ الإسلاميَّ أصبَح بعدَما غَزَتْه أُورُوبَّةُ سياسيًّا ، وثقافيًّا يَخْضَعُ لهذه العصبيَّاتِ الدَّمَويَّةِ ، والجنسيَّةِ ، والوطنيَّةِ ، ويُؤمِنُ بها كقضيةٍ عِلْمِيَّةٍ ، وحقيقةٍ مُقَرَّرَةٍ ، وواقعٍ لا مَفَرَّ منه .

وأصبَحَتْ شعوبُه تَندَفِعُ اندفاعًا غريبًا إلى إحياءِ هذه العصبياتِ التى أماتَها الإسلامُ ، والتَّغَنِّى بها ، وإحياءِ شعائرِها ، والافتخارِ بعهدِها الذى تقَدَّم على الإسلامِ ، وهو الذى يُلِحُّ الإسلامُ على تسميتِه بالجاهليةِ .

وقد مَنَّ اللهُ على المسلمين بالخروجِ عنها ، وحَثَّهم على شكرِ هذه النعمةِ[1] .

والطبيعِيُّ من المؤمنِ أنْ لا يَذْكُرَ جاهليةً تقادَمَ عهدُها ، أو قارَب إلَّا بمَقْتٍ وكراهيةٍ وامتعاضٍ واقْشَعْرارٍ ، وهل يَذْكُرُ السَّجينُ المُعَذَّبُ الذى يُطْلَقُ سَراحُه أيامَ اعتقالِه وتَعذيبِه وامتهانِه إلَّا وعَرَتْهُ قُشَعْرِيرةٌ ؟ !

وهل يَذْكُرُ البَرِىءُ من عِلَّةٍ شديدةٍ طويلةٍ أشرَف منها على الموتِ أيامَ سُقْمِه إلَّا وانكسَفَ بالُه ، وانْتَقَع لونُه[2] ؟ !

---

(١) ومن ذلك قوله ﷺ لأبى ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ، وقوله ﷺ : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية » . وقد تقدم تخريج هذين الحديثين ص٢٣٩ .

(٢) من رسالة (ردة ولا أبا بكر لها) لأبى الحسن الندوى .

والواجبُ أن يُعْلَمَ أنَّ هذه الحزْبيَّاتِ عذابٌ بعَثه اللهُ على مَن أعْرَض عن شرعِه ، وتَنَكَّرَ لدينِه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ٦٥] .

وقال ﷺ: « ومَا لم تَحْكُمْ أئِمَّتُهم بكتابِ اللهِ إلَّا جعَل اللهُ بأسَهم بينَهم »[١] .

إنَّ التعصُّبَ للحزْبيَّاتِ يُسَبِّبُ رفضَ الحقِّ الذى مع الآخرينَ ؛ كحالِ اليهودِ الذين قال اللهُ فيهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩١] .

وكحالِ أهلِ الجاهليةِ الذينَ رفَضوا الحقَّ الذى جاءَهم به الرسولُ ﷺ ؛ تعصُّبًا لِمَا عليه آباؤُهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

ويُرِيدُ أصحابُ هذه الحزْبيَّاتِ أن يَجْعَلوها بديلةً عن الإسلامِ الذى مَنَّ اللهُ بِه على البشريَّةِ .

* * *

---

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجه (٤٠١٩) ، قال الشيخ الألبانى فى تعليقه على سنن ابن ماجه : حسن .

الفصلُ التاسعُ :

النظرةُ الماديةُ للحياةِ ومفاسدُ هذه النظرةِ

هناك نَظْرَتانِ للحياةِ ؛ نظرةٌ ماديةٌ ، ونظرةٌ صحيحةٌ ، ولكلٍّ من النظرتَيْنِ آثارُها :

(أ) فالنظرةُ الماديةُ للحياةِ ؛ معناها :

أن يكونَ تفكيرُ الإنسانِ مقصورًا على تحصيلِ مَلَذَّاتِه العاجلةِ ، ويكونَ عملُه محصورًا في نطاقِ ذلك ، فلا يَتجاوزُ تَفكيرُه ما وراءَ ذلك من العواقبِ ، ولا يَعْمَلُ له ، ولا يَهْتَمُّ بشأنِه .

ولا يَعْلَمُ أنَّ اللهَ جعَل هذه الحياةَ الدنيا مَزْرَعةً للآخرةِ ، فجعَل الدنيا دارَ عملٍ ، وجعَل الآخرةَ دارَ جزاءٍ .

فمَنِ اسْتَغَلَّ دنياه بالعملِ الصالحِ ربحَ الدَّارَيْنِ ، ومَن ضَيَّعَ دنياه ضاعَتْ آخرتُه : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

فاللهُ لم يَخْلُقْ هذه الدنيا عَبَثًا ، بلْ خلَقها لحكمةٍ عظيمةٍ ، قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلنا مَا عَلَى الْأَرضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهم أَيُّهُم أَحسنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] ، أَوْجَدَ سبحانَه في هذه الحياةِ من المُتَعِ العاجلةِ ، والزينةِ الظاهرةِ من الأموالِ والأولادِ ، والجاهِ ، والسلطانِ ، وسائرِ

المُسْتَلَذَّاتِ ما لا يَعْلَمُه إلَّا اللهُ .

فمِن الناسِ – وهم الأكثرُ – مَن قَصَر نظرَه على ظاهرِها ، ومَفاتِنِها ومَتَّعَ نفسَه بها ، ولم يَتَأَمَّلْ فى سِرِّها ، فانشَغَلَ بتَحصِيلها وجمعِها والتَّمَتُّعِ بها عن العملِ لمَا بعدَها ، بل أنكر أنْ يَكونَ هناك حياةٌ غيرَها ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام : ٢٩] .

وقَدْ تَوَعَّدَ اللهُ تعالى مَن هذه نظرتُه للحياةِ ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بالحياةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا بِهَا والَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النارُ بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧، ٨] .

وقال تعالى : ﴿ مَن كانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أعمالَهم فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لهم فى الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وحَبِطَ مَا صنَعُوا فِيهَا وباطِلٌ مَا كانُوا يَعمَلُون ﴾ [هود : ١٥، ١٦] .

وهذا الوعيدُ يَشْمَلُ أصحابَ هذه النظرةِ سواءٌ كانُوا من الذينَ يَعْمَلُون عملَ الآخرةِ يُرِيدُونَ بِه الحياةَ الدنيا كالمنافقِين والمُرَائِينَ بأعمالِهم ، أو كانوا من الكفارِ الذين لا يُؤْمِنُون ببعثٍ ، ولا حسابٍ كحالِ أهلِ الجاهليةِ والمَذاهبِ الهَدَّامةِ من رأسماليةِ ، وشُيُوعيةِ ، وعِلْمانيةِ إلحاديةِ .

أولئك لم يَعْرِفُوا قَدْرَ الحياةِ ، ولا تَعْدُو نظرتُهم لها أنْ تَكونَ كنظرةِ البهائمِ ، بل هم أَضَلُّ سبيلًا ؛ لأنَّهم أَلْغَوا عُقُولَهم ، وسَخَّرُوا طاقاتِهم ، وضيَّعُوا أوقاتَهم فيما لا يَبْقَى لهم ، ولا يَبْقَوْن له ، ولم يَعْمَلُوا لمَصِيرِهم

الذى يَنتَظِرُهم ، ولابدَّ لهم منه .

والبهائمُ ليس لها مصيرٌ يَنتَظِرُها ، وليسَ لها عقولٌ تُفَكِّرُ بها بخلافِ أولئك ؛ ولذا يقولُ تعالى فيهم : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وقد وصَف اللهُ أهلَ هذِه النظرةِ بعدمِ العلمِ ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٦، ٧] .

فهم وإنْ كانوا أهلَ خبرةٍ فى المُخْتَرَعاتِ والصناعاتِ فهم جُهَّالٌ لا يَسْتَحِقُّون أن يُوصَفُوا بالعلمِ ؛ لأنَّ عِلْمَهم لم يَتَجاوَزْ ظاهرَ الحياةِ الدنيا .

وهذا علمٌ ناقصٌ لا يَسْتَحِقُّ أصحابُه أن يُطْلَقَ عليهم هذا الوصفُ الشريفُ ، فيُقالُ : العلماءُ ، وإنَّمَا يُطْلَقُ هذا على أهلِ معرفةِ اللهِ وخشيتِه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

ومن النظرةِ الماديةِ للحياةِ الدنيا ما ذكَره فى قصةِ قارونَ ، وما آتاه اللهُ من الكنوزِ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص : ٧٩] .

فتَمَنَّوْا مثلَه وغَبَطُوه ، ووَصَفُوه بالحظِّ العظيمِ ؛ بِناءً على نظرتِهم الماديةِ ، وهذا كما هو الحالُ الآنَ فى الدولِ الكافرةِ وما عندَها من تَقَدُّمٍ صناعِيٍّ ، واقتصادِيٍّ فإنَّ ضعافَ الإيمانِ من المسلمين يَنظُرُون إلَيْهم نظرةَ إعجابٍ دونَ نظرٍ إلى ما هم عليه من الكفرِ ، وما يَنتَظِرُهم من سوءِ المصيرِ .

فتَبْعَثُهم هذه النظرةُ الخاطئةُ إلى تعظيمِ الكفارِ ، واحترامِهم فى نفوسِهم ، والتشبُّهِ بهم فى أخلاقِهم وعاداتِهم السيئةِ ، ولم يُقَلِّدُوهم فى الجِدِّ ، وإعدادِ القوةِ ، والشيءِ النافعِ من المُخْتَرَعاتِ والصناعاتِ .

(ب) النظرةُ الثانيةُ للحياةِ (النظرةُ الصحيحةُ) :

هى أنْ يَعْتَبِرَ الإنسانُ ما فى هذه الحياةِ من مالٍ وسلطانٍ وقُوًى ماديةٍ وسيلةً يُستعانُ بها لعملِ الآخرةِ ، فالدنيا فى الحقيقةِ لا تُذَمُّ لِذَاتِهَا ، وإنَّما يَتَوَجَّهُ المدحُ والذمُّ إلى فعلِ العبدِ فيها ، فهى قَنْطَرةٌ ومَعْبَرٌ للآخرةِ ، ومنها زادُ الجنةِ .

وخيرُ عيشٍ يَنالُه أهلُ الجنةِ إنَّمَا حصَل لهم بما زرَعوه فى الدنيا ، فهى دارُ الجهادِ والصلاةِ والصيامِ والإنفاقِ فى سبيلِ اللهِ ، ومِضْمارُ التَّسابُقِ إلى الخيراتِ .

يَقولُ اللهُ تعالى لأهلِ الجنةِ : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] ؛ يعنى : الدنيا .

* * *

الفصلُ العاشرُ :

فى الرُّقَى والتمائمِ

(١) الرُّقَى :

جمعُ رُقْيَةٍ ، وهى العُوذَةُ التى يُرْقَى ؛ بها صاحبُ الآفةِ كالحُمَّى والصَّرَعِ وغيرِ ذلك من الآفاتِ ، ويُسَمُّونَها العزائمَ ، وهى على نوعين :

النوعُ الأولُ : ما كان خاليًا من الشركِ بأنْ يُقْرَأَ على المريضِ شيءٌ من القرآنِ ، أو يُعَوَّذَ بأسماءِ اللهِ وصفاتِه فهذا مباحٌ ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قد رقَى وأمَر بالرقيةِ ، وأجازَها ، فعن عوفِ بنِ مالكٍ قال :

كُنَّا نَرْقِى فى الجاهليةِ فقُلْنا : يَا رسولَ اللهِ ، كيفَ ترَى فى ذلك .

فقالَ : « اعرِضُوا علىَّ رُقَاكم، لا بأسَ بالرُّقَى ما لم تكنْ شركًا »[1] .

قال السيوطىُّ : وقَدْ أجمَع العلماءُ على جوازِ الرُّقَى عند اجتماعِ ثلاثةِ شروطٍ :

١- أن تكونَ بكلامِ اللهِ أو بأسماءِ اللهِ وصفاتِه .

٢- وأنْ تكون باللِّسانِ العربىِّ ، وما يُعْرَفُ معناه .

٣- وأنْ يَعْتَقِدَ أنَّ الرقيةَ لا تُؤَثِّرُ بذاتِها ، بل بتقديرِ اللهِ تعالى[2] .

وكيفيتُها : أنْ يقْرَأَ ويُنْفَثَ على المريضِ ، أو يُقْرَأَ فى ماءٍ ، ويُسقَاه

---

(١) رواه مسلم ١٧٢٧/٤ (٢٢٠٠) ، والبخارى فى التاريخ الكبير ٥٦/٧ (٢٥٦) ، وأبو داود (٣٨٨٦) .

(٢) فتح المجيد ص١٢١ .

المريضُ ، كما جاءَ في حديثِ ثابتِ بنِ قيسٍ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخَذ ترابًا من بَطِحانَ[١]، فجعَله في قَدَحٍ ، ثمَّ نفَثَ عليه بماءٍ ، وصَبَّه عليه[٢].

النوعُ الثاني : ما لم يَخْلُ من الشركِ ، وهي : الرُّقَى التي يُسْتَعانُ فيها بغيرِ اللهِ من دُعاءِ غيرِ اللهِ والاستغاثةِ والاستعاذةِ به ؛ كالرُّقَى بأسماءِ الجِنِّ أو بأسماءِ الملائكةِ ، والأنبياءِ والصالحين ، فهذا دُعاءٌ لغيرِ اللهِ ، وهو شركٌ أكبرُ .

أو يكونُ بغيرِ اللِّسانِ العربيِّ ، أو بما لا يُعْرَفُ معناه ؛ لأنَّه يُخْشَى أن يَدْخُلَها كفرٌ ، أو شركٌ ، ولا يُعْلَمُ عنه ، فهذا النوعُ من الرقيةِ ممنوعٌ .

* * *

(٢) التَّمائمُ :

وهي جمعُ تميمةٍ ، وهي : ما يُعَلَّقُ بأعناقِ الصبيانِ لدفعِ العينِ ، وقد يُعَلَّقُ على الكبارِ من الرجالِ والنساءِ ، وهي على نوعين :

النوعُ الأولُ من التمائمِ :

ما كان من القرآنِ بأنْ يَكْتُبَ آياتٍ من القرآنِ ، أو من أسماءِ اللهِ وصفاتِه ، ويُعَلِّقَها للاستشفاءِ بها ، فهذا النوعُ قد اختلَف العلماءُ في حكمِ تَعْلِيقِه على قولين :

---

(١) موضع بالمدينة . القاموس المحيط (ب ط ح) .

(٢) رواه أبو داود (٣٨٨٥) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (١٠١٧) ، وابن حبان في صحيحه ٦٢٣/٧ (٦٠٣٧) .

قال الشيخ الألباني في تعليقه على سنن أبي داود : ضعيف الإسناد .

القولُ الأولُ : الجوازُ ، وهو قولُ عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ[١] ، وهو ظاهرُ ما رُوِىَ عن عائشةَ[٢] ، وبه قال أبو جعفرِ الباقرُ ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ فى روايةٍ عنه[٣] ، وحمَلوا الحديثَ الواردَ فى المنعِ من تعليقِ التمائمِ على التمائمِ التى فيها شركٌ .

القــولُ الثــانى : المنعُ من ذلك ، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ[٤] ، وابنِ عبــاسٍ ، وهو ظاهــرُ قولِ حذيفــةَ[٥] ، وعقبةَ بنِ عامرٍ ، وابــنِ

(١) روى أحمد ٢/ ١٨١ (٦٦٩٦) ، وأبو داود (٣٨٩٣) ، والترمذى (٣٥٢٨) ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، والحاكم ١/ ٥٤٨ ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدة ، أن رسول اللَّه ﷺ ، كان يعلمهم من الفَزَع كلمات : « أعوذ بكلمات اللَّه التامة ، من غضبه وشر عباده ، ومن هَمَزات الشياطين ، وأن يَحْضُرُون » .
وكان عبد اللَّه بن عمرو بن العاص يُعَلِّمُهن مَن عَقَل من بَنِيه ، ومَن لم يعقل ، كتبه ، فعلَّقه عليه .
قال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده صحيح .

(٢) لعل الشيخ حفظه اللَّه يشير إلى ما رواه الحاكم فى مستدركه ٤/ ٤١٨ ، عن عائشة رضى اللَّه عنها أنها قالت : التمائم ما عُلِّق قبل نزول البلاء ، وما عُلِّق بعدَها فليس بتميمة .

(٣) انظر الآداب الشرعية لابن مفلح ٢/ ٤٦٠ .

(٤) روى أحمد ١/ ٣٨١ (٣٦١٥) ، وابن ماجه (٣٥٣٠) ، عن زينب امرأة عبد اللَّه بن مسعود أنه دخل عليها ، فمَسَّها فوجد مَسَّ خيط ، فقال : ما هذا ؟ فقالت : رُقِىَ لى فيه من الحُمْرَة ، فجذَبَه وقَطَعه ورَمَى به ، وقال : لقد أصبح آل عبد اللَّه أغنياء عن الشرك ، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتِّوَلَة شرك » .
قال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده حسن .
وقال الشيخ الألبانى فى تعليقه على سنن ابن ماجه : صحيح .

(٥) روى ابن أبى شيبة ٧/ ٣٧٣ ، عن أبى معاوية الأعمش ، عن أبى ظَبْيان ، عن حذيفة رضى اللَّه عنه أنه دخل على مريض يعوده ، فلَمَس عَضُدَه ، فإذا فيه خيط ، فقال : ما هذا ؟ ! قال : شىء رُقِىَ لى فيه ، فقطعه ، وقال : لو مِتَّ ، وهو عليك ما صلَّيْتُ عليك .

عُكَيْم[١] ، وبه قال جماعةٌ من التابعين منهم أصحابُ ابنِ مسعودٍ ، وأحمدَ في روايةٍ اختارَها كثيرٌ من أصحابِه ، وجزَم بها المُتأَخِّرون[٢] .

واحتَجُّوا بما رواه ابنُ مسعودٍ رضِي اللهُ عنه قال : سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « إنَّ الرُّقَى والتمائمَ والتِّوَلَةَ شِركٌ »[٣] .

التِّوَلَةُ : شيءٌ يَصْنَعُونه يَزْعُمون أنَّه يُحَبِّبُ المرأةَ إلى زوجِها ، والرجلَ إلى امرأتِه .

وهذا القولُ هو الصحيحُ لوجوهٍ ثلاثةٍ :

الأولُ : عمومُ النَّهيِ ، ولا مُخَصِّصَ للعمومِ .

الثاني : سدُّ الذريعةِ ؛ فإنَّها تُفْضِي إلى تعليقِ ما ليس مباحًا .

---

(١) روى أحمد ٤/ ٣١٠ (١٨٦٨٥) ، والترمذى (٢٠٧٢) ، عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : دخلنا على عبد الله بن عُكَيْم نعوده ، وبه حُمْرة ، فقلنا : ألا تُعَلِّق شيئًا ؟ ! قال : الموت أقرب من ذلك ، قال النبى ﷺ : « مَن تعَلَّق شيئًا وُكِل إليه » .
قال الترمذى : وحديث عبد الله بن عُكَيْم إنما نعرفه من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى . اهـ
وقال الشيخ الألبانى فى تعليقه على جامع الترمذى : حسن .

(٢) انظر مصنف ابن أبى شيبة ٧/ ٣٧٣، ٣٧٤، وسنن البيهقى ٩/ ٢١٦، والمستدرك ٤/ ٢١٦، والآداب الشرعية لابن مُفْلِح ٢/ ٤٥٩، وتيسير العزيز الحميد ص ١٦٨، وفتح المجيد ص ١٢٢، والقول السديد ص ٣٨، ومعارج القبول ٢/ ٥١٠، وفتاوى ابن باز ١/ ٢٠، ومجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين ١/ ٥٨ .

(٣) رواه أحمد ١/ ٣٨١ (٣٦١٥) ، وأبو داود (٣٨٨٣) ، وابن ماجه (٣٥٣٠) .
قال الشيخ أحمد شاكر فى شرح المسند : إسناده حسن .
وقال الشيخ الألبانى فى تعليقه على السنن : صحيح .

الثالثُ : أنَّه إذَا علَّق شيئًا من القرآنِ فلابدَّ أن يَمْتَهِنَه المُعَلِّق بحمله معَه في حالِ قضاءِ الحاجةِ والاستنجاءِ ونحوِ ذلك[١] .

* * *

النوعُ الثاني من التمائم :

وهي التي تُعَلَّقُ على الأشخاصِ من غيرِ القرآنِ ، كالخَرَزِ والعظامِ والوَدَعِ والخيوطِ والنِّعالِ والمساميرِ وأسماءِ الشياطينِ والجنِّ والطَّلاسمِ ، فهذا مُحَرَّمٌ قطعًا ، وهو من الشركِ ؛ لأنَّه تَعَلُّقٌ بغيرِ اللهِ سبحانَه وأسمائِه وصفاتِه وآياتِه .

وفي الحديثِ : « مَن تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه »[٢] . أي : وَكَلَه اللهُ إلى ذلك الشيءِ الذي تَعَلَّقَه ، فمن تَعَلَّقَ باللهِ والتَجأ إليه ، وفوَّض أمرَه إليه كفَاه وقرَّب إليه كلَّ بعيدٍ ، ويَسَّرَ له كلَّ عَسِيرٍ .

ومَن تَعَلَّقَ بغيرِه من المخلوقين والتمائمِ والأدويةِ والقبورِ وَكَلَه اللهُ إلى ذلك الذي لا يُغْني عنه شيئًا ، ولا يَمْلِكُ له ضرًّا ، ولا نفعًا فخَسِرَ عقيدتَه ، وانقَطَعَتْ صِلَتُه بربِّه ، وخذَله اللهُ .

والواجبُ على المسلمِ المحافظةُ على عقيدتِه ممَّا يُفسِدُها أو يُخِلُّ بها ، فلا يَتَعاطَى ما لا يَجوزُ من الأدويةِ ، ولا يَذْهَبُ إلى المُخَرِّفين والمُشَعْوِذِين ليَتَعالَجَ عندَهم من الأمراضِ ؛ لأنَّهم يُمْرِضُون قلبَه وعقيدتَه ، ومَن تَوَكَّلَ على اللهِ كفاه .

(١) فتح المجيد ص ١٢٢ .

(٢) تقدم تخريجه ص٢٩٧ .

وبعضُ الناسِ يُعَلِّقُ هذه الأشياءَ على نفسِه ، وهو ليس فيه مرضٌ حِسِّيٌّ ، وإنَّما فيه مرضٌ وَهْمِيٌّ وهو الخوفُ من العينِ والحسدِ .

أو يُعَلِّقُها على سيارتِه ، أو دابَّتِه ، أو بيتِه ، أو بابِ بيتِه ، أو دُكَّانِه ، وهذا كلُّه من ضعفِ العقيدةِ ، وهو المرضُ الحقيقِيُّ الذى يَجِبُ علاجُه بمعرفةِ التوحيدِ والعقيدةِ الصحيحةِ .

* * *

الفصلُ الحادى عشَر :
فى بيانِ حكمِ الحلفِ بغيرِ اللهِ
والتوسُّلِ والاستغاثةِ بالمخلوقِ

(أ) الحلفُ بغيرِ اللهِ :

الـحَلِفُ : هو اليمينُ ، وهى توكيدُ الحكمِ بذكرِ مُعَظَّمٍ على وجهِ الخصوصِ ، والتعظيمُ حقٌّ للهِ تعالى ، فلا يجوزُ الحلفُ بغيرِه ، فقد أجمَع العلماءُ على أنَّ اليمينَ لا تَكونُ إلَّا باللهِ أو بأسمائِه وصفاتِه ، وأجمَعوا على المنعِ من الحلفِ بغيرِه [1] .

والحلفُ بغيرِ اللهِ شركٌ ؛ لما روَى ابنُ عمرَ رضِى اللهُ عنهما ، أنَّ رسولَ ﷺ قال : « مَن حلَف بغيرِ اللهِ فقد كفَر أو أشرَك » [2] .

وهو شركٌ أصغرُ ، إلَّا إذا كان المَحلوفُ به مُعَظَّمًا عندَ الحالفِ إلى درجةِ عبادتِه له ، فهذا شركٌ أكبرُ ، كما هى الحالُ اليومَ عندَ عُبَّادِ القبورِ ؛ فإنَّهم يَخافون مَن يُعَظِّمون من أصحابِ القبورِ أكثرَ من خوفِهم من اللهِ وتعظيمِه .

بحيثْ إذا طُلِبَ من أحدِهم أنْ يَحْلِفَ بالولىِّ الذى يُعَظِّمُه لم يَحْلِفْ به إلَّا إذَا كان صادقًا ، وإذا طُلِبَ منه أن يَحْلِفَ باللهِ حلَف به ، وإن كان كاذبًا .

---

(١) حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد ص٣٠٣ .

(٢) تقدم تخريجه ص٢٢٤ .

فالحلفُ تعظيمٌ للمخلوفِ به لا يَلِيقُ إلَّا باللهِ ، ويَجِبُ توقيرُ اليمينِ باللهِ فلا يُكْثِرُ منها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ [القلم : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] . أى : لا تَحْلِفُوا إلَّا عندَ الحاجةِ ، وفى حالةِ الصدقِ والبرِّ ؛ لأنَّ كثرةَ الحلفِ أو الكذبَ فيها يَدُلَّانِ على الاستخفافِ باللهِ ، وعدمِ التعظيمِ له ، وهذا يُنافِى كمالَ التوحيدِ .

وفى الحديثِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ ، ولا يُزَكِّيهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ ».

وجاء فيه : « ورجلٌ جعَل اللهَ بضاعتَه لا يَشترِى إلَّا بيمينِه ، ولا يَبيعُ إلَّا بيمينِه »[1]. فقَدْ شَدَّدَ الوعيدَ على كثرةِ الحلفِ ممَّا يَدُلُّ على تحريمِه ؛ احترامًا لاسمِ اللهِ تعالى ، وتعظيمًا له سبحانَه .

وكذلك يَحْرُمُ الحَلِفُ باللهِ كاذبًا، وهى الغَمُوسُ[2]، وقد وصَف اللهُ

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ٦/٢٤٦ (٦١١١) ، والأوسط ٥/٣٦٧ (٥٥٧) ، والصغير ٢/ ٨٢ (٨٢١) .

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ٧٨: رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) الغَمُوس : بفتح المعجمة وضم الميم وآخره مهملة ، وقد ذكر ابن حجر رحمه اللَّهُ تعالى فى الفتح ١١/٥٥٥ عدة أقوال فى بيان سبب تسميتها بالغموس ، فقال رحمه اللَّهُ : قيل : سميت بذلك ؛ لأنها تغمس صاحبها فى الإثم ، ثم فى النار ، فهى فَعُول بمعنى فاعل . وقيل : الأصل فى ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا أن يتعاهدوا أحضروا جَفْنة ، فجعلوا فيها =

المنافقين بأنَّهم يَحْلِفُون على الكذبِ ، وهم يَعْلَمُون[1] .

فنَخْلُصُ من ذلك :

١- تحريمُ الحلفِ بغيرِ اللهِ تعالى ؛ كالحلفِ بالأمانةِ ، أو الكعبةِ ، أو بالنبيِّ ﷺ ، وأنَّ ذلك شركٌ .

٢- تحريمُ الحلفِ باللهِ كاذبًا مُتَعَمِّدًا ، وهو الغَمُوسُ .

٣- تحريمُ كثرةِ الحلفِ باللهِ ، ولو كان صادقًا إذَا لم تَدْعُ إليه حاجةٌ ؛ لأنَّ هذا استخفافٌ باللهِ سبحانَه .

٤- جوازُ الحلفِ باللهِ إذَا كان صادقًا ، وعندَ الحاجةِ .

* * *

(ب) التَّوَسُّلُ بالمخلوقِ إلى اللهِ تعالى :

التَّوَسُّلُ : وهو التَّقَرُّبُ إلى الشيءِ والتَّوَصُّلُ إليه، والوسيلةُ القُرْبَةُ ، قال

= طِيبًا ، أو دمًا ، أو رَمادًا ، ثم يحلفون عندما يُدْخِلون أيديهم فيها ؛ لِيَتِمَّ لهم ذلك المراد من تأكيد ما أرادوا .

فسُمِّيَت تلك اليمين إذا غَدَرَ صاحبُها غَمُوسًا ؛ لكونه بالغ فى نقض العهد ، وكأنها على هذا مأخوذة من اليد المغموس ، فيكون فَعُول بمعنى مفعولة ، وقال ابن التين : اليمين الغموس التى ينغمس صاحبها فى الإثم . اهـ

واليمين الغموس قد ورد فيها الوعيد الشديد ، عن النبى ﷺ ، فقد روى أحمد ٢٠١/٢ (٦٨٨٤) ، والبخارى (٦٦٧٥، ٦٨٧٠، ٦٩٢٠) ، والنسائى (٤٠١١) ، والترمذى (٣٠٢١) ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » .

(١) قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

اللهُ تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] . أي : القربةَ إليه سبحانَه بطاعتِه واتِّباعِ مرضاتِه .

والتَّوَسُّلُ قسمانِ :

القسمُ الأولُ : تَوَسُّلٌ مشروعٌ ، وهو أنواعٌ :

١- النوعُ الأولُ : التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تعالى بأسمائِه وصفاتِه ، كما أمَرَ تعالى بذلك في قولِه : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

٢- النوعُ الثاني : التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تعالى بالإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ التي قام بها المُتَوَسِّلُ ، كما قال تعالى عن أهلِ الإيمانِ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

وكما في حديثِ الثلاثةِ الذين انطَبَقَتْ عليهم الصخرةُ ، فسَدَّتْ عليهم بابَ الغارِ ، فلم يَستَطِيعُوا الخروجَ ، فتَوَسَّلُوا إلى اللهِ بصالحِ أعمالِهم ، ففرَّج اللهُ عنهم ، فخرَجوا يَمْشُونَ[1] .

٣- النوعُ الثالثُ : التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تعالى بتوحيدِه ، كما تَوَسَّلَ يونُسُ عليه السلامُ : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

٤- النوعُ الرابعُ : التَّوَسُّلُ إلى اللهِ تعالى بإظهارِ الضعفِ والحاجةِ

---

(١) روى هذه القصة البخاري (٣٤٦٥) ، ومسلم ٤/٢٠٩٩ (٢٧٤٣) .

والافتقارِ إلى اللهِ ، كما قال أيوبُ عليه السلامُ : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] .

٥- **النوعُ الخامسُ** : التَّوَسُّلُ إلى اللهِ بدعاءِ الصالحينَ الأحياءِ ، كما كان الصحابةُ إذا أَجدَبوا طلَبوا من النَّبيِّ ﷺ أن يَدْعُوَ اللهَ لهم[١] ، ولمَّا تُوُفِّى صارُوا يَطْلُبُون من عمِّه العباسِ رضِى اللهُ عنه فيَدْعُو لهم[٢] .

٦- **النوعُ السادسُ** : التَّوَسُّلُ إلى اللهِ بالاعترافِ بالذنبِ : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ﴾ [القصص : ١٦] .

القسمُ الثانى : تَوَسُّلٌ غيرُ مشروعٍ :

وهو التوسُّلُ بطلبِ الدعاءِ والشفاعةِ من الأمواتِ ، والتَّوَسُّلُ بجاهِ النَّبيِّ ﷺ ، والتَّوَسُّلُ بذواتِ المخلوقين ، أو حقِّهم ، وتَفصيلُ ذلك كما يلى :

١- طلبُ الدعاءِ من الأمواتِ لا يَجوزُ :

لأنَّ المَيِّتَ لا يَقْدِرُ على الدعاءِ ، كما كان يَقْدِرُ عليه فى الحياةِ ،

---

(١) روى البخارى رحمه اللَّهُ (١٠١٤، ١٠١٥) ، ومسلم ٢/٦١٢ (٨٩٧) ، عن أنس رضى اللَّه عنه ، أن رَجُلًا دخل المسجد يوم جمعة ، من باب كان نحو دار القضاء ، ورسول الله ﷺ قائم يَخْطُبُ ، فاسْتَقْبَل رسولَ الله ﷺ قائمًا ، ثم قال : يا رسول اللَّه ، هلَكَت الأموال ، وانقطعت السُّبُل ، فادع الله يُغِثْنا ، قال : فرفع رسول الله ﷺ يَدَيْهِ ، ثم قال : « اللهم أَغِثْنا ، اللهم أَغِثْنا ، اللهم أَغِثْنا » . الحديث .

(٢) روى البخارى (١٠١٠ ، ٣٧١٠) ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٣/٣٥٢، عن أنس رضى اللَّه عنه ، أن عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه كان إذا أَقْحَطوا اسْتَسْقَى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتَسْقِينا ، وإنا نتوسل إليك بعَمِّ نبينا فاسْقِنا . قال : فيُسْقَوْن .

وطلبُ الشفاعةِ من الأمواتِ لا يَجُوزُ ؛ لأنَّ عمرَ بنَ الخطابِ ، ومعاويةَ بنَ أبى سفيانَ ، ومَن بحضرتِهما من الصحابةِ ، والتابعين لهم بإحسانٍ لمَّا أَجْدَبُوا اسْتَسْقَوْا وتَوَسَّلُوا واستَشْفَعُوا بمَن كان حيًّا ؛ كالعباسِ وكيزيدَ بنِ الأسودِ[١] ، ولم يَتَوَسَّلُوا ، ولم يَسْتَشْفِعُوا ، ولم يَسْتَسْقُوا بالنبيِّ ﷺ ، لا عندَ قبرِه ، ولا عندَ غيرِه ، بل عدَلوا إلى البَدَلِ ؛ كالعباسِ وكيزيدَ .

وقد قال عمرُ : اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نَتَوَسَّلُ إليكَ بنَبِيِّنا فتَسْقِينا ، وإنَّا نَتَوَسَّلُ بعَمِّ نبيِّنَا فاسْقِنَا[٢] .

---

(١) روى الفَسَوى فى المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٨٠، ٣٨١، وابن سعد فى الطَّبَقات (٧/ ٤٤٤) ، وأبو زُرْعَة فى تاريخ دمشق ١/ ٦٠٢، أن معاوية بن أبى سفيان رضى اللَّه عنه اسْتَسْقَى بيزيد بن الأسود الجُرَشى ، فقال : اللهم إنا نستشفع - أو نتوسل - إليك بخيارنا ، يا يزيد ارفع يديك ، فرفع يديه ، ودعا الناسُ حتى سُقُوا .
قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة ٦/ ٦٩٧: رواه أبو زرعة الدمشقى ، ويعقوب بن سفيان فى تاريخيهما بسند صحيح .
وقال الشيخ الألبانى رحمه اللَّهُ : رواه ابن عساكر فى تاريخه بسند صحيح . اهـ
وورد فى الآحاد والمثانى ٢/ ١٣٧ عن ابن أبى حملة قال : أصاب الناسَ قحطٌ بدمشق ، وعلى الناس الضحاك بن قيس ، فخرج يستسقى فقال : أين يزيد بن الأسود الجُرَشى ؟ فلم يُجِبْه ، فقال : أين يزيد بن الأسود ؟ فلم يُجِبْه ، فقال : أين يزيد بن الأسود الجرشى ؟ فقال : عزَمْتُ عليه إن كان يسمع صوتى إلا قام . فقام يزيد بن الأسود ، فثَنَى جانبَىِ البُرْنُس على عاتقه ، ثم قال : اللهم إنَّ عبادك قد تقرَّبوا بى إليك فاسْقِهم . قال : فما انصرفوا إلا وهم يخوضون الأودية . ثم قال : اللهم إنه قد شَهَرَنى فأَرِحْنى . قال : فما أَتَى عليه جمعة حتى مات ، أو قُتِل .
(٢) تقدم تخريجه ص٣٠٤ .

فجعَلوا هذا بدلًا من ذلك لمَّا تَعَذَّرَ أن يَتَوَسَّلُوا به على الوجهِ المشروعِ الذى كانوا يَفْعَلونَه .

وقد كان من المُمْكنِ أن يَأْتُوا إلى قبرِه فيَتَوَسَّلُوا به[1] ؛ يعنى : لو كان جائزًا ، فترْكُهم لذلك دليلٌ على عدمِ جوازِ التوسلِ بالأمواتِ ، لا بدعائِهم ، ولا بشفاعتِهم ، فلو كان طلبُ الدعاءِ منه ، والاستشفاعُ به حيًّا وميتًا سواءً لم يَعْدِلُوا عنه إلى غيرِه ممَّن هو دونَه .

٢- التوسلُ بجاهِ النَّبىِّ ﷺ ، أو بجاهِ غيرِه لا يجوزُ :

والحديثُ الذى فيه : « إذا سأَلْتُمُ اللهَ فاسْأَلوه بجاهِى ؛ فإنَّ جاهى عندَ اللهِ عظيمٌ »[2] . حديثٌ مكذوبٌ ليسَ فى شيءٍ من كتبِ المسلمين التى يُعْتَمَدُ عليها ، ولا ذكَره أحدٌ من أهلِ العلمِ بالحديثِ .

وما دامَ لم يَصِحَّ فيه دليلٌ فهو لا يَجُوزُ ؛ لأنَّ العباداتِ لا تَثْبُتُ إلَّا بدليلٍ صحيحٍ صريحٍ .

٣- التوسلُ بذواتِ المخلوقِين لا يَجوزُ :

لأنَّه إن كانت الباءُ للقَسَمِ فهو إقسامٌ به على اللهِ تعالى ، وإذا كان الإقسامُ بالمخلوقِ على المخلوقِ لا يَجوزُ ، وهو شركٌ كما فى الحديثِ ، فكيفَ بالإقسامِ بالمخلوقِ على الخالقِ جلَّ وعلا ، وإنْ كانت الباءُ للسببيةِ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣١٨/١ .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى مجموع الفتاوى ٣١٩/١ عن هذا الحديث : وهذا الحديث كذب ، ليس فى شيء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث . اهـ

فاللهُ سبحانَه لم يَجْعَلِ السؤالَ بالمخلوقِ سببًا للإجابةِ ، ولم يَشْرَعْه لعبادِه .

٤- التوسُّلُ بحقِّ المخلوقِ لا يَجوزُ لأمرين :

الأولُ : أنَّ اللهَ سبحانَه لا يَجِبُ عليه حقٌّ لأحدٍ ، وإنَّما هو الذى يَتفَضَّلُ سبحانَه على المخلوقِ بذلك كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

فكونُ المطيعِ يَسْتَحِقُّ الجزاءَ هو استحقاقُ فضلٍ وإنعامٍ ، وليس هو استحقاقَ مقابلةٍ ، كما يَسْتَحِقُّ المخلوقُ على المخلوقِ .

الثانى : أنَّ هذا الحقَّ الذى تَفَضَّلَ اللهُ به على عبدِه هو حقٌّ خاصٌّ به ، لا عَلاقةَ لغيرِه به ، فإذا تَوَسَّلَ به غيرُ مُسْتَحِقِّه كان مُتَوَسِّلًا بأمرٍ أجنبيٍّ لا علاقةَ له به ، وهذا لا يُجْدِيه شيئًا .

وأمَّا الحديثُ الذى فيه : « أَسْأَلُك بحقِّ السائلين »(١) فهو حديثٌ لم يَثْبُتْ ؛ لأنَّ فى إسنادِه عطيةَ العَوْفِيَّ ، وهو ضعيفٌ مُجْمَعٌ على ضعفِه ، كما قال بَعْضُ المُحَدِّثين ، وما كان كذلك فإنَّه لا يُحْتَجُّ به فى هذه المسألةِ المهمةِ من أمورِ العقيدةِ .

ثمَّ إنَّه ليس فيه تَوَسُّلٌ بحقِّ شخصٍ مُعَيَّنٍ ، وإنَّما فيه التَّوسُّلُ بحقِّ السائلين عمومًا ، وحقُّ السائلين الإجابةُ كما وعَدَهم اللهُ بذلك ، وهو

---

(١) رواه أحمد ٣/ ٢١ (١١٠٩٩) ، وابن ماجه (٧٧٨) ، وابن خزيمة ٢/ ٤٥٨ .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى مجموع الفتاوى ١/ ٣٤٠: وهذا الحديث فى إسناده عَطِيَّة العَوْفِى ، وفيه ضعف .
وقال الشيخ الألبانى رحِمه اللَّهُ فى تعليقه على سنن ابن ماجه : ضعيف .

حقٌّ أوجَبَه على نفسِه لهم ، لم يُوجِبْه عليه أحدٌ ، فهو تَوَسُّلٌ إليه بوعدِه الصادقِ ، لا بحقِّ المخلوقِ .

* * *

(ج) حكمُ الاستعانةِ والاستغاثةِ بالمخلوقِ :

الاستعانةُ : طلبُ العَوْنِ ، والمُؤازرةِ فى الأمرِ .

والاستغاثةُ : طلبُ الغَوْثِ ، وهو إزالةُ الشدةِ .

فالاستعانةُ والاستغاثةُ بالمخلوقِ على نوعين :

النوعُ الأولُ : الاستعانةُ والاستغاثةُ بالمخلوقِ فيما يَقْدِرُ عليه ، وهذا جائزٌ ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] ، وقال تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص : ١٥].

النوعُ الثانى : الاستغاثةُ والاستعانةُ بالمخلوقِ فيما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ ؛ كالاستعانةِ بالأمواتِ ، والاستغاثةِ بالأحياءِ ، والاستعانةِ بهم فيما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ من شفاءِ المَرْضَى ، وتفريجِ الكُرُباتِ ، ودفعِ الضُّرِّ ، فهذا النوعُ غيرُ جائزٍ ، وهو شركٌ أكبرُ .

وقد كان فى زمنِ النبيِّ ﷺ منافقٌ يُؤذِى المؤمنين فقال بعضُهم : قوموا بنا ، نَسْتَغِيثُ برسولِ اللهِ ﷺ من هذا المنافقِ ؛ فقال النَّبيُّ ﷺ : « إنَّه لا يُسْتَغاثُ بى ، وإنَّما يُسْتَغاثُ باللهِ »[1] .

---

(١) عزاه الهيثمى فى المجمع ١٠/١٦٢ إلى الطبرانى فى الكبير ، عن عبادة بن الصامت ، وقال : رجاله رجال الصحيح ، غيرَ ابن لَهِيعة ، وهو حسن الحديث ، وقد رواه أحمد بغير هذا السياق . اهـ =

كرِه ﷺ أنْ يُسْتَعْمَلَ هذا اللفظُ فى حقِّه ، وإنْ كان ممَّا يَقْدِرُ عليه فى حياتِه ؛ حمايةً لجَنابِ التوحيدِ ، وسدًّا لذرائعِ الشركِ ، وأدبًا وتواضُعًا لربِّه ، وتحذيرًا للأمةِ من وسائلِ الشركِ فى الأقوالِ والأفعالِ .

فإذا كان هذا فيما يَقْدِرُ عليه النبىُّ ﷺ فى حياتِه ، فكيف يُسْتَغَاثُ به بعدَ مماتِه ، ويُطْلَبُ منه أمورٌ لا يَقْدِرُ عليها إلَّا اللهُ[٢]، وإذا كان هذا لا يَجُوزُ فى حقِّه ﷺ فغَيرُه من بابِ أَوْلَى .

* * *

= وروى أحمد فى مسنده ٣١٧/٥ (٢٢٦٠٥) ، وابن سعد فى الطبقات ٣٨٧/١ الشطر الأول من هذا الحديث ، ولكن قال : « لا يقام لى ، إنما يقام لله تبارك وتعالى » .
قال الهيثمى فى المجمع ٨/ ٤٠ : فيه راوٍ لم يُسَمَّ ، وابنُ لَهيعة .

(٢) فتح المجيد ص١٧٢ .

البابُ الخامسُ :
فى بيانِ ما يَجِبُ اعتقادُه فى الرسولِ ﷺ
وأهلِ بيتِه وصَحابتِه

وذلك فى فصولٍ :

الفصلُ الأولُ : فى وجوبِ محبةِ الرسولِ وتعظيمِه ، والنَّهيِ عن الغُلُوِّ والإطراءِ فى مدحِه ، وبيانِ منزلتِه ﷺ .

الفصلُ الثانى : فى وجوبِ طاعتِه والاقتداءِ به .

الفصلُ الثالثُ : فى مشروعيةِ الصلاةِ والسلامِ عليه .

الفصلُ الرابعُ : فى فضلِ أهلِ البيتِ ، وما يَجِبُ لهم من غيرِ جَفاءٍ ، ولا غُلُوٍّ .

الفصلُ الخامسُ : فى فضلِ الصحابةِ ، وما يجبُ اعتقادُه فيهم ، ومذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فيما حدَث بينَهم .

الفصلُ السادسُ : فى النَّهيِ عن سبِّ الصحابةِ وأئِمَّةِ الهدَى .

* * *



الفصلُ الأولُ :
فى وجوبِ محبةِ الرسولِ وتعظيمِه ،
والنَّهيِ عن الغُلوّ والإطراءِ ، فى مدحِه وبيانِ منزلتِه ﷺ

١- وجوبُ محبتِه وتعظيمِه ﷺ :

يَجِبُ على العبدِ أولًا محبةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهى من أعظمِ أنواعِ العبادةِ ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ؛ لأنَّه هو الربُّ المُتَفَضِّلُ على عبادِه بجميعِ النعمِ ؛ ظاهرِها وباطنِها .

ثمَّ بعدَ محبةِ اللهِ تعالى تَجِبُ محبةُ رسولِه محمدٍ ﷺ ؛ لأنَّه هو الذى دعا إلى اللهِ وعرَّف به ، وبلَّغ شريعتَه ، وبيَّن أحكامَه .

فما حصَل للمؤمنين من خيرٍ فى الدنيا والآخرةِ فعلى يدِ هذا الرسولِ ، ولا يَدْخُلُ أحدٌ الجنةَ إلَّا بطاعتِه واتِّباعِه ﷺ ، وفى الحديثِ : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَد حلاوةَ الإيمانِ ؛ أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سِواهما ، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ ، وأنْ يَكْرَهَ أن يَعُودَ فى الكفرِ بعدَ أن أنقَذَه اللهُ منه ، كما يَكْرَهُ أن يُقْذَفَ فى النارِ »[1] .

فمحبةُ الرسولِ تابعةٌ لمحبةِ اللهِ تعالى ، لازمةٌ لها ، وتَلِيها فى المرتبةِ ، وقَدْ جاء بخصوصِ محبتِه ﷺ ، ووجوبِ تقديمِها على محبةِ كلِّ محبوبٍ سِوى اللهِ تعالى قولُه ﷺ : « لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِه ، ووالدِه ، والناسِ أجمعين »[2] .

---

(١) رواه البخارى (٢١) ، ومسلم ١/٦٦ (٤٣) .

(٢) رواه البخارى (١٥) ، ومسلم ١/٦٧ (٤٤) ، الحديث رقم (٧٠) من كتاب الإيمان .

بل ورَد أنَّه يَجِبُ على المؤمنِ أن يَكونَ الرسولُ ﷺ أحبَّ إليه من نفسِه ، كما في الحديثِ : أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رضِى اللهُ عنه قال : يا رسولَ اللهِ ، لأَنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلَّا مِن نفسِى . فقال : « والذى نفسِى بيدِه حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسِك ». فقال له عمرُ: فإنَّك الآنَ أحبُّ إليَّ من نفسِى . فقال : « الآنَ يا عمرُ »[1] .

ففى هذا بيانٌ أنَّ محبةَ الرسولِ ﷺ واجبةٌ ومُقَدَّمةٌ على محبةِ كلِّ شيءٍ سوى محبةِ اللهِ ؛ فإنَّها تابعةٌ لها ، لازمةٌ لها ؛ لأنَّها محبةٌ فى اللهِ ولأجلِه ، تَزِيدُ بزيادةِ محبةِ اللهِ فى قلبِ المؤمنِ ، وتَنْقُصُ بنقصِها .

وكلُّ مَن كان مُحِبًّا له فإنَّما يُحِبُّه فى اللهِ ولأجلِه ، ومحبتُه ﷺ تَقْتَضِى تعظيمَه وتوقيرَه واتِّباعَه وتقديمَ قولِه على قولِ كلِّ أحدٍ من الخَلْقِ ، وتعظيمَ سنتِه .

قال العلامةُ ابنُ القيمِ رحِمه اللهُ : وكلُّ محبةٍ وتَعظيمٍ للبشرِ فإنَّما تَجوزُ تَبَعًا لمحبةِ اللهِ وتعظيمِه ، كمحبةِ رسولِ اللهِ وتعظيمِه ؛ فإنَّها من تمامِ محبةِ مُرْسِلِه وتعظيمِه ؛ فإنَّ أُمَّتَه يُحِبُّونَه لمحبةِ اللهِ له ، ويُعَظِّمُونه ويُجِلُّونه لإجلالِ اللهِ له فهى محبةٌ من مُوجَباتِ محبةِ اللهِ .

والمقصودُ أنَّ النَّبىَّ ﷺ ألقَى اللهُ عليه من المَهَابةِ والمحبةِ ، ولهذا لم يَكُنْ بشرٌ أحبَّ إلى بشرٍ ، ولا أَهْيَبَ وأَجَلَّ فى صدرِه من رسولِ اللهِ ﷺ

---

(١) رواه أحمد فى المسند ٤/ ٢٣٣، ٣٣٦، ٥/٢٩٣ (١٧٩٧٠، ١٨٨٦٣، ٢٢٤٠٢) ، والبخارى (٦٦٣٢) فى الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبى ﷺ ، والحاكم فى المستدرك ٣/٥١٦ .

فى صدورِ أصحابِه رضِى اللهُ عنهم .

قال عمرُو بنُ العاصِ بعدَ إسلامِه : إنه لم يَكُنْ شخصٌ أبغضَ إلىَّ منه ، فلمَّا أسْلَمْتُ لم يَكُنْ شخصٌ أحبَّ إليه منه ، ولا أجلَّ فى عَيْنَىَّ منه . قال : ولو سُئِلْتُ أن أَصِفَه لكُمْ لَمَا أَطَقْتُ ؛ لأنِّى لم أَكُنْ أَمْلَأُ عينِى منه إجلالًا له[١] .

وقال عروةُ بنُ مسعودٍ لقريشٍ : يا قومِ ، واللهِ لقد وفَدْتُ إلى كِسْرَى وقَيْصَرَ والملوكِ ، فما رأَيْتُ مَلِكًا يُعَظِّمُه أصحابُه ما يُعَظِّمُ أصحابُ محمدٍ محمدًا ﷺ ، واللهِ ما يُحِدُّون النَّظَرَ إليه تعظيمًا له ، وما تَنَخَّمَ نُخامةً إلَّا وقَعتْ فى كفِّ رجلٍ منهم فيَدْلُكُ بها وجهَه وصدرَه ، وإذَا تَوَضَّأَ كادُوا يَقْتَتِلُون على وَضوئِه[٢] . انتهى[٣] .

٢- النَّهىُ عن الغُلُوِّ والإطراءِ فى مدحِه :

الغُلُوُّ : تجاوزُ الحدِّ ، يقال : غلا غُلُوًّا ، إذا تَجاوَزَ الحَدَّ فى القَدْرِ .

قال تعالى : ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] . أى : تُجاوِزُوا الحَدَّ .

والإطراءُ : مجاوزةُ الحدِّ فى المدحِ والكذبُ فيه ، والمرادُ بالغلوِّ فى حقِّ النَّبىِّ ﷺ مجاوزةُ الحدِّ فى قَدْرِه بأنْ يُرْفَعَ فوقَ مرتبةِ العبوديةِ والرسالةِ ، ويُجْعَلَ له شيءٌ من خصائصِ الإلهيةِ ، بأنْ يُدْعَى ويُسْتَغاثُ به

---

(١) رواه مسلم ١/١١٢ (١٢١) .

(٢) رواه أحمد ٤/ ٣٢٩، ٣٣٠ (١٨٨٣٠) ، والبخارى (٢٧٣١، ٢٧٣٢) .

(٣) جلاء الأفهام ص١٨٧ .

من دونِ اللهِ ، ويُحْلَفَ به .

والمرادُ بالإطراءِ فى حقِّه ﷺ : أن يُزادَ فى مدحِه ، فقد نهَى ﷺ عن ذلك بقولِه : « لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النصارَى ابنَ مريمَ ، إنَّما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ اللهِ ورسولُه »[(١)]. أى : لا تَمْدَحونِى بالباطلِ ، ولا تُجاوِزُوا الحدَّ فى مدحِى ، كما غَلَتِ النصارَى فى عيسى عليه السلامُ ، فادَّعَوْا فيه الألوهيةَ ، وصِفُونى بما وصَفنى به ربِّى ، فقولوا : عبدُ اللهِ ورسولُه .

ولما قال له بَعْضُ أصحابِه : أنت سَيِّدُنا . فقال : « السيِّدُ اللهُ تبارَك وتعالى » .

ولما قالُوا : وأفضلُنا وأعظمُنا طَوْلًا . فقال : « قولوا بقولِكم أو بَعْضِ قولِكم ، ولا يستَجْرِيَنَّكُمُ الشيطانُ »[(٢)] .

وقال له ناسٌ : يَا رسولَ اللهِ ، يا خيرَنا ، وابنَ خيرِنا ، وسيِّدَنا ، وابنَ سيِّدِنا . فقال : « يا أيها الناسُ قولوا بقولِكم ، ولا يَسْتَهْوِيَنَّكم الشيطانُ ، أنا محمدٌ عبدُ اللهِ ورسولُه ، ما أُحِبُّ أن تَرْفَعونى فوقَ منزلتِى التى أنزَلَنِىَ اللهُ عزَّ وجلَّ »[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) رواه أحمد ٤/٢٥ (١٦٢٦٣) ، وأبو داود (٤٨٠٦) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٢٤٥ - ٢٤٧) .

قال الشيخ الألبانى رحمه اللّٰه فى تعليقه على سنن أبى داود : صحيح .

(٣) رواه أحمد ٣/٢٤١ (١٣٤٦٣) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٢٤٨) ، وعبد الرزاق ١١/٢٧٢ (٢٠٥٢٢) ، وابن حبان (٦٢٣٩) ، والبيهقى فى الدلائل ٥/٣١٨، وأبو نعيم فى الحلية ٦/٢٥٢ .

قال الشيخ حافظ بن أحمد حكمى فى معارج القبول ٢/ ٥٣٢: رواه النسائى بسند جيد .

كرِه ﷺ أن يَمْدَحُوه بهذهِ الألفاظِ : أنت سيِّدُنا ، أنت خَيرُنا ، أنت أفضلُنا ، أنت أعظمُنا ، مع أنَّه أفضلُ الخلقِ وأشرفُهم على الإطلاقِ ، لكنَّه نهاهم عن ذلك ؛ ابتعادًا بهم عن الغُلُوِّ والإطراءِ فى حقِّه ، وحمايةً للتوحيدِ .

وأرشَدهم أن يَصِفُوه بصِفَتَين هما أعلى مراتبِ العبوديةِ ، وليس فيهما غُلُوٌّ ، ولا خطرٌ على العقيدةِ ، وهما : عبدُ اللهِ ورسولُه ، ولم يُحِبَّ أن يَرْفَعوه فوقَ ما أنزَله اللهُ عزَّ وجلَّ من المنزلةِ التى رَضِيَها له .

وقد خالَفَ نَهيَه ﷺ كثيرٌ من الناسِ ، فصاروا يَدْعُونه ، ويَسْتَغِيثون به ، ويَحْلِفون به ، ويَطْلُبُون منه ما لا يُطْلَبُ إلَّا من اللهِ ، كما يُفْعَلُ فى الموالدِ والقصائدِ والأناشيدِ ، ولا يُمَيِّزُون بينَ حقِّ اللهِ ، وحقِّ الرسولِ .

يقولُ العلامةُ ابنُ القيمِ فى النونيـةِ :

لـلـهِ حـقٌّ لا يـكـونُ لـغـيـرِه   ولـعـبـدِه حـقٌّ هـمـا حـقَّـانِ
لا تَجْعَلُوا الحَقَّيْن حقًّا واحدًا   مـن غـيـرِ تَمـيـيـزٍ ولا فُـرقـانِ[1]

---

(١) انظر القصيدة النونية لابن القيم ، مع شرحها للشيخ محمد خليل هراس ٢/٢٢٠ .
واعلم – رحمك اللَّه – أنه قد ضَلَّ فى وصف النبى ﷺ بالرسالة والعبودية طائفتان ؛
الطائفة الأولى : ظنت أنه ﷺ له حق فى الربوبية وتصريف الكون ، أو حق فى العبادة ، فغلَوْا فيه ، وأنْزَلوه بمنزلة أكبر من المنزلة التى أنزله اللَّه إياها ، وصاروا يَدْعُون الرسول ﷺ ، واعتقدوا أنه ﷺ يكشف الضر ، حتى إنهم عند قبره يسألون النبى ﷺ مباشرة أن يكشف الضر عنهم ، وأن يجلُب النفع لهم ، وهذا غُلُوٌّ فى الرسول وشرك باللَّه عز وجل ؛ إذ لا يقدر على جلب النفع ودفع الضر إلا اللَّه عز وجل . =

....

= فهؤلاء عظمةُ الرسول ﷺ في قلوبهم أشدُّ من تعظيم اللَّه ، والعياذ باللَّه ، حتى إنه إذا ذُكِر الرسول اقشعرت جلودهم ، كأنما ذُكِر اللَّه ، وإذا ذُكِر اللَّه فإنما هو كالماء البارد على جلودهم ، لا يتحركون .

ومن ذلك قول البوصيرى فى البردة :

يا أكرمَ الخَلْقِ مالى مَن أَلُوذُ به ... سِواك عندَ حُلولِ الحادثِ العَمَمِ
إن لم تَكُنْ آخِذًا يومَ المعادِ يدى ... فضلًا وإلا فقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ
فإن مِن جُودِك الدنيا وضَرَّتَها ... ومن علومِك علمُ اللَّوْحِ والقَلَمِ

قال ابن رجب وغيره : إنه لم يترك لله شيئًا ، ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ . اهـ

ونحن نشهد أن من يقول هذا ما شهِد أن محمدًا عبد اللَّه ، بل شهد أن محمدًا فوق اللَّه ، فتأمل أخى الكريم كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد ؟! وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا : إن المسيح ابن اللَّه ، وقالوا : إن اللَّه ثالث ثلاثة .

هم قالوا فوق ذلك ، قالوا : إن اللَّه يقول : من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وأنا مع عبدى إذا ذكرنى ، والرسول معنا إذا ذكرناه ، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلا التالى (المُخَرِّف) كلمة المصطفى قاموا جميعًا قيام رجل واحد ، يقولون : لأن الرسول ﷺ حضر مجلسنا بنفسه ، فقمنا إجلالًا له .

والصحابة رضى اللَّه عنهم أشد إجلالًا منهم ومنا ، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ ، وهو حى ، يكلمهم ، لا يقومون ، وهؤلاء يقومون إذا تخيلوا ، أو جاءهم شَبَح - إن كانوا يشاهدون شيئًا - فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد ، فهؤلاء ما شهدوا أن محمدًا عبد اللَّه ورسوله .

ومنهم من يقول : إن الرسول ﷺ ليس له ظلٌّ ، أو أن نوره يطفئ ظله إذا مشى فى الشمس ، فهذا كله كذب باطل ، ولهذا قالت عائشة رضى اللَّه عنها : كنت أَمُدُّ رِجْلَىَّ بين يديه . وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح ، فلو كان النبى ﷺ له نور لم تعتذر رضى اللَّه عنها ، ولكنه الغلو الذى أفسد الدين والدنيا ، والعياذ باللَّه .

ومن تعظيم النبى ﷺ والغلو فيه : الحلف به ؛ لأن الحلف نوع من التعظيم لا يصلح =

....

= إلا لله ، ومن عظَّم غير الله بما لا يصلح إلا له فهو شرك .
المهم أنه من مقتضى شهادة أن محمدًا رسول اللّه أن نعتقد أنه ليس لرسول اللّه ﷺ حق فى الربوبية وتصريف الكون ، أو حق فى العبادة ، وأنه لا يملك لنفسه ، ولا لغيره ، حال حياته ، أو بعد موته شيئًا من النفع أو الضر إلا ما شاء اللّه ، بل هو عبد محتاج إلى اللّه ، مُفْتَقِر إليه ، يسأله ويدعوه ويرجوه ويخافه ، بل إن اللّه أمره أن يعلن ، وأن يُبَلِّغَ بلاغًا خاصًا بأنه لا يملك شيئًا من هذه الأمور فقال : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ . فهو ﷺ عبد مأمور يَتَّبِـع ما أُمِر به ، وأمره أن يقول : ﴿ قُلْ إِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ .
وأمره أن يقول : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .
والصحابة لما أصابهم القحط فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه واستسقوا فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ما جاءوا إلى القبر يسألون الرسول أو يقولون : ادع اللّه لنا ، أو اشفع لنا عند اللّه حتى يُنْزِل الغيث .
قال عمر يدعو اللّه : اللهم إنا كنا نتوسل بك بنبينا فتَسْقِينا ، وإننا نتوسل إليك بعم نبينا . ثم أمر العباس أن يقوم ويدعو اللّه بإنزال الغيث ؛ وذلك لأن النبى ﷺ ميت ، لا عمل له بعد موته ، وهو الذى قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .
فالنبى ﷺ **لا يملك شيئًا** ، **لا يملك أن يدعو لك** ، **وهو فى قبره أبدًا** ، فمن أنزله فوق منزلته التى أنزله اللّه فإنه لم يحقق شهادة أن محمدًا عبده ورسوله ، بل شهد أن محمدًا رب مع اللّه ، نعوذ باللّه ؛ لأن معنى كونه رسولًا أنه عبد لا يُعْبَد ورسول لا يُكَذَّب ، نحن فى صلاتنا كل يوم نقول : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا عبده ورسوله .
فهو عبد كغيره من العباد مربوب ، واللّه هو المعبود ، وهو الرب .
إذًا نقول لهؤلاء الذين نجدهم يَغْلُون برسول اللّه ﷺ ، ويُنَزِّلونه فوق منزلته التى أنزله اللّه ، نقول لهم : إنكم لم تحققوا ، لا شهادة أن لا إله إلا اللّه ، ولا شهادة أن محمدًا رسول اللّه .
ولهذا المعنى تعلم أنه لا يستحق العبادة ، لا رسول اللّه ﷺ ، ولا من دونه من المخلوقين ، =

....

= وأن العبادة ليست إلا لله وحده ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وإذا كان محمد رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه بهذه المثابة فما بالك بمن دونه من عباد اللّه فإنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا لغيرهم أبدًا ، وبهذا يتبين سَفَهُ أولئك القوم الذين يَدْعُون من يدَّعونهم أولياء من دون اللّه عز وجل .

الطائفة الثانية : عكس هذه الطائفة ، كذَّبت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالت : ليس برسول : إما أنه كاذب فى أصل الرسالة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ .

وإما أنه كاذب فى تعميم الرسالة ، كما يقول النصارى الذين يُداهنون المسلمين ، وانخدع بهم بعض العرب ، قالوا : محمد رسول اللّه ، لكن إلى العرب فقط ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ ، وهم يقولون : نحن لسنا بأميين ، نحن من بنى إسرائيل ، من أهل الكتاب .

والنصارى يقولون : رسولنا عيسى ، ويَغْلُون به ، حتى جعلوه إلهًا مع اللّه .

واليهود يقولون : عيسى كاذب ابن زانية ، والعياذ باللّه ، مقتول مصلوب ، ونبيهم موسى .

وهذا لا شك أنه كذب وبهتان ، فالرسول ﷺ مبعوث ومرسل إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس ؛ العرب واليهود والنصارى ، ومبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى اللّه بإذنه ، وسراجًا منيرًا .

أما كونه ﷺ مبعوثًا إلى الجن ، فقد حكى اللّه سبحانه فى القرآن قول الجن : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ولا عبادة لله تعالى إلا عن طريق الوحى الذى جاء به محمد ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ للعالمين كلهم .

وأما كونه ﷺ مبعوثًا للناس جميعًا ، فقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . فهو رسول إلى جميع الخلق ، وقال أيضًا سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ =

٣ - بيانُ منـزلتِه ﷺ :

لا بأسَ ببيانِ منزلتِه بمدحِه ﷺ بما مدَحه اللهُ به ، وذكرِ منزلتِه التى فضَّله اللهُ بها ، واعتقادِ ذلك ، فله ﷺ المنزلةُ العاليةُ التى أنزَله اللهُ فيها ، فهو عبدُ اللهِ ورسولُه ، وخَيْرتُه من خلقِه، وأفضلُ الخلقِ على الإطلاقِ(١) .

= للعالمين كلهم .

وروى البخارى ومسلم رحمهما اللَّه تعالى - واللفظ لمسلم - أن رسول اللَّه ﷺ قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورًا ومسجدًا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » .

قال شارح العقيدة الطحاوية : وكونه ﷺ مبعوثًا إلى الناس كافة ، معلوم من الدين بالضرورة . وروَى مسلم ، من حديث أبى هريرة ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

قال النووى رحمه اللَّه فى شرح صحيح مسلم ١/ ٤٦٦ : قوله ﷺ : « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة » . أى : ممن هو موجود فى زمنى وبعدى إلى يوم القيامة ، فكلهم يجب عليه الدخول فى طاعته . اهـ

ولذلك نحن نؤمن ونعتقد بأن جميع النصارى واليهود وغيرهم من الكفرة ، كلهم من أصحاب النار ؛ لأن هذه شهادة النبى ﷺ ، والجنة حرام عليهم ؛ لأنهم كفرة أعداء للَّه ولرسوله ، أعداء لإبراهيم ونوح ومحمد وعيسى وجميع الرسل ، فهم ليسوا على شىء . أما أن تُلَبِّس وتأتى بآيات متشابهة فإنك أحق من يدخل فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ ﴾ .

(١) سُئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه اللَّهُ تعالى ، فى اللقاء الثالث والخمسين من لقاءات الباب المفتوح ٣/ ١٦٣ : هناك أحد الأساتذة فى الجامعة يقول : إن قولنا على النبى ﷺ : أشرف الخلق . لا يصح ، وإن هذه من عبارات التصوُّف ، واستدل بقوله تعالى : =

وهو رسولُ اللهِ إلى الناسِ كافَّةً ، وإلى جميعِ الثَّقَلَيْنِ ؛ الجنِّ والإنسِ ، وهو أفضلُ الرُّسُلِ ، وخاتمُ النَّبِيِّين ، لا نبيَّ بعدَه ، قد شرَح اللهُ له صدرَه ، ورفَع له ذكرَه ، وجعَل الذِّلَّةَ والصَّغارَ على مَن خالَف أمرَه .

وهو صاحبُ المقامِ المحمودِ الذى قال اللهُ تعالى فيه : ﴿ عَسَى أَنْ

= ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، يقول : إننا لا نُحصِى خَلْق اللّه تعالى ، حتى ندعو نبينا محمدًا ﷺ ، هو من أشرفها ؟

فأجاب رحمه الله : المشهور عند كثير من العلماء إطلاق هذه العبارات أن محمدًا ﷺ أفضل الخلق ، كما قال الناظم :

وأفضَلُ الخَلْقِ على الإطلاقِ نَبِيُّنا فمِلْ عن الشِّقاقِ

لكنَّ الأحوط والأسلم أن نقول : محمد ﷺ سيد ولد آدم ، وأفضل البشر ، وأفضل الأنبياء ، وما أشبه ذلك ؛ اتباعًا لما جاء به النص ، ولا أعلم إلى ساعتى هذه أنه جاء أن النبى ﷺ أفضل الخلق مطلقًا فى كل شىء .

وأما الاستدلال بالآية : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ففى غير محلها ؛ لأنَّ هذه الآية فى المركوبات ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ يعنى : مما تركبون ، وهو أيضًا يخلق ما لا نعلم من غير ما نركب ، لكن الاستدلال بهذه الآية على أنه يمكن أن يخلق اللّه سبحانه تعالى خلقًا خيرًا من محمد ﷺ ، فيه نظر ، الأسلم أن الإنسان فى هذه الأمور يَتَحَرَّى ما جاء به النص .

مثلًا : لو قال قائلٌ : هل فضَّل اللّه بنى آدم عمومًا على جميع المخلوقات ؟ قلنا : لا ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ . ما قال على كل من خلقنا .

فمثل هذه الإطلاقات ينبغى على الإنسان أن يتقيد فيها بما جاء به النص فقط ، ولا يَتَعَدَّى ، والحمد لله نعلم أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين ، وأشرف الرسل ، وأفضلهم ، وأكرمهم عند اللّه عزَّ وجلَّ ، وأدلة ذلك من القرآن والسنة الصحيحة معروفة مشهورة .

وأما ما لم يرد به دليل صحيح فإن الاحتياط أن تتورع عنه .

أما كون هذه من عبارات الصوفية ، أو غير الصوفية ، فلا أدرى ، لكنه مشهور عند كثير من العلماء ، تجدهم يقولون : إن محمدًا أشرف الخلق . اهـ

يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ؛ أى : المقامَ الذى يُقِيمُه اللهُ فيه للشفاعةِ للناسِ يومَ القيامةِ ؛ ليُرِيحَهم ربُّهم من شدةِ الموقفِ ، وهو مقامٌ خاصٌّ به ﷺ دونَ غيرِه من النَّبِيِّين .

وهو أخشَى الخلقِ للهِ وأتقاهم له ، وقَدْ نَهَى اللَّهُ عن رفعِ الصوتِ بحضرتِه ﷺ ، وأثنَى على الذين يَغُضُّون أصواتَهم عندَه ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٢- ٥] .

قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحِمه اللهُ[١]: هذه آياتٌ أدَّبَ اللهُ فيها عبادَه المؤمنين فيما يُعامِلُون به النبيَّ ﷺ من التوقيرِ والاحترامِ والتبجيلِ والإعظامِ أن لا يَرْفَعُوا أصواتَهم بينَ يدي النبيِّ ﷺ فوقَ صوتِه .

ونَهَى سبحانَه وتعالى أن يُدْعَى الرسولُ باسمِه ، كما يُدْعَى سائرُ الناسِ ، فيقالُ : يَا محمدُ ، وإنَّما يُدْعَى بالرسالةِ والنبوةِ ، فيقالُ : يَا رسولَ اللهِ ، يَا نبيَّ اللهِ .

قال تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور : ٦٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٢٠٦ .

كما أنَّ اللهَ سبحانَه يُنادِيه : يَا أيها النبيُّ ، يَا أيها الرسولُ .

وقد صلَّى اللهُ وملائكتُه عليه ، وأمَر عبادَه بالصلاةِ والتسليمِ عليه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

لكن لا يُخَصَّصُ لمدحِه ﷺ وقتٌ ، ولا كيفيةٌ معينةٌ إلَّا بدليلٍ صريحٍ من الكتابِ والسنةِ ، فما يَفعَلُه أصحابُ المولدِ من تخصيصِ اليومِ الذى يَزْعُمون أنَّه يومُ مَولدِه لمدحِه بدعةٌ مُنْكَرةٌ .

ومن تعظيمِه ﷺ تعظيمُ سُنَّتِه ، واعتقادُ وجوبِ العملِ بها ، وأنَّها فى المنزلةِ الثانيةِ بعدَ القرآنِ الكريمِ فى وجوبِ التعظيمِ والعملِ ؛ لأنَّها وحىٌ من اللهِ تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣، ٤] .

فلا يجوزُ التشكيكُ فيها ، والتقليلُ من شأنِها ، أو الكلامُ فيها بتصحيحٍ ، أو تضعيفٍ لطُرُقِها وأسانيدِها ، أو شرحٍ لمعانيها إلَّا بعلمٍ وتَحَفُّظٍ .

وقد كثُر فى هذا الزمانِ تطاوُلُ الجهالِ على سنةِ الرسولِ ﷺ ، خصوصًا من بعضِ الشبابِ الناشئين الذين لا يَزالون فى المراحلِ الأولَى من التعليمِ ، وصارُوا يُصَحِّحُون ، ويُضَعِّفُون فى الأحاديثِ ، ويُجَرِّحُون فى الرُّواةِ بغيرِ علمٍ سوى قراءةِ الكتبِ .

وهذا خطرٌ عظيمٌ عليهم وعلى الأمةِ ، فيَجِبُ عليهم أنْ يَتَّقُوا اللهَ ، ويَقِفُوا عند حدِّهم .

الفصلُ الثانى :
فى وجوبِ طاعتِه ﷺ ، والاقتداءِ به

تَجِبُ طاعةُ النبيِّ ﷺ بفعلِ ما أمَر به ، وتركِ ما نهَى عنه ، وهذا من مُقْتَضَى شهادةِ أنَّه رسولُ اللهِ ، وقد أمَر اللهُ تعالى بطاعتِه فى آياتٍ كثيرةٍ ، تارةً مقرونةً مع طاعةِ اللهِ ، كما فى قولِه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] . وأمثالِها من الآياتِ .

وتارةً يَأمرُ بها مُفْرَدةً ، كما فى قولِه : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور : ٥٦] .

وتارةً يَتَوَعَّدُ مَن عصَى رسولَه ﷺ ، كما فى قولِه تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

أى : تُصِيبَهم فتنةٌ فى قلوبِهم من كفرٍ ، أو نفاقٍ ، أو بدعةٍ ، أو عذابٍ أليمٍ فى الدنيا بقتلٍ ، أو حدٍّ ، أو حبسٍ ، أو غيرِ ذلك من العقوباتِ العاجلةِ .

وقَدْ جعَل اللهُ طاعتَه واتباعَه سببًا لنيلِ محبةِ اللهِ للعبدِ ومغفرةِ ذنوبِه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وجعَل طاعتَه هدايةً ومعصيتَه ضلالًا ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وأخبَر سبحانَه وتعالى أنَّ فيه القدوةَ الحسنةَ لأمتِه ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

قال ابنُ كثيرٍ رحِمه اللهُ تعالى : هذه الآيةُ الكريمةُ أصلٌ كبيرٌ فى التَّأَسِّى برسولِ اللهِ ﷺ فى أقوالِه ، وأفعالِه ، وأحوالِه ؛ ولهذا أمَر تبارَك وتعالى الناسَ بالتَّأَسِّى بالنبىِّ ﷺ يومَ الأحزابِ فى صبرِه ومصابرتِه ، ومرابطتِه ، ومجاهدتِه ، وانتظارِه الفرجَ من ربِّه عزَّ وجلَّ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه دائمًا إلى يومِ الدينِ[1]. اهـ

وقد كرَّر اللهُ طاعةَ الرسولِ واتِّباعَه فى نحوِ أربعينَ موضعًا من القرآنِ ، فالنفوسُ أحوجُ إلى معرفةِ ما جاء به واتِّباعِه منها إلى الطعامِ والشرابِ ؛ فإنَّ الطعامَ والشرابَ إذا فات الحصولُ عليهما حصَل الموتُ فى الدينا ، وطاعةُ الرسولِ واتِّباعُه إذا فات الحصولُ عليها حصَل العذابُ والشقاءُ الدائمُ فى الآخرةِ .

وقد أمَر ﷺ بالاقتداءِ به فى أداءِ العباداتِ ، وأن تُؤَدَّى على الكيفيةِ

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٥ .

التى كان يُؤَدِّيها بها ، فقال ﷺ: « صَلُّوا كما رأيْتُمُونِى أُصَلِّى »[1] ، وقال : « خُذُوا عنِّى مناسِكَكم »[2] .

وقال : « مَن عمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ »[3] ، وقال : « مَن رغِب عن سنتى فليس منى »[4] ، إلى غيرِ ذلك من النصوصِ التى فيها الأمرُ بالاقتداءِ به ، والنهىُ عن مخالفتِه .

* * *

(١) رواه أحمد ٥/٥٣ (٢٠٤٠٩) ، والبخارى (٦٠٠٨، ٧٢٤٦) ، والدارمى فى سننه ١/ ٢٨٦ .

(٢) رواه أحمد ٣/ ٣٠١، ٣١٨، ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٧٨ (١٤١٥٣، ١٤٣٥٦، ١٤٤٨٩، ١٤٥٥٣، ١٤٩٨١) ، ومسلم ٢/٩٤٣ (١٢٩٧) ، وأبو داود (١٩٧٠) ، والنسائى (٣٠٦٢) ، وابن ماجه (٣٠٢٣) .

(٣) تقدم تخريجه ص١٩٣ .

(٤) تقدم تخريجه ص١٩٣ .

الفصلُ الثالثُ :

فى مشروعيـةِ الصلاةِ والسلامِ على الرسولِ ﷺ

من حقِّه الذى شرَع اللهُ له على أمتِه أن يُصَلُّوا ويُسَلِّمُوا عليه ، فقد قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

وقد ورَد أنَّ معنَى : صلاةِ اللهِ تعالى ثناؤُه عليه عندَ الملائكةِ ، وصلاةُ الملائكةِ الدعاءُ ، وصلاةُ الآدَمِيِّين الاستغفارُ[١].

وقد أخبَر اللهُ سبحانَه فى هذه الآيةِ عن منزلةِ عبدِه ونبيِّه عندَه فى الملأِ الأعلى بأنَّه يُثْنِى عليه عندَ الملائكةِ المُقرَّبين ، وأنَّ الملائكةَ تُصَلِّى عليه .

---

(١) روى البخارى تعليقًا فى تفسير سورة الأحزاب (باب إن اللَّه وملائكته يصلون على النبى) ، الفتح ٨/ ٥٣٢، ووصله القاضى إسماعيل بن إسحاق الجَهْضَمى فى (فضل الصلاة على النبى ﷺ) (٩٥) ، بإسنادٍ حسن – كما قال الشيخ الألبانى رحِمه اللَّهُ – عن أبى العالية رحِمه اللَّهُ أنه قال : صلاة اللَّه ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء .
وفى هذا الأثر : أن صلاة اللَّه على عبده ثناؤه عليه فى الملأ الأعلى ، والمراد بذلك أن اللَّه سبحانه يُبين صفات رسوله الكاملة عند الملائكة . وانظر الشرح الممتع ٥٢/٤ .
وأما من فسر صلاة اللَّه على عبده بالرحمة ، فقوله ضعيف ، قال ابن القيم رحِمه اللَّهُ فى بدائع الفوائد ١/ ٣٣: قولهم : والصلاة من اللَّه بمعنى الرحمة باطل من ثلاثة أوجه :
أحدها : أن اللَّه غايَرَ بينهما فى قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .
الثانى : أن سؤال الرحمة شُرع لكل مسلم ، والصلاة تختص بالنبى ﷺ ، وهى حق له ولآله ، وهذا منع كثير من العلماء من الصلاة على مُعَيَّن غيره ، ولم يمنع أحد من الترحم على معين .
الثالث : أن رحمة اللَّه عامة ، وسِعَت كل شيء ، وصلاته خاصة بخواصِّ عباده . اهـ

ثمَّ أمَر تعالى أهلَ العالمِ السُّفْلِيِّ بالصلاةِ والتسليمِ عليه ليَجْتَمِعَ الثناءُ عليه من أهلِ العالمِ العلويِّ والسُّفليِّ .

ومعنَى ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ؛ أى : حَيُّوه بتحيةِ الإسلامِ ، فإذَا صلَّى على النبيِّ ﷺ ، فلْيَجْمَعْ بينَ الصلاةِ والتسليمِ ، فلا يَقْتَصِرْ على أحدِهما ، فلا يقولُ : صلَّى اللهُ عليه فقط ، ولا يقولُ : عليه السلامُ فقط ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمَر بهما جميعًا .

وتُشْرَعُ الصلاةُ عليه ﷺ فى مواطنَ يَتَأَكَّدُ طلبُها فيها : إمَّا وجوبًا ، وإمَّا استحبابًا مُؤَكَّدًا .

وذكَر ابنُ القيمِ رحِمه اللهُ فى كتابِه « جَلاءِ الأفهامِ » واحدًا وأربعينَ موطنًا ، بدَأها بقولِه: الموطنُ الأولُ: وهو أهمُّها وآكَدُها فى الصلاةِ فى آخرِ التشهدِ ، وقد أجمَع المسلمون على مشروعيتِه واختلفوا فى وجوبِه فيها[(١)] .

ثمَّ ذكَر من المواطنِ آخِرَ القُنوتِ ، وفى الخطبِ كخطبةِ الجمعةِ والعِيدين والاستسقاءِ ، وبعدَ إجابةِ المُؤَذِّنِ ، وعندَ الدعاءِ ، وعندَ دخولِ المسجدِ والخروجِ منه ، وعندَ ذكرِه ﷺ .

ثمَّ ذكَر رحِمه اللهُ الثمراتِ الحاصلةَ من الصلاةِ على النبيِّ ﷺ ، فذكَر فيها أربعينَ فائدةً[(٢)] .

منها : امتثالُ أمرِ اللهِ سبحانَه بذلك .

---

(١) جلاء الأفهام ٢٢٢، ٢٢٣ .

(٢) جلاء الأفهام ص٣٠٢ .

ومنها : حصولُ عَشْرِ صلواتٍ من اللهِ على المُصَلِّى مرةً .

ومنها : رجاءُ إجابةِ الدعاءِ إذَا قَدَّمَها أمامَه .

ومنها :أنها سببٌ لشفاعتِه ﷺ ، إذا قرَنَها بسؤالِ الوسيلةِ له ﷺ.

ومنها :أنَّها سببٌ لغفرانِ الذنوبِ .

ومنها : أنَّها سببٌ لردِّ النَّبىِّ ﷺ على المُصَلِّى والمُسَلِّمِ عليه ، فصلواتُ اللهِ وسلامُه على هذا النبىِّ الكريمِ [1].

* * *

(١)وانظر فى فضل الصلاة على النبى ﷺ ومواطنها كتاب (القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع) للسخاوى ص٩٨- ١٣١، ١٦٥- ٤٣٥ .

الفصلُ الرابعُ :
فى فضلِ أهلِ البيتِ وما يَجِبُ لهم
من غيرِ جَفاءٍ ، ولا غُلُوٍّ

أهلُ البيتِ هم آلُ بيتِ النبيِّ ﷺ الذين حُرِّمَتْ عليهم الصدقةُ ، وهم آلُ عليٍّ ، وآلُ جعفرٍ ، وآلُ عَقِيلٍ ، وآلُ العباسِ ، وبنو الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ ، وأزواجُ النبيِّ ﷺ وبناتُه ؛ لقولِه تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحِمه اللهُ : ثمَّ الذى لا يَشُكُّ فيه مَن تَدَبَّرَ القرآنَ أنَّ نساءَ النبيِّ ﷺ داخلاتٌ فى قولِه : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٣] ؛ فإنَّ سياقَ الكلامِ معهن .

ولهذا قال بعدَ هذا كلِّه : ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب : ٣٤] ؛ أى : واعْمَلْنَ بما يُنزِلُ اللهُ تبارك وتعالى على رسولِه ﷺ فى بُيوتِكُنَّ من الكتابِ والسنةِ .

قال قتادةُ وغيرُ واحدٍ : واذكُرْنَ هذه النعمةَ التى خُصِّصْتُنَّ بها من بينِ الناسِ ؛ أنَّ الوحْيَ يَنزِلُ فى بُيوتِكُنَّ دونَ سائرِ الناسِ .

وعائشةُ الصديقةُ بنتُ الصديقِ رضِى اللهُ عنها أَوْلاهُنَّ بهذه النعمةِ ، وأَخَصُّهُنَّ من هذه الرحمةِ العميمةِ ؛ فإنَّه لم يَنْزِلْ على رسولِ اللهِ ﷺ الوحىُ فى فراشِ امرأةٍ سواها ، كما نصَّ على ذلك صلواتُ اللهُ وسلامُه

عليه[١] .

وقال بعضُ العلماءِ : لأنَّه لم يَتَزَوَّجْ بكرًا سواها[٢] ، ولم يَنَمْ معها رجلٌ فى فراشِها سواه ﷺ ، يريدُ أنَّها لم تَتَزَوَّجْ غيرَه .

فناسَب أن تُخَصَّصَ بهذهِ المَزِيَّةِ ، وأنْ تُفْرَدَ بهذِه المرتبةِ العَلِيَّةِ ، ولكن إذَا كان أزواجُه من أهلِ بيتِه فقَرابتُه أحقُّ بهذه التسميةِ . انتهى من تفسيرِ ابنِ كثيرٍ[٣] .

فأهلُ السنةِ والجماعةِ يُحِبُّون أهلَ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، ويَتَوَلَّونَهم ، ويَحْفَظون فيهم وصيةَ رسولِ اللهِ ﷺ حيثُ قال يومَ غَدِيرِ خُمٍّ (اسمِ موضعٍ) : « أُذَكِّرُكم اللهَ فى أهلِ بيتى »[٤] .

فأهلُ السنةِ يُحِبُّونهم ويُكْرِمُونهم ؛ لأنَّ ذلك من محبةِ النبىِّ ﷺ وإكرامِه ، وذلك شرطَ[٥] أن يَكونوا مُتَّبِعينَ للسنةِ ، مُستَقِيمين على المِلَّةِ ، كما كان عليه سلفُهم كالعباسِ وبَنِيه ، وعلىٍّ وبَنِيه .

---

(١) روى البخارى (٣٧٧٥) ، والترمذى (٣٨٧٩) ، والنسائى (٣٩٤٩، ٣٩٥٠) ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « يا أم سلمة ، لا تُؤْذِينى فى عائشة ؛ فإنه واللَّه ما أتانى الوحى فى لِحاف امرأة منكن إلا هى » .

(٢) روى البخارى (٤٧٣٥) ، عن ابن أبى مُلَيْكة ، أن ابن عباس رضى اللَّه عنهما قال لعائشة رضى اللَّه عنها قُبَيْلَ موتها : فأنت بخير إن شاء الله تعالى ، زوجة رسول اللَّه ﷺ ، ولم يَنْكِح بكرًا غيرَك ، ونزل عُذرُك من السماء ... الحديث .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٤٨٧ .

(٤) رواه أحمد ٤/٣٦٧ (١٩١٦٢) ، ومسلم ٤/١٨٧٣ (٢٤٠٨) .

(٥) كلمة « شرط » هنا منصوبةٌ بنزع الخافض ؛ إذ التقدير : وذلك بشرط . واللَّهُ أعلم .

أمَّا مَن خالَف السنةَ ، ولم يَستَقِمْ على الدينِ فإنَّه لا يَجوزُ موالاتُه ، ولو كان من أهلِ البيتِ .

فموقفُ أهلِ السنةِ والجماعةِ من أهلِ البيتِ موقفُ الاعتدالِ والإنصافِ ، يَتَوَلَّوْن أهلَ الدينِ والاستقامةِ منهم ، ويَتَبَرَّءُون ممَّن خالَف السنةَ ، وانحرَف عن الدينِ ، ولو كان من أهلِ البيتِ .

فإنَّ كونَه من أهلِ البيتِ ومن قرابةِ الرسولِ لا يَنْفَعُه شيئًا حتَّى يَسْتَقِيمَ على دينِ اللهِ .

فقد روَى أبو هريرةَ رضِى اللهُ عنه قال : قام رسولُ اللهِ ﷺ حينَ أُنزِلَ عليه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ، فقال : « يَا معشرَ قريشٍ – أو كلمةً نحوَها – اشْتَروا أنفسَكم ، لا أُغْنِى عنكم من اللهِ شيئًا ، يَا عباسَ بنَ عبدِ المطلبِ ، لا أُغنِى عنك من اللهِ شيئًا ، يَا صفيةُ عَمَّةَ رسولِ اللهِ ، لا أُغنِى عنك من اللهِ شيئًا ، ويا فاطمةَ بنتَ محمدٍ ، سَلِينى من مالِى مَا شئتِ ، لا أُغنِى عنك من اللهِ شيئًا »[1] .

والحديثُ : « مَن بطَّأ به عملُه لم يُسْرِعْ به نسبُه »[2].

---

(١) رواه البخارى (٤٧٧١) ، ومسلم ١/١٩٢ (٢٠٦) ، والترمذى (٢٣١٠) ، والنسائى (٣٦٤٨) .

قال النووى رحِمه اللَّهُ فى شرح مسلم ٢/ ٨٤: يجوز نصب « فاطمة وصفية[*] وعباس » ، وضمهم ، والنصب أفصح وأشهر ، وأما « بنت وابن » فمنصوب لا غير . اهـ

(٢) رواه أحمد ٢/ ٢٥٢، ٤٠٧ (٧٤٢١، ٩٢٤٥) ، ومسلم ٤/٢٠٧٤ (٢٦٩٩) ، =

(*) يعنى رحِمه اللَّهُ « صفية » فى الرواية التى فيها « يا صفية بنتَ عبد المطلب » ، أما فى الرواية التى معنا فليس فيها إلا الضم ؛ لأنها منادى عَلَمٌ مُفْرَد ، فتُبْنَى على الضم . واللَّه أعلم .

ويَتَبَرَّأُ أهلُ السنةِ والجماعةِ من طريقةِ الروافضِ[١] الذين يَغلُون فى بعضِ أهلِ البيتِ ، ويَدَّعُون لهم العصمةَ ، ومن طريقةِ النواصبِ[٢] الذين يَنصِبون العداوةَ لأهلِ البيتِ المُستَقِيمين ويَطْعَنون فيهم .

ومن طريقةِ المبتدعةِ والخُرافِيِّين الذين يَتَوَسَّلُون بأهلِ البيتِ ، ويَتَّخِذُونهم أربابًا من دونِ اللهِ .

فأهلُ السنةِ فى هذا البابِ وغيرِه على النَّهْجِ المعتدلِ ، والصراطِ المستقيمِ الذى لا إفراطَ فيه ، ولا تفريطَ ، ولا جَفاءَ ، ولا غُلُوَّ فى حقِّ أهلِ البيتِ وغيرِهم .

وأهلُ البيتِ المُسْتَقِيمون يُنْكِرون الغُلُوَّ فيهم ، ويَتَبَرَّءُون من الغلاةِ ،

= والترمذى (٢٩٤٥) ، وابن ماجه (٢٢٥) ، وابن أبى شيبة فى مصنفه ٨/ ٧٢٩، والدارمى ١/ ٩٩، والبغوى (١٢٧، ١٣٠) ، وصححه ابن حبان (٨٤، ٥٣٤، ٥٠٤٥) .

(١) قد تقدمت ترجمة الروافض ص٩٢ .

(٢) النواصب هم الذين يَنصِبون العداء لآل البيت ، ويَقْدَحون فيهم ، ويسبونهم ، فهم على النقيض من الروافض .

فهم قد قابلوا بدعة الروافض ببدعة ؛ إذ إنهم لَمَّا رَأَوْا الرافضة يَغْلُون فى آل البيت ، قالوا : إذًا نَبْغَض آل البيت ، ونَسُبّهم ؛ مقابلة لهؤلاء فى الغلو فى محبتهم والثناء عليهم .

ومن ذلك تبرُّؤهم من على ، بل قد يكفرونه أو يُفَسّقونه ، كالخوارج .

وأيضًا لما قال لهم الحسين : أَمَا تَعْلَمون أنى ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ . قالوا : واللَّه ما نعلم ذلك .

وهذا لا يقوله أحد ، ولا يجحد نسب الحسين إلا مُتَعَمّد للكذب والافتراء ، ومن أعمى الله بصيرته باتباع هواه حتى يخفى عليه مثل هذا ؛ فإن عين الهوى عمياء .

فقد حرَّق أميرُ المؤمنين عليٌّ بنُ أبى طالبٍ رضِى اللهُ عنه الغُلاةَ الذين غَلَوْا فيه بالنارِ .

وأقَرَّه ابنُ عباسٍ رضِى اللهُ عَنْهُ على قتلِهم ، لكن يرَى قتلَهم بالسيفِ بدلًا من التحريقِ ، وطلَب عليٌّ رضِى اللهُ عنه عبدَ اللهِ بنَ سبأٍ رأسَ الغُلاةِ ليَقتُلَه ، لكنَّه هرَب واختفَى[1].

* * *

---

(١) البخارى (٣٠١٧، ٦٩٢٢) ، وابن ماجه (٢٥٣٥) ، والنسائى (٤٠٦٠) ، والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/ ٦٧، ٢٠٢، ٨/ ١٩٥، وابن حبان (٤٤٧٦، ٥٦٠٦) ، والحميدى (٥٣٣) ، والحاكم فى المستدرك ٣/ ٥٣٨، وانظر طبقات المحدثين بأصبهان ٢/ ٣٤٣، والبدء والتاريخ ٥/١٢٥ .

الفصلُ الخامسُ :
فى فضلِ الصحابةِ وما يَجِبُ اعتقادُه فيهم ،
ومذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فيما حدَث بينَهم

١- مَا المرادُ بالصحابةِ ؟ وما الذى يَجِبُ اعتقادُه فيهم ؟

الصحابةُ جمعُ صحابيٍّ : وهو مَن لَقِىَ النبىَّ ﷺ مؤمنًا به ، ومات على ذلك ، والذى يَجِبُ اعتقادُه فيهم أنَّهم أفضلُ الأمةِ ، وخيرُ القرونِ لسَبْقِهم واختصاصِهم بصحبةِ النبىِّ ﷺ والجهادِ معه ، وتَحَمُّلِ الشريعةِ عنه ، وتبليغِها لمن بعدَهم .

وقَدْ أثنَى اللهُ عليهم في مُحكَمِ كتابِه ، قال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ

وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٨، ٩] .

ففى هذه الآياتِ أنَّ اللهَ سبحانَه أثنَى على المهاجرين والأنصارِ ، ووصَفهم بالسَّبْقِ إلى الخيراتِ ، وأخبَر أنَّه قد رضِى عنهم ، وأعدَّ لهم الجناتِ ، ووصَفهم بالتراحُمِ فيما بينَهم ، والشدةِ على الكفارِ .

ووصَفهم بكثرةِ الركوعِ والسجودِ ، وصلاحِ القلوبِ ، وأنَّهم يُعْرفون بسِيما الطاعةِ والإيمانِ ، وأنَّ اللهَ اختارَهم لصحبةِ نبيِّه ؛ ليغيظَ بهم أعداءَه الكفارَ .

كما وصَف المهاجرين بتركِ أوطانِهم وأموالِهم من أجلِ اللهِ ، ونصرةِ دينِه ، وابتغاءِ فضلِه ورضوانِه ، وأنَّهم صادِقون فى ذلك .

ووصَف الأنصارَ بأنَّهم أهلُ دارِ الهجرةِ والنصرةِ والإيمانِ الصادقِ، ووصَفهم بمحبةِ إخوانِهم المهاجرين وإيثارِهم على أنفسِهم ومواساتِهم لهم وسلامتِهم من الشُّحِّ، وبذلك حازُوا على الفلاحِ .

هذه بَعْضُ فضائِلِهم العامةِ ، وهناك فضائلُ خاصةٌ ، ومراتبُ يَفْضُلُ بها بعضُهم بَعْضًا ، رضِى اللهُ عنهم ، وذلك بحسَبِ سبقِهم إلى الإسلامِ والجهادِ والهجرةِ .

فأفضلُ الصحابةِ الخلفاءُ الأربعةُ : أبو بكرٍ ، وعمرُ ، وعثمانُ ، وعلىٌّ ،

ثمَّ بقيةُ العشرةِ المبشَرين بالجنةِ ، وهم : هؤلاء الأربعةُ ، وطلحةُ ، والزبيرُ ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ ، وأبو عبيدةَ بنُ الجَرَّاحِ ، وسعدُ بنُ أبي وقاصٍ ، وسعيدُ بنُ زيدٍ (١).

ويَفْضُلُ المهاجرون على الأنصارِ ، وأهلُ بدرٍ (٢) وأهلُ الرضوانِ (٣)، ويَفضلُ مَن أسلَم قبلَ الفتحِ وقاتَل على مَن أسلَم بعدَ الفتحِ (٤).

---

(١) روى أحمد في مسنده ١/١٨٨ (١٦٣١) ، وأبو داود (٤٦٤٩) ، والترمذى (٣٧٤٨) ، وابن ماجه (١٣٣) ، والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٤٠، وابن أبى عاصم في السنة (١٤٢٨) ، وقال الشيخ الألباني في تعليقه على السنن : صحيح ، عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عشرة في الجنة : النبي في الجنة ، وأبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلى في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير ابن العوام في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة » ، ولو شئت لسميت العاشر ، قال : فقالوا : من هو ؟ فسكت ، قال : فقالوا : مَن هو ؟ قال : هو سعيد بن زيد .

(٢) روى البخارى (٣٠٠٧، ٣٠٨١، ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩) ، ومسلم ٤/١٩٤١ (٢٤٩٤) ، عن على رضى الله عنه ، في قصة حاطب بن أبى بَلْتَعة ، وفيه أن النبي ﷺ قال : « لعل الله اطَّلَع على أهل بدرٍ ، فَقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

(٣) روى مسلم في صحيحه ٤/١٩٤٢ (٢٤٩٦) عن جابر بن عبد الله قال : أخبرتني أم مُبَشِّر ، أنها سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يدخل النار ، إن شاء الله ، من أصحاب الشجرة ، أحد ، الذين بايعوا تحتها » .

(٤) قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

٢ – مذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فيما حدَث بينَ الصحابةِ من القتالِ والفتنةِ :

سببُ الفتنةِ : تآمَر اليهودُ على الإسلامِ وأهلِه ، فدَسُّوا ماكرًا خبيثًا تَظاهَرَ بالإسلام كذبًا وزُورًا ، هو عبدُ اللهِ بنُ سبأٍ من يهودِ اليمنِ ، فأخَذ هذا اليهودِيُّ يَنفُثُ حقدَه وسمومَه ضدَّ الخليفةِ الثالثِ من الخلفاءِ الراشدين ؛ عثمانَ بنِ عفانَ رضِى اللهُ عَنْهُ وأرضَاه ، ويَخْتَلِقُ التُّهَمَ ضدَّه .

فالتَفَّ حولَه مَن انْخَدَع به من قاصرِى النظرِ وضعافِ الإيمانِ ومُحِبِّى الفتنةِ ، وانتهتِ المؤامرةُ بقتلِ الخليفةِ الراشدِ عثمانَ رضِى اللهُ عَنْهُ مظلومًا .

وعلى إثرِ مقتلِه حصَل الاختلافُ بينَ المسلمين ، وشبَّتِ الفتنةُ بتحريضٍ من اليهودىِّ وأتباعِه ، وحصَل القتالُ بينَ الصحابةِ عن اجتهادٍ منهم .

قال شارحُ الطحاويـةِ : لأنَّ أصلَ الرفضِ إنَّما أحدَثه منافقٌ زِنْدِيقٌ ، قصدُه إبطالُ دينِ الإسلامِ والقدحُ فى الرسولِ ﷺ ، كما ذكَر ذلك العلماءُ .

فإنَّ عبدَ اللهِ بنَ سبأٍ لمَّا أظهَر الإسلامَ أراد أن يُفْسِدَ دينَ الإسلامِ بمكرِه وخبثِه ، كما فعَل بُولَسُ بدينِ النصرانيةِ ، فأظهَر التَّنَسُّكَ، ثمَّ أظهَر الأمرَ بالمعروفِ والنَّهىَ عن المنكرِ حتى سعَى فى فتنةِ عثمانَ وقتلِه .

ثمَّ لما قدِم على الكوفةِ أظهَر الغُلُوَّ فى علىٍّ والنصرَ له ؛ ليَتَمَكَّنَ بذلك من أغراضِه ، وبلَغ ذلك عليًّا ، فطلَب قتلَه ، فهرَب إلى قرقيسَ ، وخبرُه

معروفٌ فى التاريخ[١] .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحِمه اللهُ : فلمَّا قُتِلَ عثمانُ رضِى اللهُ عَنْهُ تفرَّقَتِ القلوبُ ، وعَظُمَتِ الكُرُوبُ ، وظهَر الأشرارُ وذلَّ الأخيارُ ، وسعَى فى الفتنةِ مَن كان عاجزًا عنها ، وعجَز عن الخيرِ والصلاحِ مَن كان يُحِبُّ إقامتَه .

فبايَعُوا أميرَ المؤمنين عليَّ بنَ أبى طالبٍ رضِى اللهُ عنه ، وهو أحقُّ الناسِ بالخلافةِ حينَئذٍ ، وأفضلُ مَن بَقِى ، لكن كانت القلوبُ متفرقةً ، ونارُ الفتنةِ مُتَوَقِّدَةً ، فلم تتَّفِقِ الكلمةُ ، ولم تنتَظِمِ الجماعةُ ، ولم يَتَمَكَّنِ الخليفةُ وخيارُ الأمةِ من كلِّ ما يُريدونه من الخيرِ ، ودخَل فى الفُرْقَةِ والفتنةِ أقوامٌ ، وكان ما كان[٢] .

وقال أيضًا مُبيِّنًا عذرَ المُتقاتِلين من الصحابةِ فى قتالِ عليٍّ ومعاويةَ : ومعاويةُ لم يَدَّعِ الخلافةَ ، ولم يُبايَعْ له بها حينَ قاتَل عليًّا ، ولم يُقاتِلْ على أنَّه خليفةٌ ، ولا أنَّه يَسْتَحِقُّ الخلافةَ ، ويُقِرُّونَ له بذلكَ .

وقد كان معاويةُ يُقِرُّ بذلك لمن سأله عنه ، ولا كان معاويةُ وأصحابُه يَرَوْن أن يَبْتَدِئُوا عليًّا وأصحابَه بالقتالِ ، ولا يَعْلُو ، بل لمَّا رأى عليٌّ رضِى اللَّهُ عنه وأصحابُه أنَّه يَجِبُ عليهم طاعتُه ، ومبايعتُه ؛ إذ لا يكونُ للمسلمين إلَّا خليفةٌ واحدٌ ، وأنَّهم خارِجون عن طاعتِه يَمْتَنِعون عن هذا الواجبِ ، وهم أهلُ شَوْكةٍ ، رأى أن يُقاتِلَهم حتى يُؤَدُّوا هذا الواجبَ ،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص٤٩٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٥/ ٣٠٤، ٣٠٥ .

فتَحصُلُ الطاعةُ والجماعةُ .

وهم ؛ (أى : معاويةُ ومَن معه) قالُوا : إنَّ ذلك لا يَجِبُ عليهم ؛ لأنهم إذا قُوتِلوا على ذلك كانوا مَظلومين ، قالُوا : لأنَّ عثمانَ قُتِلَ مظلومًا باتفاقِ المسلمين ، وقَتَلَتُه فى عَسْكَرِ عليٍّ ، وهم غالِبون لهم شَوْكةٌ ، فإذَا امْتَنَعْنا ظلَمونا ، واعتَدَوا علينا ، وعليٌّ لا يُمكِنُه دفعُهم ، كما لم يُمْكِنْه الدفعُ عن عثمانَ ، وإنَّما علينا أن نُبايِعَ خليفةً يَقْدِرُ على أن يُنْصِفَنا ، ويَبذُلَ لنا الإنصافَ[1] .

ومذهبُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى الاختلافِ الذى حصَل والفتنةِ التى وَقَعَتْ من جَرَّائِها الحروبُ بينَ الصحابةِ يَتَلَخَّصُ فى أمرين :

الأمرُ الأولُ : أنَّهم يُمْسِكُون عن الكلامِ فيما حصَل بينَ الصحابةِ ، ويَكُفُّون عن البحثِ فيه ؛ لأنَّ طريقَ السلامةِ هو السكوتُ عن مثلِ هذا .

ويقولون : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

الأمرُ الثاني: الإجابةُ عن الآثارِ المرويةِ فى مساوئِهم، وذلك من وجوهٍ :

الوجهُ الأولُ : أنَّ هذه الآثارَ منها ما هو كذبٌ قد افتراه أعداؤُهم ليُشَوِّهُوا سُمْعَتَهم .

الوجهُ الثانى : أنَّ هذه الآثارَ منها ما قد زِيدَ ونُقِصَ فيه ، وغُيِّرَ عن

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٧٢، ٧٣ .

وجهِهِ الصحيحِ ودخَله الكذبُ ، فهو مُحرَّفٌ لا يُلْتَفَتُ إليه .

الوجهُ الثالثُ : أنَّ ما صحَّ من هذه الآثارِ ، وهو القليلُ ، هم فيه مَعْذُورون ؛ لأنَّهم إمَّا مُجتهدون مُصِيبون ، وإمَّا مُجْتَهِدُون مُخْطِئُون .

فهو من مواردِ الاجتهادِ الذى إذَا أصاب المجتهدُ فيه فله أجران ، وإنْ أخطَأ فله أجرٌ واحدٌ ، والخطأُ مغفورٌ ؛ لما فى الحديثِ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إذَا اجتَهد الحاكمُ فأصابَ فله أجرانِ ، وإنِ اجتَهَد فأخطأَ فله أجرٌ واحدٌ »[(١)] .

الوجهُ الرابعُ : أنهم بشرٌ يَجوزُ على أفرادِهم الخطأُ ، فهم ليسوا مَعصومين من الذنوبِ بالنسبةِ للأفرادِ ، لكن ما يَقَعُ منهم فله مُكَفِّراتٌ عديدةٌ منها :

١ - أن يكونَ قد تاب منه ، والتوبةُ تَمْحُو السيئةَ مهما كانت ، كما جاءت به الأدلةُ .

٢ - أنَّ لهم من السوابقِ والفضائلِ ما يُوجِبُ مغفرةَ ما صدَر منهم إنْ صدَر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤] .

٣ - أنَّهم تُضاعَفُ لهم الحسناتُ أكثرَ من غيرِهم ، ولا يُساوِيهم أحدٌ فى الفضلِ ، وقَدْ ثبَت بقولِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهم خيرُ القرونِ[(٢)] ، وأنَّ المُدَّ من أحدِهم إذَا تَصَدَّقَ به أفضلُ من جبلِ أحدٍ ذهبًا إذَا تَصَدَّقَ به

---

(١) رواه أحمد ٤/ ١٩٨، ٢٠٤ (١٧٧٠٢، ١٧٧٤٣، ١٧٧٤٨) ، والبخارى (٧٣٥٢) ، ومسلم ٣/١٣٤٣ (١٧١٦) ، وابن الجارود (٩٩٦) ، وابن حبان (٥٠٦٠) .

(٢) سيأتى تخريجه قريبًا إن شاء الله ص٣٤٦ .

غيرُهم[١]، رضِى اللَّهُ عنهم ، وأرضاهم .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحِمه اللهُ : وسائرُ أهلِ السنةِ والجماعةِ وأئمَّةِ الدينِ لا يَعتَقِدون عصمةَ أحدٍ من الصحابةِ ، ولا القرابةِ ، ولا السابقين ، ولا غيرِهم ، بل يَجوزُ عندَهم وقوعُ الذنوبِ منهم ، واللهُ تعالى يَغْفِرُ لهم بالتوبةِ ، ويَرْفَعُ لهم درجاتِهم ، ويَغْفِرُ لهم بحسناتٍ ماحيةٍ ، أو بغيرِ ذلك من الأسبابِ .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣ - ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأحقاف : ١٥، ١٦] . انتهى[٢].

وقد اتَّخَذ أعداءُ اللهِ ما وقَع بينَ الصحابةِ وقتَ الفتنةِ من الاختلافِ والاقتتالِ سببًا للوقيعةِ بهم ، والنيلِ من كرامتِهم .

وقد جرَى على هذا المُخَطَّطِ الخبيثِ بَعْضُ الكتابِ المُعاصِرين

(١) سيأتى تخريجه قريبًا إن شاء الله ص٣٤٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥/٦٩ .

الذين يَهْرِفون بما لا يَعْرِفون ، فجعَلوا أنفسَهم حَكَمًا بينَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، يُصَوِّبُون بعضَهم ، ويُخَطِّئُون بعضَهم بلا دليلٍ ، بل بالجهلِ واتباعِ الهوَى ، وترديدِ ما يَقولُه المُغْرِضون والحاقِدون من المُسْتَشْرِقِين وأذنابِهم .

حتَّى شكَّكوا بعضَ ناشئةِ المسلمين ممَّن ثقافتُهم ضَحْلةٌ بتاريخِ أمتِهم المجيدةِ ، وسلفِهم الصالحِ ، الذين هم خيرُ القرونِ ، ليَنْفُذُوا بالتالى إلى الطعنِ فى الإسلامِ ، وتَفريقِ كلمةِ المسلمين ، وإلقاءِ البُغْضِ فى قلوبِ آخرِ هذه الأمةِ لأوَّلِها .

بدلًا من الاقتداءِ بالسلفِ الصالحِ ، والعملِ بقولِهِ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

* * *

الفصلُ السادسُ :
فى النَّهىِ عن سب الصحابةِ وأئمَّةِ الهُدَى

١ – النهىُ عن سبِّ الصحابةِ :

من أصولِ أهلِ السنةِ والجماعةِ سلامةُ قلوبهم وألسنتِهم لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، كما وصَفهم اللهُ بذلك فى قولِه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

وطاعةً لرسولِ اللهِ ﷺ فى قولِه : « لا تَسُبُّوا أصحابِى ، فوالذى نفسِى بيدِهِ لو أنفَق أحدُكم مثلَ أحدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحدِهم ، ولا نَصِيفَه »[1].

ويَتَبَرَّءُون من طريقةِ الرافضةِ والخوارجِ الذين يَسُبُّون الصحابةَ

---

(١) رواه البخارى (٣٦٧٣) ، ومسلم ٤/١٩٦٧ (٢٥٤٠) ، وأبو داود (٤٦٥٨) ، والترمذى (٣٨٦١) ، وابن ماجه (١٦١) .

وفى رواية لمسلم ٤/١٩٦٧ (٢٥٤١) عن أبى سعيد قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شىء ، فسبه خالد ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لا تسبوا أصحابى ...» الحديث .

قال شارح الطحاوية ص٤٦٨ مُعَلِّقًا على هذا الحديث : والمقصود أنه نهى من له صحبة آخِرًا أن يَسُبَّ مَن له صحبةٌ أولًا ؛ لامتيازهم عنهم من الصحبة ، بما لا يمكن أن يَشْرَكوهم فيه ، حتى لو أنفق أحدهم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه .

فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحُدَيْبِيَة ، وإن كان قبل فتح مكة ، فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضى اللّه عنهم أجمعين ؟ ! اهـ

رضِى اللَّهُ عنهم ، ويَبْغَضونهم ويَجْحَدُون فضائلَهم ، ويُكَفِّرُون أكثرَهم .

وأهلُ السنةِ يَقْبَلُون ما جاءَ فى الكتابِ والسنةِ من فضائِلِهم ، ويَعْتَقِدُون أنَّهم خيرُ القرونِ ، كما قال النبيُّ ﷺ : « خيرُكم قرنِى » الحديثَ[1] .

ولمَّا ذكَر ﷺ افتراقَ الأمةِ إلى ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً ، وأنَّها فى النارِ إلَّا واحدةً ، وسأَلُوه عن تلك الواحدةِ قال : « هم مَن كان على مثلِ ما أنا عليه اليومَ وأصحابِى »[2] .

قال أبو زُرْعةَ ، وهو أجلُّ شيوخِ الإمامِ مسلمٍ : إذا رأيْتَ الرجلَ يَنْتَقِصُ امْرَأً من الصحابةِ فاعْلَمْ أنَّه زنديقٌ ؛ وذلك أنَّ القرآنَ حقٌّ ، والرسولَ حقٌّ ، وما جاء به حقٌّ ، وما أدَّى إلينا ذلك كلَّه إلَّا الصحابةُ ، فمن جرَّحهم إنَّما أرادَ إبطالَ الكتابِ والسنةِ ، فيكونُ الجرحُ به أليقَ ، والحكمُ عليه بالزندقةِ والضلالِ أقومَ وأحقَّ .

قال العلامةُ ابنُ حَمْدانَ فى نهايةِ المُبْتَدِئين : مَن سبَّ أحدًا من الصحابةِ مُسْتَحِلًّا كفَر ، وإن لم يَسْتَحِلَّ فسَق ، وعنه يَكْفُرُ مُطلقًا ، ومَن فسَّقَهم ، أو طعَن فى دينِهم ، أو كفَّرهم كفَر[3] . اهـ

---

(١) رواه البخارى (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥) ، ومسلم ٤/١٩٦٤ (٢٥٣٥) ، والترمذى (٣٨٥٩) ، وابن ماجه (٢٣٦٢) .

(٢) تقدم تخريجه ص١٣٩ .

(٣) شرح عقيدة السفارينى ٢/ ٣٨٨، ٣٨٩ .

٢ - النَّهيُ عن سبِّ أئمةِ الهدَى من علماءِ هذه الأمةِ :

يَلِى الصحابةَ فى الفضيلةِ والكرامةِ والمنزلةِ أئمةُ الهدَى من التابعين وأتباعِهم من القرونِ المُفَضَّلةِ ، ومَن جاء بعدَهم ممَّن تبِع الصحابةَ بإحسانٍ ، كما قال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

فلا يجوزُ تَنَقُّصُهم وسبُّهم ؛ لأنَّهم أعلامُ هدًى ، فقَدْ قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء : ١١٥] .

قال شارحُ الطحاويةِ : فيَجِبُ على كلِّ مسلمٍ بعدَ موالاةِ اللهِ ورسولِه مُوالاةُ المؤمنين ، كما نطَق به القرآنُ ، خصوصًا الذين هم ورثةُ الأنبياءِ الذين جعَلهم اللهُ بمنزلةِ النجومِ يُهْتَدَى بهم فى ظلماتِ البرِّ والبحرِ .

وقَدْ أجمَع المسلمون على هدايتِهم ودِرايتِهم ؛ فإنَّهم خلفاءُ الرسولِ فى أمتِه ، والمُحْيُون لما مات من سنتِه ، فبهم قام الكتابُ ، وبه قامُوا ، وبهم نطَق الكتابُ ، وبه نطَقوا .

وكلُّهم مُتَّفِقُون اتفاقًا يقينًا على وجوبِ اتباعِ الرسولِ ﷺ ، ولكن إذا وُجِدَ لواحدٍ منهم قولٌ قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافِه فلابدَّ له فى تركِه من عذرٍ[1] .

---

(١) تقدم ذكر طرفٍ من أقوال الأئمة فى ذلك ص٢٧٦ .

وجِماعُ الأعذارِ ثلاثةُ أصنافٍ :

أحدُها : عدمُ اعتقادِه أنَّ النبيَّ ﷺ قاله .

الثاني : اعتقادُه أنَّه ما أراد تلك المسألةَ بذلك القولِ .

الثالثُ : اعتقادُه أنَّ الحُكْمَ منسوخٌ .

لهم الفضلُ علينا ، والمنةُ بالسبقِ ، وتَبليغِ ما أُرْسِلَ به الرسولُ ﷺ إلينا ، وإيضاحِ ما كان منه يَخْفَى علينا ، فرضِى اللهُ عنهم وأرضاهم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] . اهـ(١)

والحطُّ من قدرِ العلماءِ بسببِ وقوعِ الخطأِ الاجتهاديِّ من بعضِهم هو من طريقةِ المُبْتَدِعةِ ، ومن مُخَطَّطَاتِ أعداءِ الأمةِ ؛ للتشكيكِ فى دينِ الإسلامِ ، ولإيقاعِ العداوةِ بينَ المسلمين ، ولأجلِ فصلِ خَلَفِ الأمةِ عن سَلَفِها ، وبثِّ الفُرْقةِ بينَ الشبابِ والعلماءِ ، كما هو الواقعُ الآنَ .

فلْيَتَنَبَّهْ لذلك بَعْضُ الطلبةِ المُبْتَدِئِين الذين يَحُطُّون من قدرِ العلماءِ والفقهاءِ ، ومن قدرِ الفقهِ الإسلاميِّ ، ويُزَهِّدُون فى دراستِه والانتفاعِ بما فيه من حقٍّ وصوابٍ .

* * *

فليَعْتَزُّوا بفِقْهِهم ولْيَحْتَرِمُوا علماءَهم ، ولا يَنْخَدِعوا بالدِّعاياتِ المُضَلِّلَةِ والمُغْرِضةِ ، واللهُ الموفِّقُ .

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٤٩١، ٤٩٢ .

البابُ السادس

البدعة

ويتضمن الفصول التالية :

الفصل الأول : تعريف البدعة ؛ أنواعها ، أحكامها .

الفصلُ الثانى : ظهور البدعة فى حياة المسلمين ، والأسبابُ التى أدت إليها .

الفصل الثالث : موقف الأمة الإسلامية من المبتدعة ، ومنهج أهل السنة والجماعة فى الرد عليهم .

الفصل الرابع : فى الكلام على نماذج من البدع المعاصرة وهى :

١- الاحتفال بالمولد النبوى .

٢- التبرك بالأماكن والآثار ونحو ذلك .

٣- البدع فى مجال العبادات والتقرب إلى الله .

* * *

الفصلُ الأولُ :

تعريفُ البِدْعةِ :

أنواعُها ، وأحكامُها

تعريفُها :

البدعةُ فى اللغةِ : مأخوذةٌ من البَدْعِ ، وهو الاختراعُ على غيرِ مثالٍ سابقٍ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٧] . أى : مُخْتَرِعُها على غيرِ مثالٍ سابقٍ .

وقولُه تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٩] . أى : ما كُنْتُ أولَ مَن جاء بالرّسالةِ مِن اللَّهِ إلى العبادِ ، بل تَقَدَّمَنى كثيرٌ من الرّسلِ .

ويقالُ : ابْتَدَع فلانٌ بِدْعةً ؛ يعنى : ابْتَدَأ طريقةً ، لم يُسْبَقْ إليها .

والابتداعُ على قسمين :

ابتداعٌ فى العاداتِ ؛ كابتداعِ المُخْتَرَعاتِ الحديثةِ ، وهذا مُباحٌ ؛ لأنَّ الأصلَ فى العاداتِ الإباحةُ .

وابتداعٌ فى الدِّينِ ، وهذا مُحَرَّمٌ ؛ لأنَّ الأصلَ فيه التوقيفُ ، قال ﷺ : « مَن أحدَث فى أمرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ »[1] . وفى روايةٍ : « مَن عَمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ »[2] .

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٨٢ .

(٢) تقدم تخريجه ص١٩٣ .

أنواعُ البدعِ :

البِدْعةُ فى الدِّينِ نوعان :

النوعُ الأولُ : بدعةٌ قوليّةٌ اعتقاديةٌ ؛ كمقالاتِ الجهميّةِ[1] والمعتزلةِ والرافضةِ[2] وسائرِ الفرَقِ الضّالةِ واعتقاداتِهم .

النوعُ الثانى : بدعةٌ فى العباداتِ ، كالتعبُّدِ للهِ بعبادةٍ لم يَشْرَعْها ، وهى أنواعٌ :

النوعُ الأولُ : ما يكونُ فى أصلِ العبادةِ ، بأن يُحْدِثَ عِبادةً ، ليس لها أصلٌ فى الشَّرْعِ ، كأن يُحْدِثَ صلاةً غيرَ مشروعةٍ ، أو صيامًا غيرَ مشروعٍ ، أو أعيادًا غيرَ مشروعةٍ ، كأعيادِ المَولدِ وغيرِها .

النوعُ الثانى : ما يكونُ فى الزِّيادةِ على العبادةِ المشروعةِ ، كما لو زاد ركعةً خامسةً فى صلاةِ الظُّهرِ ، أو العصرِ مثلًا .

النوعُ الثالثُ : ما يكونُ فى صفةِ أداءِ العبادةِ بأن يُؤَدِّيَها على صفةٍ غيرِ مشروعةٍ ، وذلك كأداءِ الأذكارِ المشروعةِ بأصواتٍ جَماعيَّةٍ مُطْرِبةٍ ، وكالتّشديدِ على النَّفسِ فى العباداتِ إلى حَدٍّ ، يَخْرُجُ عن سنةِ الرسولِ ﷺ .

النوعُ الرابعُ : ما يكونُ بتَخْصيصِ وقتٍ للعبادةِ المشروعةِ ، لم يُخَصِّصْه الشَّرعُ ، كتَخصيصِ يومِ النصفِ مِن شعبانَ ، وليلتِه بصيامٍ

---

(١) تقدمت ترجمة الجهمية ص٣٦، ٣٧ .

(٢) تقدمت ترجمة الروافض .

وقيامٍ ؛ فإنَّ أَصلَ الصِّيامِ والقيامِ مشروعٌ ، ولكنَّ تخصيصَه بوقتٍ من الأوقاتِ يَحْتاجُ إلى دليلٍ .

حكمُ البِدعةِ فى الدينِ بجَميعِ أنواعِها :

كلُّ بدعةٍ فى الدِّينِ فهى مُحَرَّمةٌ وضَلالةٌ ؛ لقولِه ﷺ : « وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ كلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ ، وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ »[(١)] .

وقولُه ﷺ : « مَن أحْدَثَ فى أمرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ »[(٢)] ، وفى روايةٍ : « مَن عَمِل عَمَلًا ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ »[(٣)] .

فدلَّ الحديثُ على أنَّ كلَّ مُحْدَثٍ فى الدِّينِ فهو بدعةٌ ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ مردودةٌ .

ومعنى ذلك : أن البدعَ فى العباداتِ والاعتقاداتِ مُحَرَّمةٌ ، ولكنَّ التَّحريمَ يَتَفاوَتُ بحسَبِ نوعيةِ البدعةِ .

فمنها ما هو كفرٌ صُراحٌ ؛ كالطَّوافِ بالقبورِ ؛ تقرُّبًا إلى أصحابِها ، وتقديمِ الذَّبائحِ والنُّذورِ لها ، ودعاءِ أصحابِها والاستغاثةِ بهم .

وكمقالاتِ غُلاةِ الجَهْمِيَّةِ والمعتزلةِ .

ومنها ما هو من وسائلِ الشركِ ؛ كالبناءِ على القبورِ والصَّلاةِ والدُّعاءِ

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ١٢٦/٤ (١٧٠٧٩) ، وأبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذى (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) .

وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى تعليقه على سنن أبى داود : صحيح .

(٢) تقدم تخريجه ص ٢٨٢ .

(٣) تقدم تخريجه ص ١٩٣ .

عندَها .

ومنها ما هو فِسْقٌ اعتقاديٌّ، كبدعةِ الخوارجِ[١] والقَدَريّةِ[٢] والـمُرْجِئةِ[٣] فى أقوالِهم واعتقاداتِهم المخالِفةِ للأدلَّةِ الشَّرعيَّةِ .

ومنها ما هو معصيةٌ ، كبدعةِ التَّبَتُّلِ[٤]، والصِّيامِ قائمًا فى الشمسِ ،

---

(١) تقدمت ترجمة الخوارج ص٣٤ .

(٢) سُمُّوا بذلك لقولهم فى القدر ، وهم يَزْعُمون أن العبد هو الذى يخلق فعله استقلالاً ، فأثبتوا خالقًا مع اللّه ، ولذا سَمَّاهم النبى ﷺ مجوس هذه الأمة ؛ لأن المجوس قالوا بإثبات خالقين : النور والظلمة .

وهم يزعمون أن اللّه لا يقدر على مقدورات غيره ، وهذا هو مذهب المعتزلة فى القدر .

الملل والنحل : للشهرستانى ١/ ٥٤، البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ص ٢٦، ٢٧، عون المعبود ١٢/ ٤٥٢، ٤٥٣ .

(٣) سُمُّوا بذلك ؛ لقولهم بالإرجاء ، وأصل الإرجاء التأخير ؛ وذلك لأنهم أخَّرُوا الأعمال عن مُسَمَّى الإيمان .

وقيل : من إعطاء الرجاء ، حيث قالوا : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وقيل : الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يُقْضَى عليه بحكمٍ ما فى الدنيا ، من كونه من أهل النار ، أو من أهل الجنة ، فعلى هذا المرجئة والوَعِيدية فرقتان متقابلتان .

وقيل : الإرجاء تأخير عليٍّ من الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة ، فعلى هذا المرجئة والشِّيعة طائفتان متقابلتان .

والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة .

انظر تفاصيل مذهبهم فى : الملل والنحل ١/ ١٨٦، الفصل فى الملل والنحل ٢/ ١١٣، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٠٧، ١٠٨ .

(٤) قال النووى رحمه اللّه فى شرح مسلم ٥/ ١٩٠: قال العلماء : التبتل هو الانقطاع عن =

والخِصاءِ بقصدِ قَطْعِ شهوةِ الجماعِ[١] .

تنبيهٌ :

من قَسَّمَ البدعةَ إلى بدعةٍ حَسَنةٍ وبدعةٍ سَيِّئةٍ فهو غالطٌ ومُخْطِئٌ ومُخالِفٌ لقولِه ﷺ : « فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ »[٢]؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ ، حكَمَ على البدعِ كلِّها بأنَّها ضلالةٌ ، وهذا يقولُ : ليس كلُّ بدعةٍ ضلالةً ، بل هناك بدعةٌ حسنةٌ .

قال الحافظُ ابنُ رجبٍ في شرحِ الأربعين : فقولُه ﷺ : « كلُّ بدعةٍ ضلالةٌ » . مِن جوامِعِ الكَلِمِ لا يَخْرُجُ عنه شيءٌ ، وهو أصْلٌ عظيمٌ من أصولِ الدينِ ، وهو شَبِيهٌ بقولِه ﷺ : « مَن أحْدَث في أمرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ »[٣] .

فكلُّ مَن أحْدَث شيئًا ، ونَسَبه إلى الدِّينِ ، ولم يَكُنْ له أصلٌ من الدِّينِ يَرْجِعُ إليه فهو ضلالةٌ ، والدِّينُ بَرِيءٌ منه .

= النساء ، وترك النكاح ؛ انقطاعًا إلى عبادة الله .

وأصل التبتل القطع ، ومنه مَرْيَم البَتُول ، وفاطمة البَتُول ؛ لانقطاعهما عن نساء زمانهما دينًا وفضلاً ورغبةً في الآخرة .

ومنه صدقة بَتْلة ؛ أي : منقطعة عن تصرف مالكها .

قال الطَّبَري رحمه الله : التبتل هو ترك لذات الدنيا وشهواتها ، والانقطاع إلى الله تعالى بالتفرغ لعبادته . اهـ

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ٣٤١/٢ .

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٥٣ .

(٣) تقدم تخريجه ص ٢٨٢ .

وسواءٌ فى ذلك مسائلُ الاعتقاداتِ أو الأعمالِ أو الأقوالِ الظّاهرةِ والباطنةِ[١] . انتهى .

وليس لهؤلاءِ حُجَّةٌ على أنَّ هناك بدعةً حَسَنةً إلا قولَ عمرَ - رضِى اللّهُ عنه - فى صلاةِ التَّراويحِ : « نِعْمَتِ البِدْعةُ هذه »[٢] .

وقالوا أيضًا : إنَّها أُحدِثَتْ أشياءُ لم يَسْتَنْكِرْها السَّلَفُ ، مثلُ جَمْعِ القرآنِ فى كتابٍ واحدٍ ، وكتابةِ الحديثِ وتَدْوينِه .

والجوابُ عن ذلك : أنَّ هذه الأمورَ لها أصلٌ فى الشَّرعِ ، فليست مُحْدَثةً .

وقولُ عمرَ : « نِعْمَتِ البدعةُ » . يريدُ البدعةَ اللُّغَوية ، لا الشرعيَّةَ ، فما كان له أصلٌ فى الشَّرعِ يَرْجِعُ إليه ، إذا قيل : إنه بدعةٌ . فهو بدعةٌ لُغةً ، لا شرعًا ؛ لأن البدعةَ شرعًا ما ليس له أصلٌ فى الشَّرعِ يَرْجِعُ إليه[٣] .

وجمعُ القرآنِ فى كتابٍ واحدٍ له أصلٌ فى الشَّرعِ ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يَأْمُرُ بكتابةِ القرآنِ ، لكن كان مكتوبًا مُتفرِّقًا ، فجَمَعَه الصحابةُ -

---

(١) جامع العلوم والحكم ١٢٨/٢ .

(٢) البخارى (٢٠١٠) .

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه اللّه فى الشرح الممتع ٤/ ٧٩، ٨٠:
فإن قال قائل : ما تقولون فى قول عمر : نعمت البدعة ؟ وهذا يدل على أنها مُبْتَدَعَة ؟
فالجواب أن هذه البدعة نسبية ، فهى بدعة باعتبار ما سبقها ، لا باعتبار أصل المشروعية ؛ لأنها بَقِيَت فى آخر حياة الرسول ﷺ ، وفى خلافة أبى بكر لم تُقَم ، فلما اسْتُؤْنِفَت إقامتها صارت كأنها ابتداء من جديد .
ولا يمكن لعمر بن الخطاب أن يُثْنِيَ على بدعة شرعية أبدًا ، وقد قال النبى ﷺ : « كل بدعة ضلالة » . =

رضِى اللَّهُ عنهم – فى مُصْحَفٍ واحدٍ ؛ حِفْظًا له .

والتراويحُ قد صَلاَّها النبيُّ ﷺ بأصحابِه لَيالِيَ ، وتخَلَّف عنهم فى الأخيرِ خَشْيةَ أن تُفْرَضَ عليهم(١) .

واسْتَمَرَّ الصحابةُ – رضِى اللَّهُ عنهم – يُصَلُّونها أوْزاعًا مُتفَرِّقِين فى حياةِ النبيِّ ﷺ ، وبعدَ وفاتِه إلى أن جَمَعَهم عمرُ بنُ الخطابِ – رضِى اللَّهُ عنه – خلفَ إمامٍ واحدٍ(٢) ، كما كانوا خلفَ النبيِّ ﷺ ، وليس هذا بدعةً فى الدينِ .

وكتابةُ الحديثِ أيضًا لها أصلٌ فى الشَّرعِ ، فقد أمَرَ النبيُّ ﷺ بكتابةِ بعضِ الأحاديثِ لبعضِ أصحابِه لما طَلَب منه ذلك(٣) .

= والعجب أن بعض أهل البدع أخذ من قول عمر : « نعمت البدعة » . بابًا للبدعة ، وصار يبتدع ما شاء ، ويقول : نعمت البدعة هذه . ولا شك أن هذا من الأخذ بالمُتَشابِه .
حتى لو فُرِض أن عمر رضى اللَّه عنه ابتدع – وحاشاه من ذلك – فإن له سنة مُتَّبَعة ؛ لقوله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » . فلشتَّ مثله ، فكيف تقول : ابتدع ، ونعمت البدعة ، فعمر له سنة مُتَّبَعة . اهـ

(١) البخارى (١١٢٩) ، ومسلم ٥٢٤/١ (٧٦١) .

(٢) روى مالك فى الموطأ ١/ ١١٥، والبيهقى فى السنن الكبرى ٢/ ٤٩٦، أن عمر ابن الخطاب رضى اللَّه عنه أمر تَمِيمًا الدارىَّ وأُبَىَّ بن كعب أن يقوما بالناس بإحدى عشرة ركعة .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه اللَّه فى الشرح الممتع ٤/ ٧٠: إسناد مالك من أصح الأسانيد .

(٣) ومن ذلك ما رواه البخارى (١١٢، ٢٤٣٤، ٦٨٨٠) ، ومسلم ٩٨٨/٢ (١٣٥٥) ، عن أبى هريرة قال : لما فتح اللَّه عز وجل على رسول اللَّه ﷺ مكة ، قام فى الناس فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال : « إن اللَّه حَبَسَ عن مكة الفيل ، وَسَلَّطَ عليها رسوله والمؤمنين ، وإنها لن تَحِلَّ لأحد كان قبلى ، وإنها أُحِلَّتْ لى ساعة من نهار ، وإنها لن تَحِلَّ لأحد =

وكان المحذورُ من كتابتِه بصفةٍ عامةٍ في عهدِه ﷺ خشيةَ أن يَخْتَلِطَ بالقرآنِ ما ليس منه .

فلمَّا تُوُفِّي ﷺ انْتَفَى هذا المحذورُ ؛ لأنَّ القرآنَ قد تكَامَلَ ، وضُبِط قبلَ وفاتِه ﷺ .

فدوَّن المسلمون السُّنةَ بعدَ ذلك ؛ حِفْظًا لها من الضياعِ ، فجزاهم اللَّهُ عن الإسلامِ والمسلمين خيرًا ، حيث حفِظُوا كتابَ ربِّهم وسنةَ نبيِّهم ﷺ ، من الضَّياعِ وعَبَثِ العابِثِينَ[1] .

= بعدى ، فلا يُنفَّرُ صيدها ، ولا يُخْتَلى شوكها ، ولا تَحِلُّ ساقطتها إلا لمُنْشِد ، ومن قُتِل له قَتِيل ، فهو بخير النَّظَرَيْن ، إما أن يُفْدَى ، وإما أن يُقْتَلَ » . فقال العباس : إلا الإِذْخِرَ ، يا رسول اللَّه ؛ فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا . فقال رسول اللَّه ﷺ : « إلا الإذخر » .

فقام أبو شَاهٍ - رجل من أهل اليمن - فقال : اكتبوا لى ، يا رسول اللَّه . فقال رسول اللَّه ﷺ : « اكتبوا لأبى شاه » .

فقال الوليد : فقلت للأوزاعى : ما قوله : اكتبوا لى يا رسول اللَّه : قال : هذه الخطبة التى سمعها من رسول اللَّه ﷺ . متفق عليه

قال النووى رحمه اللَّه فى شرح مسلم ٥/ ١٤٠ : قوله ﷺ : اكتبوا لأبى شاه . هذا تصريح بجواز كتابة العلم غير القرآن ، ومثله حديث على رضى اللَّه عنه : « ما عنده إلا ما فى هذه الصحيفة » ، ومثله حديث أبى هريرة : كان عبد اللَّه بن عمرو يكتب ولا أكتب . اهـ

وقد بوَّب البخارى رحمه اللَّه على هذه الأحاديث الثلاثة وغيرها بقوله : باب كتابة العلم .

(١) قال النووى رحمه اللَّه فى شرح صحيح مسلم ٥/ ١٤٠، ١٤١ : وجاءت أحاديث بالنهى عن كتابة غير القرآن ، فمن السلف من منع من كتابة العلم ، وقال جمهور السلف بجوازه ، ثم أجمعت الأمة بعدهم على استحبابه ، وأجابوا عن أحاديث النهى بجوابين : أحدهما : أنها منسوخة ، وكان النهى فى أول الأمر قبل اشتهار القرآن لكل أحد ، فنُهِى عن كتابة غيره ؛ خوفًا من اختلاطه واشتباهه ، فلما اشْتَهر وأُمِنَت تلك المفسدة أُذِن فيه . والثانى : أن النهى نهى تنزيه لمن وُثِق بحفظِه وخيف اتكاله على الكتابة ، والإذن لمن لم يُوثَقْ بحفظه . واللَّه أعلم . اهـ

الفصلُ الثانى :
ظهورُ البدعِ فى حياةِ المسلمين
والأسبابُ التى أدَّتْ إلى ذلك

أولًا : ظهورُ البدعِ فى حياةِ المسلمين :

وتحتَه مسألتان :

المسألةُ الأولى : وقتُ ظهورِ البِدَعِ :

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحِمه اللَّهُ[1] : واعْلَمْ أن عامَّةَ البِدَعِ المُتَعَلِّقةِ بالعلومِ والعباداتِ فى هذا القَدَرِ وغيرِه إنما وقَعَ فى الأُمَّةِ فى أواخرِ خلافةِ الخلفاءِ الرَّاشِدِينَ ، كما أَخْبَرَ به النبيُّ ﷺ ، حيث قال : « مَن يَعِشْ منكم بعدى فسَيَرَى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتى وسنةِ الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّينَ من بعدى »[2] .

وأولُ بدعةٍ ظَهَرَت بدعةُ القَدَرِ ، وبدعةُ الإرجاءِ ، وبِدْعةُ التَّشَيُّعِ ، والخوارجِ .

هذه البدعُ ظهَرَت فى القرنِ الثانى ، والصحابةُ مَوْجودون ، وقد أنْكَروا على أهلِها .

ثم ظهَرَت بدعةُ الاعْتِزالِ ، وحدَثَتِ الفِتَنُ بينَ المسلمين ، وظهَرَ اختلافُ الآراءِ والميلُ إلى البدعِ والأهواءِ .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٣٥٤ .

(٢) تقدم تخريجه ص٣٥٣ .

وظهَرَت بدعةُ التَّصَوُّفِ وبدعةُ البناءِ على القبورِ بعدَ القرونِ المُفَضَّلةِ ، وهكذا كُلَّما تأَخَّر الوقتُ زادَتِ البدعُ وتنَوَّعَتْ .

المسألةُ الثانيةُ : مكانُ ظهورِ البدعِ :

تخْتَلِفُ البُلْدانُ الإسلاميةُ فى ظهورِ البدعِ فيها .

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ : فإنَّ الأمصارَ الكِبارَ التى سكَنَها أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وخرَجَ منها العلمُ والإيمانُ خمسةٌ : الحَرَمَانِ والعِرَاقَانِ والشَّامُ .

منها خرَجَ القرآنُ والحديثُ والفقهُ والعبادةُ ، وما يَتْبَعُ ذلك من أمورِ الإسلامِ ، وخَرَجَ من هذه الأمصارِ بِدَعٌ أُصوليةٌ غيرَ المدينةِ النبويةِ .

فالكوفةُ خرَجَ منها التَّشَيُّعُ والإرجاءُ ، وانْتَشَر بعدَ ذلك فى غيرِها .

والبَصْرةُ خرَجَ منها القَدَرُ والاعْتِزالُ والنُّسُكُ الفاسدُ ، وانْتَشَر بعدَ ذلك فى غيرِها .

والشامُ كان بها النَّصْبُ[1] والقَدَرُ .

أما التَّجَهُّمُ فإنما ظهَرَ فى ناحيةِ خُراسانَ ، وهو شرُّ البدعِ .

وكان ظهورُ البدعِ بحسَبِ البعدِ عن الدَّارِ النبويةِ ، فلمَّا حدَثَت الفُرْقةُ بعدَ مَقْتَلِ عُثْمانَ ظَهَرَت بدعةُ الحَرُورِيَّةِ .

وأما المدينةُ النبويةُ فكانت سليمةً من ظهورِ هذه البدعِ ، وإن كان بها مَن هو مُضْمِرٌ لذلك ، فكان عندَهم مُهانًا مذمومًا ؛ إذ كان بها قومٌ من

---

(١) تقدمت ترجمة النواصب ص٣٣٤ .

القَدَريةِ وغيرِهم .

ولكن كانوا مَذْمُومين مَقْهُورين ، بخلافِ التشيُّعِ والإرجاءِ بالكوفةِ ، والاعتزالِ وبِدَعِ النُّسَّاكِ بالبَصْرةِ ، والنَّصْبِ بالشامِ ، فإنه كان ظاهرًا .

وقد ثبَتَ فى الصحيحِ ، عن النبىِّ ﷺ فى المدينةِ : أنَّ الدَّجَّالَ لا يَدْخُلُها[1] .

ولم يَزَلِ العلمُ والإيمانُ بها ظاهرًا إلى زمنِ أصحابِ مالكٍ ، وهو من أهلِ القرنِ الرابعِ .

فأمَّا العصورُ الثلاثةُ المُفَضَّلةُ فلم يَكُنْ فيها بالمدينةِ النبويةِ بدعةٌ ظاهرةٌ البَتَّةَ ، ولا خَرَج منها بدعةٌ فى أصولِ الدِّينِ البَتَّةَ ، كما خرَجَ من سائرِ الأمصارِ[2] . اهـ

ثانيًا : الأسبابُ التى أَدَّتْ إلى ظهورِ البِدَعِ :

مما لا شَكَّ فيه أن الاعتصامَ بالكتابِ والسنةِ فيه مَنْجاةٌ من الوقوعِ فى البِدَعِ والضَّلالِ ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

(١) روى البخارى رحمه الله (١٨٨١) ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ليس من بلد إلا سيَطَؤُه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس من نِقابها نَقْبٌ إلا عليه الملائكة صافِّينَ يَحْرُسونها ... » الحديث .

وروى أيضًا البخارى رحمه الله (٧١٣٢) ، ومسلم ٤/٢٢٥٦ (٢٩٣٨) ، عن أبى سعيد الخدرى ، أن النبى ﷺ قال فى الدجال : « يأتى ، وهو مُحَرَّم عليه أن يدخل نِقابَ المدينة... » الحديث .

قال النووى رحمه الله فى شرح مسلم ٩/ ٢٩٩: نقاب المدينة هو بكسر النون ؛ أى : طرقها وفجاجها ، وهو جمع نَقْب ، وهو الطريق بين جبلين . اهـ

(٢) مجموع الفتاوى ٢٠/٣٠٠ - ٣٠٣ .

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وقد وضَّحَ ذلك النبيُّ ﷺ ، فيما رواه ابنُ مسعودٍ - رضى اللَّهُ عنه - قال : خَطَّ لنا رسولُ اللَّهِ ﷺ خطًّا ، فقال : « هذا سبيلُ اللَّهِ » . ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه ، وعن شمالِه ، ثم قال : « وهذه سُبُلٌ ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ ، يَدْعُو إليه » .

ثم تلا : « ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] »(١) .

فمَن أعْرَض عن الكتابِ والسنةِ تَنازَعَتْه الطُّرُقُ المُضَلِّلةُ والبِدَعُ المُحْدَثةُ .

فالأسبابُ التى أدَّتْ إلى ظهورِ البدعِ تَتَلَخَّصُ فى الأمورِ التاليةِ :

١- الجهلُ بأحكامِ الدِّينِ .

٢- اتِّباعُ الهَوَى .

٣- التَّعَصُّبُ للآراءِ والأشخاصِ .

٤- التَّشَبُّهُ بالكفارِ وتقليدُهم .

* * *

ونَتَناولُ هذه الأسبابَ بشيءٍ من التَّفصيلِ :

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ١/٤٣٥، ٤٦٥ (٤١٤٢، ٤٤٣٧) ، والحاكم فى مستدركه ٢/ ٣١٨، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .
وقال الشيخ أحمد شاكر فى الموضعين : إسناده صحيح .

السببُ الأولُ : الجهلُ بأحكامِ الدينِ :

كلَّما امْتَدَّ الزَّمنُ ، وبَعُدَ الناسُ عن آثارِ الرسالةِ قلَّ العِلْمُ ، وفَشَا الجهلُ ، كما أخْبَرَ بذلك النبيُّ ﷺ بقولِه : « مَن يَعِشْ منكم فسَيَرَى اخْتِلافًا كثيرًا »(1) .

وقولِه : « إنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزاعًا يَنْتَزِعُه من العبادِ ، ولكن يَقْبِضُ العِلْمَ بقبضِ العلماءِ ، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخَذ الناسُ رُؤَساءَ جُهَّالًا ، فَسُئِلُوا فأَفْتَوْا بغيرِ علمٍ ، فضَلُّوا وأضَلُّوا »(2) .

فلا يُقاوِمُ البدعَ إلا العلمُ والعُلماءُ ، فإذا فُقِدَ العلمُ والعلماءُ أُتِيحَتِ الفُرْصةُ للبدعِ أن تَظْهَرَ وتَنْتَشِرَ ، ولأهلِها أن يَنْشَطوا .

السببُ الثانى : اتِّباعُ الهَوَى :

مَن أعْرَض عن الكتابِ والسُّنّةِ اتَّبع هَواه ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ [القصص : ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ [الجاثية : ٢٣] . والبدعُ إنّما هى نَسِيجُ الهَوَى المُتَّبَعِ .

السببُ الثالثُ : التعصُّبُ لآراءِ الرِّجالِ :

---

(1) تقدم تخريجه ص ٣٥٣ .

(2) البخارى (١٠٠، ٧٣٠٧) ، ومسلم ٢٠٥٨/٤ (٢٦٧٣) .

التَّعَصُّبُ لآراءِ الرِّجالِ يَحُولُ بينَ المَرْءِ واتِّباعِ الدَّليلِ ومعرفةِ الحقِّ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

وهذا هو شأنُ المُتَعَصِّبين اليومَ مِن بعضِ أتْباعِ المذاهبِ والصُّوفيةِ والقُبُورِيِّينَ ، إذا دُعُوا إلى اتِّباعِ الكتابِ والسنةِ ، ونَبْذِ ما هم عليه مما يُخالِفُهما احْتَجُّوا بمَذاهبِهم ومَشايِخِهم وآبائِهم وأجدادِهم .

السببُ الرابعُ : التَّشَبُّهُ بالكُفَّارِ :

التَّشَبُّهُ بالكفارِ هو مِن أشدِّ ما يُوقِعُ فى البِدَعِ ، كما فى حديثِ أبى وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ، قال : خرَجْنا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ إلى حُنَيْنٍ ، ونحن حُدَثاءُ عهدٍ بكفرٍ ، وللمشركين سِدْرَةٌ يَعْكُفُون عندَها ، ويَنُوطُون بها أسلحتَهم ، يقالُ لها : ذاتُ أَنْواطٍ .

فمرَرْنا بسِدْرةٍ ، فقُلْنا : يا رسولَ اللَّهِ ، اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ ، كما لهم ذاتُ أنواطٍ .

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُ أكبرُ ، إنَّها السَّنَنُ ، قُلْتُم والذى نفسى بيدِه كما قالتْ بنو إسرائيلَ لموسى : ﴿ اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ، لتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم »[1] .

ففى هذا الحديثِ أن التَّشَبُّهَ بالكفارِ هو الذى حمَل بنى إسرائيلَ

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ٥/٢١٨ (٢١٧٩٧) ، والترمذى (٢١٨٠) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .
وقال الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٦٠١) : صحيح .

وبعضَ أصحابِ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ أن يَطْلُبوا هذا الطَّلَبَ القبيحَ مِن نبيِّهم ، وهو أن يَجْعَلَ لهم آلهةً ، يَعْبُدونها ، ويَتَبَرَّكُون بها مِن دونِ اللَّهِ .

وهذا هو نفسُ الواقعِ اليومَ ؛ فإنَّ غالبَ الناسِ من المسلمين قلَّدوا الكفَّارَ فى عَمَلِ البدعِ والشِّرْكيَّاتِ ، كأعيادِ الموالدِ وإقامةِ الأيامِ والأسابيعِ لأعمالٍ مُخَصَّصةٍ ، والاحتفالِ بالمُناسباتِ الدِّينيَّةِ والذِّكْرياتِ ، وإقامةِ التَّماثيلِ والنُّصُبِ التَّذْكاريةِ ، وإقامةِ المآتِمِ ، وبِدَعِ الجنائزِ والبناءِ على القبورِ ، وغيرِ ذلك .

* * *

الفصلُ الثالثُ
موقفُ الأمةِ الإسلاميةِ من المُبْتَدِعةِ ومنهجُ أهلِ السنةِ والجماعةِ في الردّ عليهم

موقفُ أهلِ السنةِ والجماعةِ مِن المُبْتَدِعةِ :

ما زالَ أهلُ السنةِ والجماعةِ يَرُدُّون على المُبْتَدِعةِ ، ويُنْكِرون عليهم بِدَعَهم ، ويَمْنَعُونهم من مُزاولتِها ، وإليك نماذجُ من ذلك :

١- عن أمِّ الدَّرْداءِ قالت : دخَلَ عليَّ أبو الدَّرْداءِ مُغْضَبًا ، فقلتُ له : مالكَ ؟ فقال : واللَّهِ ما أَعْرِفُ فيهم شيئًا مِن أمرِ محمدٍ إلا أنهم يُصَلُّون جميعًا[(١)] .

٢- عن عمرِو بنِ يَحْيَى قال : سمِعْتُ أبي يُحَدِّثُ ، عن أبيه قال : كنا نَجْلِسُ على بابِ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ قبلَ صلاةِ الغَداةِ ، فإذا خرَجَ مَشَيْنا معه إلى المسجدِ ، فجاءنا أبو موسى الأشْعَرِيُّ ، فقال : أَخَرَج عليكم أبو عبدِ الرحمنِ بعدُ ؟ قلنا : لا .

فجلَس معَنا حتى خرَجَ ، فلمَّا خَرَج قُمْنا إليه جميعًا ، فقال : يا أبا عبدِ الرحمنِ ، إنى رأَيْتُ فى المسجدِ آنِفًا أمرًا أنْكَرْتُه ، ولم أَرَ - والحمدُ للهِ - إلا خيرًا .

قال : وما هو ؟

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ١٩٥/٥ (٢١٥٩٧) .

قال : إن عِشْتَ فستَراه ، قال : رأيْتُ فى المسجدِ قومًا حِلَقًا جُلُوسًا ، يَنْتَظِرون الصلاةَ ، فى كلِّ حَلْقةٍ رجلٌ ، وفى أيديهم حَصًى ، فيقولُ : كَبِّروا مائةً . فيُكَبِّرون مائةً ، فيقولُ : هَلِّلوا مائةً ، فيُهَلِّلون مائةً . فيقولُ : سَبِّحوا مائةً . فيُسَبِّحون مائةً .

قال : أفلا أمَرْتَهم أن يَعُدُّوا سيئاتِهم ، وضمِنْتَ لهم أن لا يَضِيعَ من حسناتِهم شيءٌ .

ثم مضَى ومضَيْنا معَه ، حتى أَتَى حَلْقةً مِن تلك الحِلَقِ ، فوقَف عليهم ، فقال : ما هذا الذى أراكم تَصْنَعون ؟!

قالوا : يا أبا عبدِ الرحمنِ ، حَصًى نَعُدُّ به التكبيرَ والتَّهليلَ والتَّسبيحَ والتَّحميدَ .

قال : فعُدُّوا سيئاتِكم ؛ فأنا ضامنٌ أن لا يَضِيعَ من حسناتِكم شيءٌ ، وَيْحَكُم يا أمةَ محمدٍ ، ما أسْرَعَ هَلَكَتَكم !! هؤلاء أصحابُه مُتوافِرُون ، وهذه ثيابُه لم تَبْلَ ، وآنيتُه لم تُكْسَرْ ، والذى نفسى بيدِه ، إنكم لعَلى ملَّةٍ هى أهْدَى من ملَّةِ محمدٍ ، أو مُفْتَتِحو بابِ ضلالةٍ !!

قالوا : واللَّهِ يا أبا عبدِ الرحمنِ ، ما أرَدْنا إلا الخيرَ .

قال : وكم مُرِيدٍ للخيرِ لن يُصِيبَه ، إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ حدَّثَنا أن قومًا يَقْرَأُون القرآنَ ، لا يُجاوِزُ تَراقِيَهم ، وَايْمُ اللَّهِ[1] لا أَدْرِى ، لعلَّ

---

(١) قال فى القاموس المحيط ٤/ ٢٧٤ : وأَيْمُنُ اللَّهِ وأَيْمُ اللَّهِ ، ويُكْسَر أوَّلُهما ، وأَيْمَنُ اللَّهِ بفتح الميم والهمزة ، وتُكْسَرُ ، وإِيمِ اللَّهِ بكسر الهمزة والميم ، وقيل : أَلِفُه أَلِف الوَصْل . اهـ

أكثرَهم منكم .

ثم تَوَلَّى عنهم . فقال عمرُو بنُ سَلِمةَ : رأَيْنا عامّةَ أولئك يُطاعِنوننا يومَ النَّهْرُوانِ مع الخوارجِ[١] .

٣- جاء رجلٌ إلى الإمامِ مالكِ بنِ أنسٍ - رحِمه اللَّهُ - فقال : مِن أين أُحْرِمُ ؟

فقال : مِن المِيقاتِ الذى وقَّتَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَحْرَم منه .

فقال الرَّجُلُ : فإن أحْرَمْتُ مِن أبعدَ منه ؟

فقال مالكٌ : لا أَرَى ذلك .

فقال : ما تَكْرَهُ من ذلك ؟

قال : أَكْرَهُ عليك الفتنةَ .

قال : وأيُّ فِتْنةٍ فى ازديادِ الخيرِ ؟

فقال مالكٌ : فإنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] . وأيُّ فتنةٍ أعظمُ من أنك خُصِّصْتَ بفضلٍ لم يَخْتَصَّ به رسولُ اللَّهِ ﷺ[٢] .

وهذا نَمُوذَجٌ[٣]، وما زال العلماءُ يُنْكِرون على المُبْتَدِعةِ فى كلِّ

---

(١) رواه الدارمى فى سننه ١/ ٦٨، ٦٩، والطبرانى فى الكبير (٨٦٢٨)، وابن وضاح فى البدع ١٧، ١٩، ٢٢، ٢٣ .

(٢) أخرجه ابن العربى فى « أحكام القرآن » ٣/ ١٤١٢، ١٤١٣، وذكره أبو شامة فى كتاب « الباعث على إنكار البدع والحوادث » نقلاً عن أبى بكر الخَلاَّل ص١٤ .

(٣) قال الفيروز آبادى فى القاموس المحيط ٢/ ٢٠٩: النَّمُوذَج - بفتح النون -: مثال الشىء ، =

عصرٍ ، والحمدُ للهِ .

منهجُ أهلِ السنةِ والجماعةِ فى الردِّ على أهلِ البدعِ :

مَنْهَجُهم فى ذلك مبنيٌّ على الكتابِ والسنَّةِ ، وهو المنهجُ المُقْنِعُ المُفْحِمُ ، حيث يُورِدُون شُبَهَ المُبْتَدِعةِ ويَنْقُضونها ، ويَسْتَدِلُّون بالكتابِ والسنةِ على وجوبِ التَّمسُّكِ بالسُّنَنِ والنَّهْيِ عن البدعِ والمُحْدَثاتِ .

وقد أَلَّفُوا المُؤَلَّفاتِ الكثيرةَ فى ذلك ، ورَدُّوا فى كتبِ العقائدِ على الشِّيعةِ والخَوارجِ والجَهْمِيّةِ والمُعْتَزِلةِ والأشاعرةِ[1] فى مَقالاتِهم المُبْتَدَعةِ فى أصولِ الإيمانِ والعقيدةِ .

وأَلَّفوا كُتُبًا خاصَّةً فى ذلك ، كما أَلَّف الإمامُ أحمدُ كتابَ « الردِّ على الجَهْمِيةِ » ، وأَلَّف غيرُه من الأئمةِ فى ذلك كعُثْمانَ بنِ سعيدٍ الدّارميِّ[2] ، وكما فى كتبِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ ، وتلميذِه ابنِ القيمِ ،

= مُعَرَّب ، والأُنْمُوذَج لحن . اهـ

(١) الأشاعرة يُنْتسبون إلى أبى الحسن الأشعرى ، ويقولون بإثبات سبع صفات فقط ؛ لأن العقل دل على إثباتها ، وهى : السمع ، والبصر ، والعلم ، والكلام ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة .

وقالوا بأن كلام الله هو المعنى القائم ، وهو قائم بالذات ، يستحيل أن يفارقها ، والعبارات والحروف دَلالات على الكلام الأزلى .

وعندهم أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والعمل والإقرار من فروع الإيمان ، لا من أصله ، وقد رجع أبو الحسن الأشعرى عن قوله فى الأسماء والصفات .

الملل والنحل ١/ ١١٩، رسالة فى الرد على الرافضة ص ١٦٦ .

(٢) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمى السِّجِسْتانى ، ولد قبل المائتين بيسير ، وكان تلميذًا لأحمد بن حنبل ، من كتبه رد الإمام الدارمى عثمان بن سعيد على بِشْر المِرِّيسى =

والشيخِ محمدِ بنِ عبدِ الوَهَّابِ وغيرِهم فى الردِّ على تلك الفِرَقِ ، وعلى القبُوريّةِ والصُّوفيةِ .

وأما الكتبُ الخاصَّةُ فى الردِّ على أهلِ البدعِ فهى كثيرةٌ ، منها على سبيلِ المثالِ :

من الكتبِ القديمةِ :

١- كتابُ الاعتصامِ للإمامِ الشّاطبىِّ[1] .

٢- كتابُ « اقتضاءِ الصِّراطِ المستقيم » لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ ، فقد اسْتَغْرَق الردُّ على المُبْتَدِعةِ جزءًا كبيرًا منه .

٣- كتابُ « إنكارِ الحوادثِ والبِدَعِ » لابنِ وَضَّاحٍ[2] .

٤- كتابُ « الحوادثِ والبِدَعِ » للطُّرْطُوشيِّ[3] .

= العنيد ، والرد على الجهمية ، توفى فى هَرَاة سنة ٢٨٠هـ .

الأعلام ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦ ، سير أعلام النبلاء ٣١/١٣ ، وتاريخ التراث العربى ٣١/٤/١ .

(١) الشاطبى هو إبراهيم بن موسى بن محمد اللَّخْمى الغَرْناطى ، أبو إسحاق ، الشهير بالشاطبى ، الإمام العلاَّمة ، المحقِّق القُدْوة ، الحافظ الجليل المجتهد ، توفى رحمه اللَّه سنة تسعين وسبعمائة ، ولم أقف على مولده رحمه اللَّه .

(٢) هو الإمام الحافظ ، محدِّث الأندلس مع بَقِىّ ، أبو عبد اللَّه ، محمد بن وَضَّاح ابنُ بَزِيع المَرْوانى ، وُلِد سنة تسع وتسعين ومائة ، وتوفى رحمه اللَّه فى المُحَرَّم ، سنة سبع وثمانين ومائتين . سير أعلام النبلاء ٣٤٥/١٣ .

(٣) هو الإمام العلامة ، القدوة الزاهد ، شيخ المالكية ، أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفِهْرى الأندلُسى الطُّرْطُوشى ، الفقيه ، عالم الإسكندرية ، وكان مولده فى سنة إحدى وخمسين وأربع مائة ، وتوفى بالإسكندرية فى جُمَادى الأُولى سنة عشرين وخمسمائة ، رحمه اللَّه . سير أعلام النبلاء ٤٩٠/١٩ .

٥- كتابُ « الباعثِ على إنكارِ البدعِ والحوادثِ » لأبى شامةَ .

٦- كتابُ « مِنْهاجِ السنةِ النبويةِ فى الردِّ على الرافضةِ والقَدَريةِ » لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ .

ومن الكتبِ العَصْريةِ :

١- كتابُ « الإبداعِ فى مَضَارِّ الابتداعِ » للشيخِ عليٍّ محفوظٍ .

٢- كتابُ « السُّنَنِ والمُبْتَدَعاتِ المُتَعَلِّقةِ بالأذكارِ والصّلواتِ » للشيخِ محمدِ بنِ أحمدَ الشّقيرىِّ الحوامدىِّ .

٣- رسالةُ « التحذيرِ من البدعِ » للشيخِ عبدِ العزيزِ بنِ بازٍ .

ولا يَزالُ علماءُ المسلمين - والحمدُ للهِ - يُنْكِرون البدعَ ، ويَرُدُّون على المُبْتَدِعةِ من خلالِ الصُّحُفِ والمَجَلاَّتِ والإذاعاتِ وخُطَبِ الجُمَعِ والنَّدَواتِ والمحاضراتِ ، مما له كبيرُ الأثَرِ فى توعيةِ المسلمين ، والقضاءِ على البدعِ ، وقَمْعِ المُبْتَدِعين .

* * *

الفصلُ الرابعُ

نَماذِجُ من البِدَعِ المُعَاصِرةِ

البدعُ المعاصِرةُ كثيرةٌ بحُكْمِ تأخُّرِ الزمنِ، وقلةِ العلمِ، وكثرةِ الدُّعاةِ إلى البدعِ والمخالفاتِ، وسريانِ التشبُّهِ بالكفّارِ في عاداتِهم، وطُقُوسِهم، مِصْداقًا لقولِه ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم»[1].

فمِن هذه البدعِ:

١- الاحتفالُ بالمَوْلِدِ النبويِّ.

٢- التبرُّكُ بالأماكنِ والآثارِ والأمواتِ، ونحوِ ذلك.

٣- البدعُ في مجالِ العباداتِ والتقرُّبِ إلى اللَّهِ.

١- الاحتفالُ بمناسبةِ المَوْلِدِ النبويِّ في ربيعِ الأولِ:

ومن هذا التَّشبُّهُ بالنَّصارَى في عملِ ما يُسَمَّى بالاحتفالِ بالمولدِ النبويِّ، يَحْتَفِلُ جَهَلةُ المسلمين، أو العلماءُ المُضِلُّون في ربيعِ الأولِ مِن كلِّ سنةٍ بمناسبةِ مولدِ الرسولِ محمدٍ ﷺ.

فمنهم مَن يُقِيمُ هذا الاحتفالَ في المساجدِ، ومنهم مَن يُقِيمُه في البُيوتِ، أو الأمكنةِ المُعَدَّةِ لذلك، ويَحْضُرُه جُموعٌ كثيرةٌ من دَهْماءِ الناسِ[2] وعَوامِّهم، يَعْمَلون ذلك تشَبُّهًا بالنصارَى في ابتداعِهم الاحتفالَ بمولدِ المسيحِ عليه السلامُ.

---

(١) البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، ومسلم ٤/٢٠٥٤ (٢٦٦٩).

(٢) أي: عامّة الناس وسَوَادهم. المعجم الوسيط (د هـ م).

والغالبُ أن هذا الاحتفالَ عِلاوةً على كونِه بدعةً وتَشَبُّهًا بالنصارى ، فإنه لا يَخْلُو من وجودِ الشِّرْكيَّاتِ والـمُنْكَراتِ ، كإنشاءِ القصائدِ التى فيها الغُلُوُّ فى حقِّ الرسولِ ﷺ ، إلى درجةِ دعائِه مِن دونِ اللَّهِ والاستغاثةِ به[١] .

وقد نهى النبيُّ ﷺ عن الغلوِّ فى مدحِه ، فقال : « لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النّصَارى ابنَ مريمَ ، إنّما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ اللَّهِ ورسولُه »[٢] .

والإطراءُ معناه الغُلُوُّ فى الـمَدْحِ ، ورُبَّما يَعْتَقِدون أنَّ الرسولَ ﷺ ، يَحْضُرُ احتفالاتِهم .

ومن المنكراتِ التى تُصاحِبُ هذه الاحتفالاتِ : الأناشيدُ الجَماعيَّةُ الـمُنَغَّمةُ ، وضَرْبُ الطُّبولِ ، وغيرُ ذلك مِن عملِ الأذكارِ الصّوفيّةِ الـمُبْتَدَعةِ .

وقد يكونُ فيها اختلاطٌ بينَ الرجالِ والنساءِ مما يُسَبِّبُ الفتنةَ ، ويَجُرُّ إلى الوقوعِ فى الفواحشِ .

وحتى لو خلا هذا الاحتفالُ من هذه المحاذيرِ ، واقْتَصَر على الاجتماعِ

---

(١) ومن ذلك قول البوصيرى فى البردة المشهورة :

يا أكْرَمَ الخَلْقِ ما لى مَن أَلُوذُ به ... سِواك عندَ حُلولِ الحادثِ العَمَمِ
إنْ لم تَكُنْ آخِذًا يومَ المَعَادِ يَدِي ... فَضْلاً وإلا فقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ
فإنَّ من جُودِك الدنيا وضَرَّتَها ... ومن عُلومِك عِلْمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ

قال ابن رجب وغيره : إنه لم يترك لله شيئًا ، ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ .

(٢) تقدم تخريجه ص٢٥٥ .

وتَنَاوُلِ الطّعامِ وإظهارِ الفرحِ – كما يقولون – فإنه بدعةٌ مُحْدَثةٌ ، وكلُّ مُحْدثةٍ بدعةٌ ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ .

وأيضًا هو وسيلةٌ إلى أن يَتَطَوَّرَ ويَحْصُلَ فيه ما يَحْصُلُ فى الاحتفالاتِ الأخرى من المنكراتِ .

وقلنا : إنه بدعةٌ ؛ لأنه لا أصلَ له فى الكتابِ والسنةِ وعملِ السّلفِ الصّالحِ والقُرونِ المُفَضَّلةِ ، وإنما حدَث مُتَأَخِّرًا بعدَ القرنِ الرابعِ الهِجْرِيِّ ، أحْدَثه الفاطِميُّون الشِّيعةُ[(١)] .

---

(١) قال الشيخ مشهور بن حسن حفظه الله فى تحقيقه لكتاب الاعتصام ٢/ ٣٥٢ – ٣٥٦:
وهم بنوعبيد ، أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون ، فملكوا البلاد ، وقهروا العباد ، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ، ولا نسبهم صحيحًا .
وكان والد عُبيد هذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسى ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديًّا من أهل سَلَمْيَة من بلاد الشام ، وكان حدادًا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدًا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى ، وادعى نسبًا ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العلوية ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه ، ثم ترَقَّت به الحال إلى أن ملك ، وتسمى بالمهدى ، وبنى المهدية بالمغرب ، ونسبت إليه ، وكان زنديقًا خبيثًا عدوًّا للإسلام ، متظاهرًا بالتشيع ، مُتَستِّرًا به ، حريصًا على إزالة الملة الإسلامية ، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ، ليبقى العالم كالبهائم ، فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] ، ونشأت ذريته على ذلك مُنْطَوِين ، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة ، وإلا أسَرُّوه ، والدعاة لهم مُنْبَثُّون فى البلاد ، يُضِلُّون من أمكنهم إضلاله من العباد ، وبقى هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذى الحِجة سنة تسع وتسعين ومئتين إلى سنة سبع وستين وخمس مئة .
وفى أيامهم كثرت الرافضة ، واستحكم أمرهم ، ووُضِعَت المُكُوسُ على الناس ، واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، =

....

= والحشيشية نوع منهم ، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم ، وأخذت الإفْرِنْجُ أكثر البلاد بالشام والجزيرة ، إلى أن مَنَّ اللَّه على المسلمين بظهور البيت الأتابكى ، وتقدمه مثل صلاح الدين ، فاستردوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد .

وكانوا أربعة عشر مُسْتَخْلَفًا ، ثلاثة منهم بإفريقية ، وهم المُلَقَّبون بالمهدى والقائم والمنصور ، وأحد عشر بمصر ، وهم الملقبون : بالمعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلى ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد .

يَدَّعُون الشرف ، ونسبتُهم إلى مجوسى أو يهودى ، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام ، فصاروا يقولون : الدولة الفاطمية والدولة العلوية ، وإنما هى الدولة اليهودية أو المجوسية الباطنية الملحدة ، ومن قِحَتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ، ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها .

وخطب عبدهم جَوْهر – الذى أخذ لهم الديار المصرية ، وبنى لهم القاهرة المعزية – بنفسه خطبة طويلة قال فيها : اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة ، وسليل العِتْرة الهادية المهدية ، مَعَدّ أبى تميم الإمام المعز لدين اللَّه أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين ، وسلفه المُنْتَخَبين الأئمة الراشدين .

كذب عدو اللَّه اللعين ، فلا خير فيه ، ولا فى سلفه أجمعين ، ولا فى ذريته الباقين ، والعترة النبوية الطاهرة منهم بمَعْزِل ، رحمة اللَّه عليهم ، وعلى أمثالهم من الصدر الأول .

وقد بيَّن نسبهم هذا ، وأوضح مُحالهم ، وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الإسلام ، جماعةٌ ممن سلف من الأئمة والعلماء ، وكل متورع منهم لا يسميهم إلا بنى عبد الأدعياء ؛ أى : يدَّعون من النسب ما ليس لهم .

ورحمة اللَّه على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب ، فإنه كشف فى أول كتابه ، المُسَمَّى بـ « كشف أسرار الباطنية » ، عن بطلان نسب هؤلاء إلى على رضى اللَّه عنه ، وأن القدَّاح الذى انتسبوا إليه دَعِيٌّ من الأدعياء ، مُتَخَرِّق كذاب ، وهو أصل دعاة القرامطة ، لعنهم اللَّه .

وأما القاضى عبد الجبار البصرى ، فإنه استقصى الكلام فى أصولهم ، وبينها بيانًا شافيًا =

....

= في أواخر كتاب « تثبيت النبوة » له - وهو مطبوع في مجلدين - ، وقد نقل أبو شامة كلامهما في ذلك ، وكلام غيرهما في « مختصر تاريخ دمشق » ترجمة (عبد الرحيم بن إلياس) ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس .
وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقف الشعر عند سماعها ، ولكن لابد من ذكر شيء من ذلك ؛ تنفيرًا لمن لعله يعتقد إمامتهم ، وخفِي عنه مُحالهم ، ولم يعلم قِحَتهم ومكابرتهم ، وليعذر من أزال دولتهم ، وأمات بدعتهم، وقلل عِدَّتهم ، وأفنى أمتهم ، وأطفأ جمرتهم .
ذكر عبد الجبار القاضي أن المُلَقَّب بالمهدى - لعنه اللَّه - كان يتخذ الجهال ، ويسلطهم على أهل الفضل ، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء ، فيذبحون في فرشهم ، وأرسل إلى الروم ، وسلطهم على المسلمين ، وأكثر من الجَوْر واستصفاء الأموال وقتل الرجال ، وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم ، فيقولون لبعضهم : هو المهدى ابن رسول اللَّه ﷺ ، وحجة اللَّه على خلقه .
ويقولون لآخرين : هو رسول اللَّه ﷺ ، وحجة اللَّه على خلقه ، ويقولون لطائفة أخرى : هو اللَّه الخالق الرازق .
لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .
ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه ، وزاد شرُّه على شر أبيه أضعافًا مضاعفة ، وجاهر بشتم الأنبياء ، فكان ينادى في أسواق المهدية وغيرها : العنوا عائشة وبعلها ، العنوا الغار ومن حوى .
اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين ، والعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين ، وارحم من أزالهم ، وكان سبب قلعهم ، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم ، وأَصْلِهم سعيرًا ، ولَقِّهم ثُبورًا ، وأسكنهم النار جميعًا ، واجعلهم ممن قلت فيهم : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] .
وقام بعده ابنه المُسَمَّى بالمنصور ، فقتل من خرج على أبيه ، ينكر عليه قبيح فعله المُقَدَّم ذكرُه ، وسلَخه وصلَبه ، واشتغل بأهل الجبال يُقَتِّلُهم ويُشَرِّدُهم ؛ خوفًا من أن يثور عليه ثائر . =

....

= وقام بعده ابنه المسمى بالمعز ، فبَثَّ دعاته ، فكانوا يقولون : هو المهدى الذى يملك ، وهو الشمس الذى تطلع من مغربها ، وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب ، من أخذ الروم بلادهم ، واحتجب عن الناس أيامًا ، ثم ظهر ، وأوهم أن اللَّه رفعه إليه ، وأنه كان غائبًا فى السماء ، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقُلها إليه جواسيس له ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه .
وهذا أول خلفائهم بمصر ، وهو الذى تنسب إليه القاهرة ، واستدعى فقيه الشام أبى بكر محمد بن أحمد بن سهل الرَّملى ، ويعرف بابن النابُلُسى ، فحُمِل إليه فى قفص خشب ، فأمر بسلخه ، فسُلخ حيًّا ، وحُشِى جلده تِبْنًا وصلب ، رحمه اللَّه تعالى .
قال أبو ذر الهَرَوى : سمعت أبا الحسن الدارقطنى ، يذكره ويبكى ، ويقول : كان يقول ، وهو يُسلخ : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٨] .
قلت : وفى أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضى اللَّه عنهم على حيطان الجوامع ، والقياسر ، والشوارع ، والطرقات ، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب ، ثم أمر بقلع ذلك .
وفى أيامه طُوِّف بدمشق رجل مغربى ، ونودى عليه : هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر ، ثم ضربت عنقه ، وكان يجرى فى أيامهم من نحو هذا أشياء : مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى ، أحد الصالحين ، وكان أذَّن ببيت المقدس ، وقال فى أذانه : « حى على الفلاح » فأُخِذ وقُطِع لسانه ، ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربى وأبى بكر النابلسى الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى « تاريخه » (١٤/ق ٣٤٤) وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلا محنة من اللَّه تعالى ، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عِدَّتهم ، فإن عِدَّتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر ، وأولئك بَقُوا نَيِّفًا وتسعين سنة ، وهؤلاء بَقُوا مئتى سنة وثمانيًا وستين سنة ، فالحمد لله على ما يسَّر من هُلْكهم ، وإبادة ملكهم ، ورضى اللَّه عمن سعى فى ذلك وأزالهم ، ورحم من بيَّن مَخْرقتهم وكذبهم ومحالهم .
وقد كشف حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن على بن أبى نصر الشاشى فى كتاب الرد على الباطنية ، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش فى أيام نِزَار ، وكان المستنصر قد عهد فى حياته بالخلافة لابنه نزار ، فخلعه الأفضل ، وبايع المستعلى =

....

= بالله . انظر « الكامل » : (١٠ / ٢٣٧ - ٢٣٨) وما بعده .
ووصل الأمر إلى أن وصَفَ بعضُهم ما كانوا فيه فى قصيدة سماها : « الإيضاح عن دعوة القداح » أولها :

حَيَّ على مِصْرَ إلى خَلْعِ الرَّسَنْ فثَمَّ تَعْطِيلُ فُروضٍ وسُنَنْ

وقال : لو وُفِّق ملوك الإسلام لصرفوا أَعِنَّة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين ؛ فإنهم من شر أعداء دين الإسلام ، وقد خرجت من حد المنافقين إلى حد المجاهرين ؛ لِمَا ظهر فى ممالك الإسلام من كفرها وفسادها ، وتعين على الكافة فرض جهادها ، وضرر هؤلاء أشد على الإسلام وأهله من ضرر الكفار ؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية ، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها فى الأرض ، والله الموفق .
قال أبو شامة فى « الروضتين » (٢/٢١٤ - وما بعدها) وزاد : « ثم إنى لم يقنعنى هذا من بيان أحوالهم ، فأفردت كتابًا لذلك سميته « كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد » ، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به ؛ فإنى بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم ، ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمى رحمه الله ، وكان فى أيام الملقب بالعزيز ثانى خلفاء مصر ، فبين فيه أصولهم أتم بيان ، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد ، وتتبع ذكر فضائحهم ، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة ، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة ، وبالله التوفيق » .
وما أحسن ما قال فيهم من مدح بعض بنى أمية بقصيدة منها :

أَلستُم مُزِيلى دولةِ الكفرِ من بني عُبَيْدٍ بِمِصْرَ إن هذا هو الفَضْلُ
زَنادِقةٌ شِيعيَّةٌ باطِنِيَّةٌ مَجوسٌ وما فى الصالحين لهم أصلُ
يُسِرُّون كُفْرًا يُظْهِرون تَشَيُّعًا ليَسْتَتِروا شيئًا وعَمَّهم الجهلُ

وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى على رضوان الله عليه ، والتستر بالتشيع قد فعله جماعة القرامطة ، وصاحب الزِّنْج الخارج بالبصرة ، وغيرهم من المفسدين فى الأرض على ما عَرَف مَن سيرهم مَن وقَفَ على أخبار الناس ، وكلهم كذبة فى ذلك ، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال ، واستتباعهم لهم ، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ =

قال الإمامُ أبو حَفْصٍ تاجُ الدينِ الفاكهانيُّ – رحِمه اللَّهُ – : أما بعدُ فقد تكَرَّرَ سؤالُ جماعةٍ من المُبارَكِين عن الاجتماعِ الذى يَعْمَلُه بعضُ الناسِ فى شهرِ ربيعٍ الأولِ ، ويُسَمُّونه المولِدَ ، هل له أصلٌ فى الدينِ ؟ وقصَدوا الجوابَ عن ذلك مُبَيَّنًا ، والإيضاحَ عنه مُعَيَّنًا .

فقلتُ – وباللَّهِ التوفيقُ – : لا أَعْلَمُ لهذا المولدِ أصلًا فى كتابٍ ، ولا سنةٍ ، ولا يُنْقَلُ عَمَلُه عن أحدٍ من علماءِ الأمةِ الذين هم القُدْوةُ فى الدينِ ، المُتَمَسِّكون بآثارِ المُتقَدِّمين ، بل هو بدعةٌ أَحْدَثها البَطَّالون ، وشهوةُ نفسٍ اغْتَنَى بها الأَكَّالون[1] .

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ – رحِمه اللَّهُ –: وكذلك ما يُحْدِثُه بعضُ الناسِ ، إما مُضَاهاةً للنصارى فى ميلادِ عيسى عليه السلامُ ، وإما مَحَبَّةً للنبىِّ ﷺ ، وتعظيمًا ، من اتخاذِ مولدِ النبىِّ ﷺ عيدًا ، مع اختلافِ الناسِ فى مولدِه ؛ فإنَّ هذا لم يَفْعَلْه السّلفُ ، ولو كان هذا خيرًا مَحْضًا أو راجحًا لكان السّلفُ – رضِى اللَّهُ عنهم – أحقَّ به منّا ؛ فإنهم

= مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، ولا يُغْتَرُّ بأبيات الشريف الرضى فى « ديوانه » (٢/٩٧٢ – ٩٧٣) فى ذلك ، فقد حصل الجواب عنها فى كتاب « الكشف » بوجوه حسنة ، وباللَّه التوفيق . انتهى .

وانظر عنهم : « السير » (١٥/ ١٣، ١٤١، ٢١٥) « اتعاظ الحنفا » (١/٢٢– ٥٤) ، « المنتظم » (٧/٢٥٥ – ٢٥٦) « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة وكيفية مذهبهم وبيان اعتقادهم » للشيخ محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى (المتوفى نحو سنة ٤٧٠ هـ) « مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار » ليحيى بن حمزة « حركة الحشاشين تاريخ وعقائد » لمحمد عثمان الخشت . اهـ

(١) رسالة « المورد فى عمل المولد » .

كانوا أشدَّ محبةً للنبيِّ ﷺ ، وتعظيمًا له منا ، وهم على الخيرِ أحرصُ .

وإنما كان محبَّتُهُ وتعظيمُه فى مُتابَعتِه وطاعتِه ، واتِّباعِ أمرِه ، وإحياءِ سُنَّتِهِ ، باطنًا وظاهرًا ، ونَشْرِ ما بُعِثَ به ، والجهادِ على ذلك بالقلبِ واليدِ واللّسانِ ؛ فإنَّ هذه طريقةُ السّابقين الأوَّلين من المهاجِرين والأنصارِ ، والذين اتَّبَعُوهم بإحسانٍ[1] .

وقد أُلِّف فى إنكارِ هذه البدعةِ كتبٌ ورسائلُ قديمةٌ وحديثةٌ ، وهو عِلاوةٌ على كونه بدعةً وتشبُّهًا فإنه يَجُرُّ إلى إقامةِ موالدَ أخرى ، كموالدِ الأولياءِ والمشايخِ والزُّعماءِ ، فيَفْتَحُ أبوابَ شرٍّ كثيرةً .

٢- التَّبَرُّكُ بالأماكنِ والآثارِ والأشخاصِ أحياءً وأمواتًا :

التبرُّكُ : طلبُ البَرَكةِ ، وهو ثَباتُ الخيرِ فى الشيءِ وزيادتُه .

وطلبُ ثُبوتِ الخيرِ وزيادتِه إنما يكونُ ممَّن يَمْلِكُ ذلك ، ويَقْدِرُ عليه ، وهو اللَّهُ سبحانَه ، فهو الذى يُنَزِّلُ البركةَ ويُثَبِّتُها .

أمَّا المخلوقُ فإنه لا يَقْدِرُ على منحِ البركةِ وإيجادِها ، ولا على إبقائِها وتَثْبيتِها ، فالتبرُّكُ بالأماكنِ والآثارِ والأشخاصِ أحياءً وأمواتًا لا يجوزُ ؛ لأنه إما شركٌ إن اعْتَقَد أن ذلك الشيءَ يَمْنَحُ البركةَ ، أو وسيلةٌ إلى الشّركِ إن اعْتَقَد أن زيارتَه وملامستَه والتَّمَسُّحَ به سببٌ لحصولِها من اللَّهِ .

وأمَّا ما كان الصّحابةُ يَفْعَلونه من التَّبرُّكِ بِشَعَرِ النبيِّ ﷺ وريقِه وما انْفَصَل من جسمِه ﷺ[2] ، فذلك خاصٌّ به ﷺ فى حالِ حياتِه ، بدليلِ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦١٥، بتحقيق الدكتور ناصر العقل .

(٢) فمما ورد من تبرُّكهم رضى اللَّه عنهم بشَعَره ﷺ ما رواه مسلم رحمه اللَّه ٤/١٨٢١ =

أن الصّحابةَ لم يَكُونوا يَتَبَرَّكون بحُجْرتِه وقبرِه بعدَ موتِه ، ولا كانوا

= (٢٣٢٥) ، عن أنس رضى اللّه عنه قال : لقد رأيت رسول اللّه ﷺ والحَلاَّقُ يَحْلِقُه ، وأطاف به أصحابه ، فما يريدون أن تقع شَعْرة إلا فى يد رجل.

وقد ذكر النووى رحمه اللّه فى شرح مسلم ٨/٩١ أن من فوائد هذا الحديث بيان ما كان عليه الصحابة من تبركهم بشَعَره ﷺ الكريم ، وإكرامهم إياه أن يقع شيء منه إلا فى يد رجل سبَقَ إليه .

ومما ورد من تبرك الصحابة رضى الله عنهم بريقه ﷺ ؛ ما رواه البخارى (٥٤٦٩) ، ومسلم ٣/١٦٩٠ (٢١٤٦) ، عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها حَمَلَت بعبد الله بن الزبير بمكة ، قالت : فخرَجْتُ وأنا مُتِمٌّ ، فأتيتُ المدينة ، فنزَلْتُ قُبَاءً ، فولَدْتُ بقباءٍ ، ثم أتيتُ به رسول الله ﷺ ، فوضَعْتُه فى حَجْرِه ، ثم دعا بتَمْرةٍ ، فمَضَغَها ، ثم تَفَل فى فِيهِ ، فكان أولَ شيء دخَلَ جَوْفَه رِيقُ رسول الله ﷺ ، ثم حَنَّكه بالتمرة ، ثم دعا له ، فبَرَّك عليه .

ومما ورد فى ذلك أيضًا ما رواه البخارى رحمه الله (٢٧٣١، ٢٧٣٢) أن عروة ابن مسعود الثَّقَفى رضى الله عنه قال عن أصحاب النبى ﷺ : فوالله ما تَنَخَّم رسول الله ﷺ نُخَامة إلا وَقَعت فى كفِّ رجل منهم ، فدلَكَ بها وجهه وجلده.

وورد أيضًا تبركهم رضى الله عنهم بعَرَقه ﷺ ، فقد روى مسلم رحمه الله فى صحيحه ٤/١٨١٥ (٢٣٣١) ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ يَدْخُل بيتَ أمّ سُلَيْم ، فيَنَامُ على فراشها ، وليست فيه ، قال : فجاء ذات يوم ، فنام على فراشها ، فأُتِيَت فقيل لها : هذا النبى ﷺ نام فى بيتك ، على فراشك ، قال : فجاءت ، وقد عَرِق ، واسْتَنْقَعَ عَرَقه على قطعة أَدِيم ، على الفراش ، ففَتَحت عَتِيدَتها ، فجعلت تُنَشِّف ذلك العرق ، فتَعْصِرُه فى قواريرها ، ففَزِع النبى ﷺ ، فقال : « ما تَصْنَعِين يا أمّ سُلَيْم ؟ » فقالت : يا رسول الله ، نرجو بركته لصِبْيانِنا . قال : « أَصَبْتِ » .

وانظر كتاب « التبرك أنواعه وأحكامه » للدكتور ناصر الجديع ص٢٤٣ - ٢٥٦، فقد ذكر حفظه الله شيئًا كثيرًا من تبرك الصحابة رضى الله عنهم بالنبى ﷺ .

وهنا مسألة ينبغى التنبيه عليها ، وهى : هل يوجد شيء من آثار الرسول ﷺ فى العصر الحاضر ؟ قال الشيخ الألبانى رحمه الله فى كتاب « التوسل أنواعه وأحكامه » ص١٤٦ : =

يَقْصِدون الأماكنَ التى صَلَّى فيها ، أو جَلَس فيها ليَتَبَرَّكُوا بها ، وكذلك مقاماتُ الأولياءِ من بابِ أولى .

ولم يَكُونوا يَتَبَرَّكون بالأشخاصِ الصّالِحِين كأبى بكرٍ وعمرَ وغيرِهما من أفاضلِ الصحابةِ ، لا فى الحياةِ ، ولا بعدَ الموتِ .

ولم يكونوا يَذْهَبون إلى غارِ حِراءٍ ؛ ليُصَلُّوا فيه أو يَدْعُوا .

ولم يكونوا يَذْهَبون إلى الطُّورِ الذى كلَّم اللَّهُ عليه موسى ليُصَلُّوا فيه ويَدْعُوا ، أو إلى غيرِ هذه الأمكنةِ من الجبالِ التى يُقالُ : إنَّ فيها مقاماتِ الأنبياءِ أو غيرِهم ، ولا إلى مَشْهَدٍ مبنيٍّ على أَثَرِ نبيٍّ من الأنبياءِ .

وأيضًا فإنَّ المكانَ الذى كان النبيُّ ﷺ ، يُصَلِّى فيه بالمدينةِ النبويةِ دائمًا لم يَكُنْ أحدٌ من السّلفِ يَسْتَلِمُه ولا يُقَبِّلُه ، ولا الموضعَ الذى صلَّى فيه بمكةَ وغيرِها .

فإذا كان الموضعُ الذى كان يَطُؤُه بقَدَمَيْهِ الكريمَتَيْنِ ، ويُصَلِّى عليه لم يُشْرَعْ لأُمَّتِه التَّمَسُّحُ به ، ولا تَقْبيلُه ، فكيف بما يقالُ : إن غيرَه صلَّى فيه ، أو نام عليه ، فتقبيلُ شيءٍ من ذلك ، والتَّمَسُّحُ به قد عَلِم العلماءُ بالاضطرارِ من دينِ الإسلامِ أن هذا ليس من شريعتِه ﷺ[1] . اهـ

٣- البدعُ فى مجالِ العباداتِ والتقرُّبِ إلى اللَّهِ :

البدعُ التى أُحْدِثَت فى مجالِ العباداتِ فى هذا الزمانِ كثيرةٌ ؛ لأن

= ونحن نعلم أن آثاره ﷺ ، من ثياب ، أو شَعَر ، أو فَضَلات ، قد فُقِدَت ، وليس بإمكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين . اهـ

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٧٩٥- ٨٠٢، بتحقيق الدكتور ناصر العقل .

الأصلَ فى العباداتِ التّوقيفُ ، فلا يُشْرَعُ شيءٌ منها إلا بدليلٍ ، وما لم يَدُلَّ عليه دليلٌ فهو بدعةٌ ؛ لقولِه ﷺ : « مَن عَمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ »[1] .

والعباداتُ التى تُمارَسُ الآنَ ، ولا دليلَ عليها كثيرةٌ جدًّا ، منها :

١- الجَهْرُ بالنيّةِ للصّلاةِ[2] ، بأن يقولَ : نوَيْتُ أن أُصَلِّيَ للهِ كذا وكذا . وهذا بدعةٌ ؛ لأنه ليس من سنةِ النبيِّ ﷺ ، ولأنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ : ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٦] .

والنيةُ مَحَلُّها القلبُ ، فهى عملٌ قلبيٌّ ، لا عَمَلٌ لسانيٌّ[3] .

---

(١) تقدم تخريجه ص١٩٣ .

(٢) قال الشيخ عمر بن سليمان الأشقر فى كتابه « النيات فى العبادات » ص١٢٣:
الجهر بالنية لا يجب ، ولا يستحب باتفاق علماء المسلمين ، بل الجاهر بالنية مبتدع مخالف للشريعة ، وإذا فعل ذلك معتقدًا أنه من الشرع فهو جاهل ضال ، يستحق التعزير وإلا فالعقوبة على ذلك ، إذا أصرَّ عليه بعد التعريف والبيان له ، لا سيما إذا آذى من إلى جنبه برفع صوته ، أو كرر ذلك مرة بعد مرة . اهـ
وأما التلفظ بها هَمْسًا فقال حفظه الله فى نفس الكتاب ص ١٢٥ : التلفظ بالنية سرًّا لا يجب عند الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين ، فلم يقل أحد من الأئمة بوجوب ذلك ، لا فى الطهارة ، ولا فى الصلاة ، ولا فى الصوم .
وقال حفظه الله ص ١٢٦ : أما القول باستحباب التلفظ بها فلم يقل به أحد من الأئمة الأربعة ، ولا غيرهم من الأئمة السابقين ، بل المنصوص عن الإمام مالك وأحمد أنه لا يستحب التلفظ بذلك . اهـ

(٣) وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى مجموع الفتاوى ٢٦٢/١٨ اتفاق علماء الشريعة على أن القلب محل النية ، وعلى أن الإنسان إذا نوى العبادة بقلبه ، ولم =

ومنها : الذِّكْرُ الجَمَاعِيُّ بعدَ الصلاةِ ؛ لأنَّ المشروعَ أن كلَّ شَخْصٍ يقولُ الذكرَ الواردَ مُنْفَرِدًا .

ومنها : طلبُ قراءةِ الفاتحةِ في المناسباتِ ، وبعدَ الدعاءِ ، وللأمواتِ .

ومنها : إقامةُ المآتِمِ على الأمواتِ ، وصناعةُ الأطعمةِ ، واستئجارُ المُقْرِئين ، يَزْعُمون أن ذلك من بابِ العَزاءِ ، أو أنَّ ذلك يَنْفَعُ الميتَ ، وكلُّ ذلك بدعةٌ لا أصلَ لها ، وآصارٌ وأغلالٌ ما أنْزَلَ اللَّهُ بها من سُلْطانٍ[1] .

ومنها : الاحتفالُ بالمناسباتِ الدينيةِ ، كمناسبةِ الإسراءِ والمعراجِ ، ومناسبةِ الهِجْرةِ النبويةِ ، وهذا الاحتفالُ بتلك المناسباتِ لا أصلَ له من الشَّرعِ .

ومن ذلك : ما يُفْعَلُ في شهرِ رَجَبٍ[2] ؛ كالعُمْرةِ الرَّجَبيةِ ، وما يُفْعَلُ

= يتكلم بلسانه أجزأته هذه النية .

(١) قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ١/٥٢٧ : وكان من هديه ﷺ تعزية أهل الميت ، ولم يكن من هديه أن يُجْتَمَع للعزاء ، ويُقْرَأ له القرآن ، لا عند قبره ، ولا غيره ، وكل هذا بدعة حادثة مكروهة . اهـ

(٢) قال الشيخ محمد محيي الدين في تحقيقه لأوضح المسالك ٣/ ٢٩٧ : ومما يسأل ههنا : هل (رجب) منصرف أو ممنوع من الصرف ؟ وقد ذكر سعد الدين التفتازاني في حاشيته على تفسير الكشاف أنه إذا أريد برجب - ومثله صفر - معين فإنهما ممنوعان من الصرف ، وإذا أريد بهما غير معين فهما مصروفان .

ويسأل - بعد ذلك - عن علة منعهما من الصرف ، والجواب عن ذلك أن العلماء سلكوا في بيان العلة مسلكين .

أولهما : أن علة منعهما من الصرف العلمية والعَدْل عن الرجب والصفر المقترنين بأل ، =

فيه من العباداتِ الخاصّةِ به ؛ كالتَّطَوُّعِ بالصّلاةِ والصيامِ فيه ؛ فإنه لا مِيزَةَ له على غيرِه من الشهورِ ، لا فى العمرةِ ، والصّيامِ ، والصّلاةِ ، والذَّبحِ للنُّسُكِ فيه ، ولا غيرِ ذلك .

ومن ذلك : الأذكارُ الصُّوفيةُ بأنواعِها كلِّها بدعٌ ومُحْدَثاتٌ ؛ لأنها مُخالِفةٌ للأذكارِ المشروعةِ فى صِيَغِها وهيئاتِها وأوقاتِها .

ومن ذلك : تخصيصُ ليلةِ النّصفِ من شعبانَ بقيامٍ ، ويومِ النّصفِ من شعبانَ بصيامٍ ؛ فإنه لم يَثْبُتْ عن النبيِّ ﷺ فى ذلك شيءٌ خاصٌّ به[١] .

ومن ذلك : البناءُ على القبورِ ، واتخاذُها مساجدَ ، وزيارتُها لأجلِ التبرُّكِ بها ، والتوسُّلِ بالمَوْتَى ، وغيرِ ذلك من الأغراضِ الشركيةِ ، وزيارةُ النساءِ لها ، مع أنَّ الرسولَ ﷺ لعَنَ زُوَّراتِ[٢] القُبورِ[٣] والمُتَّخِذِين عليها المساجدَ والسُّرُجَ[٤] .

= كما أن (سَحَر)- المراد به معين - ممنوع من الصرف للعدل عن السَّحَر .
والمسلك الثانى : أن المانع من الصرف لرجب ولصفر هو العلمية والتأنيث المعنوى ؛ لكونهما عبارة عن مدة من الزمان معينة . اهـ

(١) قال الشاطبى فى الاعتصام ١/ ٤٦ : ومنها التزام العبادات المعيَّنة فى أوقات معينة ، لم يوجد لها ذلك التعيين فى الشريعة ؛ كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليله . اهـ

(٢) كذا بضم الزاى ، وانظر كتاب الأجزاء الحديثية للشيخ بكر عبد الله أبى زيد ص١١٩ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده ٢/٣٣٧ (٨٤٣٠) ، ٢/٣٥٦، (٨٦٥٥) ، والترمذى (١٠٥٦) ، وابن ماجه (١٥٧٦) ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .
ورواه أيضًا ابن ماجه (١٥٧٤) عن حسان بن ثابت ، (١٥٧٥) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٤) أبو داود (٣٢٣٦) ، والترمذى (٣٢٠) ، والنسائى (٢٠٤٢) .

الخاتمةُ

وخِتـامًا : نقولُ : إن البدعَ بريدُ الكفرِ ، وهى زيادةُ دينٍ لم يَشْرَعْه اللَّهُ ، ولا رسولُه ﷺ ، والبدعةُ شرٌّ من المعصيةِ الكبيرةِ ، والشيطانُ يَفْرَحُ بها أكثرَ مما يَفْرَحُ بالمعاصى الكبيرةِ ؛ لأنَّ العاصيَ يَفْعَلُ المعصيةَ ، وهو يَعْلَمُ أنها معصيةٌ فيتُوبُ منها ، والمُبْتَدِعُ يَفْعَلُ البدعةَ يَعْتَقِدُها دينًا يَتَقَرَّبُ به إلى اللَّهِ ، فلا يَتُوبُ منها .

والبدعُ تَقْضِى على السُّنَنِ ، وتُكَرِّهُ إلى أصحابِها فعلَ السننِ وأهلَ السنةِ .

والبدعةُ تُباعِدُ عن اللَّهِ ، وتُوجِبُ غضبَه وعِقابَه ، وتُسَبِّبُ زَيْغَ القلوبِ وفَسادَها .

ما يُعامَلُ به المُبْتَدِعةُ :

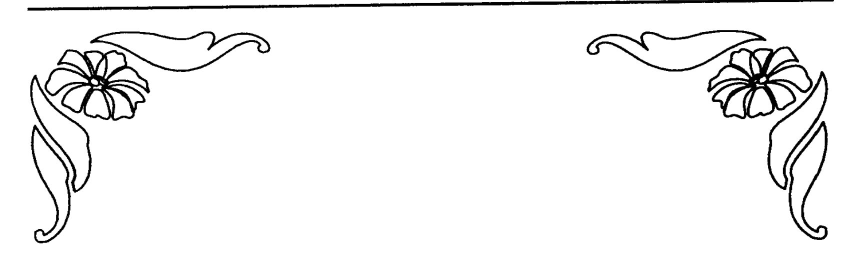
تَحْرُمُ زيارةُ المُبْتَدِعِ ومُجالسَتُه إلا على وجهِ النّصيحةِ له ، والإنكارِ عليه ؛ لأنَّ مُخالَطَتَه تُؤَثِّرُ على مُخالِطِه شَرًّا ، وتَنْشُرُ عَدْواه إلى غيرِه ، ويَجِبُ التَّحْذِيرُ منهم ، ومن شرِّهم إذا لم يُمْكِنِ الأخذُ على أيديهم ومنعُهم من مُزوالةِ البِدَعِ ، وإلا فإنه يَجِبُ على العلماءِ المسلمين ووُلاةِ أمورِهم منعُ البدعِ ، والأخذُ على أيْدِى المُبْتَدِعةِ ، ورَدْعُهم عن شَرِّهم ؛ لأنَّ خطرَهم على الإسلامِ شديدٌ .

ثم إنه يَجِبُ أن يُعْلَمَ أنَّ دُوَلَ الكفرِ تُشَجِّعُ المُبْتَدِعةَ على نَشْرِ بدعِهم ، وتُساعِدُهم على ذلك بشتَّى الطُّرُقِ ؛ لأنَّ فى ذلك القضاءَ على

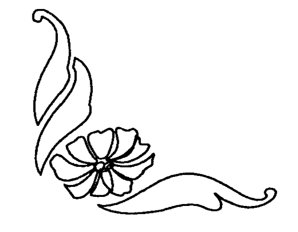
الإسلامِ وتَشْويهَ صُورتِه .

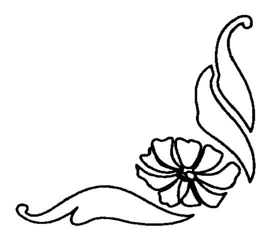
نَسْأَلُ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - أن يَنْصُرَ دينَه ، ويُعْلِيَ كلمتَه ، ويَخْذُلَ أعداءَه ، وصلَّى اللَّهُ على نبيِّنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِه وسَلَّم .

* * *

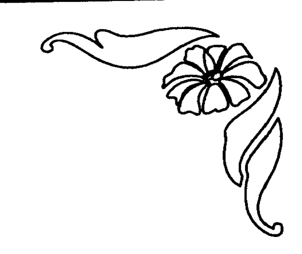


الفهارس العامـة

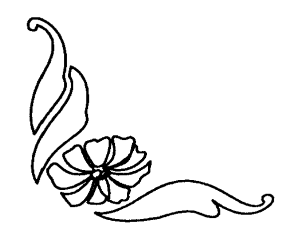
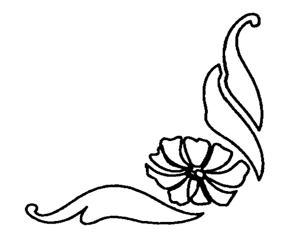






أولًا : فهرس الأحاديث المرفوعة القولية والفعلية ، مرتبة حسب حروف المعجم

باب الهمزة

« همزة الوصل »

« همزة القطع »

«باب الباء»

«باب التاء»

«باب الثاء»

«باب الجيم»

«باب الحاء»

«باب الخاء»

« باب الدال »

« باب الذال »

« باب السين »

« باب الصاد »

« باب العين »

« باب الغين »

« باب الفاء »

« باب القاف »

« باب الكاف »

« باب اللام »

« باب الميم »

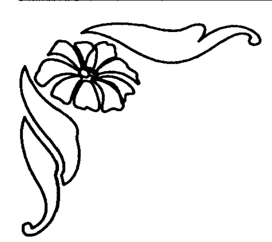
« باب النون »

« باب الهاء »

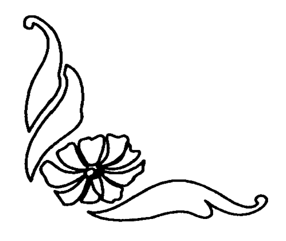
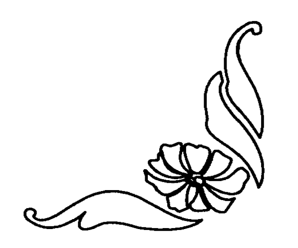
« باب الواو »

« باب الياء »

* * *




ثانيًا : فهرس الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين رضوان اللَّه عليهم أجمعين، مرتبة حسب حروف المعجم

« باب الباء »

« باب الحاء »

« باب الخاء »

« باب الزاى »

« باب السين »

« باب الصاد »

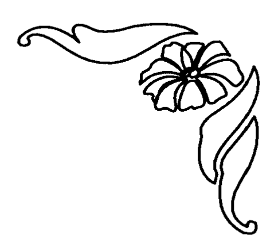
« باب العين »

« باب الفاء »

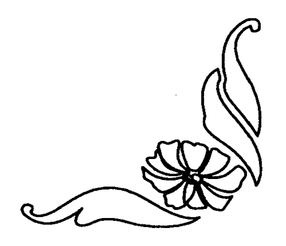
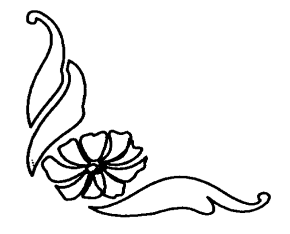
« باب القاف »

« باب الكاف »

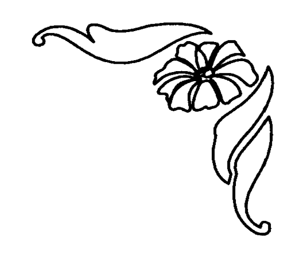
* * *




ثالثًا : فهرس الأعلام المترجم لهم فى الحاشية

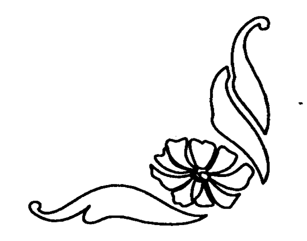
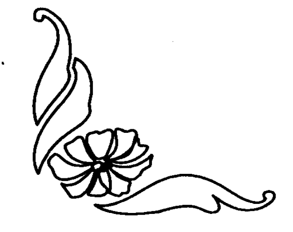



* * *



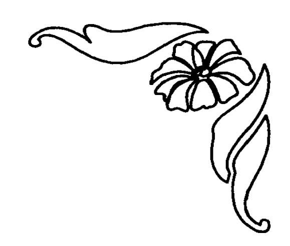

رابعًا:

فهرس غريب الألفاظ

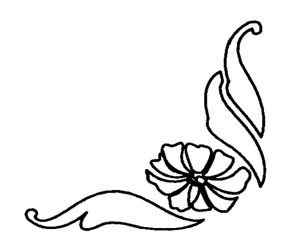
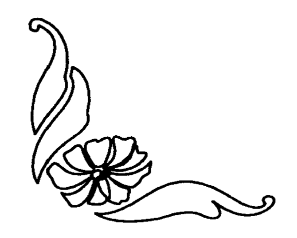
الكلمة	الصفحة
أَقْذَع	٧
الحُرنجَم	٦٥
تَضَامُّون	٢٦
بَوَاحًا	٣٥
خَرْطُ القَتَادِ	٦٦
مَدْرَجة	٨٧
تَرَبُّها	٨٧
يطعُن	١٥٨
زنديق	١٩٥
الزِّنْبِيل	٢١٧
مَجارِف	٢١٧
الخَمِيصة	٢٢٦
الخَمِيلة	٢٢٦
القرُّ	٢٤٨
البارِيَّة	٢٥٤
القِرَام	٢٦٣
رِبْقَة	٢٧٨
العُبِّيَّة	٢٨٨
الغَمُوس	٣٠٢
التَّبَتُّل	٣٥٤

* * *

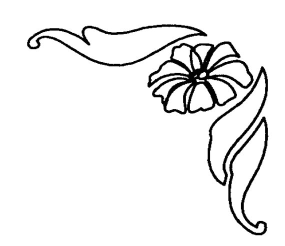



خامسًا :

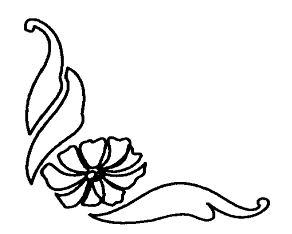
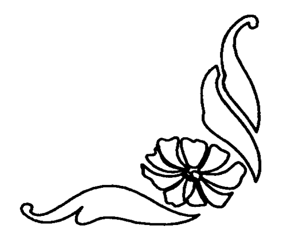
فهرس الفرق المترجم لهم فى الحاشية

* * *

سادسًا :
فهرس الموضوعات

الرسالة الأولى : الرد على السيـابى

الموضوع الصفحة

الرسالة الثانية :

الولاء والبراء في الإسلام

الموضوع **الصفحة**

* * *

الرسالة الثالثة :

حقيقة لا إله إلا الله

* * *

الرسالة الرابعة :

عقيدة التوحيد

* * *


الشركة المصرية للطباعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت / ٥٨٨٨٨٨٦